دراسات في الأدب والشعر

الأدب فى العصر العباسى

عوامل التأثير ومظاهر التأثر

الدكتورة

وجيهة محمد المكاوى

دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع

دار الجديد للنشر والوزيع

810.94
المكاوي، وجيهه محمد .
ا . و
دراسـات فـي الـدب والشـعر: الأدب فـي العصـر العباسـي (عوامـل التأثير ومظاهر التأثر) / وجيهـه محمد المكـاوي.- ط1.- دسوق : دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع ، دار الجديد للنشر والتوزيع.
321ص ؛ 17.5*25
تدمك : 8– 712– 308 – 977 – 978
1. الأدب العربي – تاريخ – العصر العباسي.
أ. العنوان

رقم الإيداع : **22081**

الناشر : دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع

دسوق - شارع الشركات- ميدان المحطة – بجوار البنك الأهلي المركز
هاتـف- فاكس : 0020472550341 محمول : 00201097564757-00201277554725
E-mail: elelm_aleman2016@hotmail.com & elelm_aleman@yahoo.com

الناشر : دار الجديـد للنشر والتوزيع

تجزءة عزوز عبد الله رقم 71 زرالدة الجزائر
هاتف : 24308278 (0) 002013
محمول 661623797 (0) 002013 & 772136377 (0) 002013
E-mail: dar_eldjadid@hotmail.com

2021

المقدمة

العصـــر العباســى ... امتــاز العصـــر العباســى بكثــرة المتغـيرات وتلاحــق الأحداث .. مما سـحب أرديـة التغيـير عـلى الحيـاة السياسـية .. والاجتماعيـة ... والفكرية ... وقد انعكـس ذلـك كلـه عـلى الأدب فظهـرت موضـوعات جديـدة وجددت موضوعات قديمة؛ كسيت ثوبًا قشيبا ... ومست يد التغيير نهج القصـيدة عامة ، ثم انسابت إلي جزئياته الخاصة إذ كان للتطور الحضاري أثـرًا ملموسًـا امتـد للمعاني والخيال وألفاظ الأدب وموسـيقاه.وكـان هنـاك مبـدعون نهضـوا بعـبء التغيـير ذاع صـيتهم. وكانـت هنـاك عوامـل تـأثير أثـرت في الأدب "الشـعوبية – المجون- الزهد" فظهر أثرها في الإبداع تأثرًا بها.

وتعددت الظواهر الأدبية في الجانب النثري؛ في فن الخطابـة، التوقيعـات ... والتطور الكتابى ... وغيرها من الفنون مماكـان لـه قـدم راسـخة في أثقـال الأدب وصبغه بصبغة التطوير والتجديد، وجعلـه مـرآة عاكسـة لملامـح العصـــر الحسـنة والسيئة

والله الموفق

دكتورة

وجيهة محمد المكاوى

الدولة العباسية

امتازت الدولة العباسية بأطرافها المترامية؛ وحدودها الفسيحة؛ فقد كانت تمتد من حدود الصين وأواسط الهند شرقاً، إلى بلاد الترك والخرز وما وراء النهر وايران والعراق والجزيرة العربية والشام ومصر والمغرب. وهى أوطان كثيرة، وكان يعيش فيها منذ القدم شعوب متباينة فى الجنس واللغة والثقافة، غير أنها لم تكد تدخل فى نطاق العروبة حتى أخذت عناصرها المختلفة تمتزج بالعنصر العربى امتزاجاً قوياً، فإذا بنا إزاء أمة عربية تتألف من أجناس مختلفة .

وهذه سمة اسلامية عربية، فالإسلام يعلى ثوابت تخرج من النطاق الفكرى النظرى الى الانتماء الفعَّال التطبيقى، فيضفى صبغته على كل الأجناس المدينة له الخاضعة لتعاليمه.

والعرب أمة مؤثرة تمتلك من المؤثرات التى تعد من خواص التكوين ما دفع الآخرون لاعتناق منهجيتهم وطرائقهم فى الحياة، وقد مضت هذه الأجناس تنصهر فى الوعاء العربى حتى غدت كأنها جنس واحد.

وتعد رابطة الدين أقوى الروابط التى وحدت بين هذه الأجناس المنوعة، وجعلت له الكلمة العليا التى تحرص عليها مختلف الأجناس، ولا سيما بعد التمازج الذى حدث بالمعاهدة والاختلاطات الحادثة بعد الفتح وغيرها من وسائل الربط بين أفراد المجتمع فجعلت السنديين، والحبشيين، والفارسيين، والخرسانيين والتركيين، والروم يدينون بالولاء التام للعرب.

العصر العباسى الأول

ظهور العباسيين: كانت الدعوة تسير خفية والإمام المدعو له ما زال مجهولاً لم يظهر على السطح، وكان آل ابراهيم الإمام ومنهم أخوه أبو العباس وأبو جعفر – قد غادر الحميمة الى الكوفة، وتلقاهم كبير دعاتهم ابو سلمة الخلال ثم ارتأى ابو سلمة أن ينقل الأمر للعلويين فكاتب ثلاثة من أعيانهم: جعفر الصادق بن محمد الباقر، عبد الله المحصن بن حسن بن حسن ، عمر الأشراف زين العابدين، لكن لم يستجب أحد لهم ثم عرف الناس أنَّ آل محمد استوطنوا واستقروا بالكوفة، فذهبوا اليهم وسلموا على أبى العباس بالخلافة.

ثم مرض أبو العباس فقام عمه داوود بن على وألقى خطبته وجاء فيها:

1- أنَّ بنى العباس لم يخرجوا طلبا للدنيا واكتناز الثروة وبناء القصور، بل أنفاً من ابتزاز بنى امية حقهم، وغضباً لما أصاب بنى عمومتهم العلويين من الضر على أيدى الأمويين.

2- وانهم لم يخرجوا إلا لسوء سيرة بنى أمية فى الناس بما قدموا من إذلال واستئثارا بالفيء والصدقات والمغانم دونهم.

3- الوعد بالحكم بين الناس بما أنزل الله فى كتابه العزيز دون تفرقة بين عامة وخاصة.

4- أنهم سيظلون ولاة هذا الأمر حتى يسلموا إلى عيسى بن مريم.

ونجد أن الأفكار المبثوثة فى الخطبة من توضيح مُعتَقَدْ بنى العباس عن الولاية؛ ورغبتهم فى إقرار العدل ورفع الظلم، والعمل بكتاب الله افكاراً مقبولة وممكنة التنفيذ، واذا كانت منطلقات الثورات ... الدين، التغيير، الإصلاح الإقتصادى والإجتماعى والسياسى، فإنَّ العناصر الموجودة فى المجتمع آنذاك قد

ارتضت تلك المبادىء ورحبت بها، فالشيعة العلويين رأوا قرب انفراج أزمتهم والتخلص من اضطهاد الأمويين، والموالى رأوا الخلاص من ظلم العرب وتميزهم ... وعامة الناس الذين سُخِّروا للجباية والضرائب شعروا بقرب الخلاص، إضافة الى أنَّ المتمسكين بالدين رأوا فى مبدأ التمسك بكتاب الله بشرى حسنة للرجوع للدين والتخلص من مظاهر التحلل والانصراف من الملزات ... وبذلك اجتمعت تلك العناصر على قبول الدعوة العباسية إلا فكرة تيقنهم من استمرارية حكمهم حتى تسليمه الى المسيح، ربما كان ذلك توافقاً مع الأفكار الشائعة فى تلك المناطق فقد كانت الروادية تؤمن بالنتائج والحلول وهى منتشرة فى خراسان فقد اعتقدوا أنَّ روح المسيح قد تجسمت فى على بن أبى طالب، ثم فى الأئمة من بعده، حتى الإمام إبراهيم بن محمد ومن ثم فالإمام ينطوى على روح إلهية.

وهذا معتقد فارسى، فكثير من الفرس كانوا يعتقدون بحلول روح الإله فى الخليفة، لذا هم على أهبة الاستعداد لطاعة خلفاءهم استجابة لمعتقدهم القديم رغم إسلامهم، ولم يكن خلفاء بنى أمية يتوافقون مع تلك الفكرة، لذا رأوا فى الدعوى العباسية من الدعوة للرضا من آل محمد فوقفوا إلى جوارها ودافعوا عنها. كان مروان الخليفة الأموى قد عسكر فى جيشه بالموصل فأرسل له أبو العباس جيشًا بقيادة عمه عبد الله بن على فالتقى الجيشان على نهر الزاب الأكبر ودارت معارك عنيفة، فانتصر عبد الله وفر مروان وتعقبه عبد الله فى مدن الشام، وفلسطين، ثم جاء الى مصر واختفى فى أحد أديرة أبو صير، لكن أبو العباس وجه إليه جيشًا بقيادة صالح بن على الذى ظل يتعقبه إلى أن عثر عليه وقتله 133 هـ.

وأعمل العباسيون سيوفهم فى الأمويين وتمادوا فى الانتقام منهم أحياءً وأمواتاً، ولقى الأمويون العذاب الشديد على أيدى العباسيين، فى مختلف الأماكن: سليمان بن على فى البصرة، داوود بن على فى مكة والمدينة، وعبد الله بن على الذى تتبع الأمويين وظل في تتبعه لهم حتى استوت الأمور على سوقها، وبدأ عصر الدولة العباسية.

الخــلافة العباسية

أطلق العباسيون يد الموالى – الفرس – فى الحكم اعترافا بفضلهم وامتنانا لهم على مساعدتهم للتخلص من الأمويين والوصول الى سدة الحكم فاستوزروهم، واتخذوا منهم الحُجَّاب واستعملوهم فيما رفع من المناصب غير أنهم كانوا منهم فى شك لعلمهم برغبتهم العارمة فيإعادة المجد الفارسي والاستيلاء على الحكم ... لذا كان الحكام منهم فى حيطة وحينما يجدون تلك الروح كانوا ينكلون أشد التنكيل، وقد قتل الخليفة أبو جعفر المنصور أبا مسلم الخرسانى ... -على ما أداه من دور فى استيلاء العباسيين على الحكم – لأنه كتب اسمه قبل اسم الخليفة، إذ استشعر الخليفة أنه يطمح إلى الخلافة.

وكان البرامكة يتقلدون المناصب الرفيعة ثم نكل بهم هارون الرشيد لاستفحال أمرهم، وفُحش غناهم حتى أنهم كانوا يعطون الشعراء أكثر مما يعطى الخليفة ولم يكد العباسيون يظهرون على الساحة ويسودون حتى أخذ العلويون يشيعون فى الناس أنهم اغتصبوها لأنهم ورثتها الحقيقيين إذ هم أبناء بنت رسول الله ﷺوأبناء على بن عمه ... ودفع ذلك العباسيون بأنهم ينبغى أن يرجعوا الى نظام المواريث الذى به حجب العم لأن العم يحرم ابن البنت من ميراث جده لأمه وهم ابناء عم الرسول فهم أولى بالخلافة[1].

"خصوا برحم رسول الله ﷺ وقرابته ونشأوا من آبائه ونبتوا من شجرته، وإذا كان العلويون يزعمون أنَّ الرسول ﷺ نص على إمامة على بن أبى طالب بعده وأنَّ أبناءه ورثوا منه إمامته؛ فقد زعم العباسيون أنَّ الرسول ﷺ قال لجدهم العباس إنَّ الخلافة تكون فى ولدك .. ومن ثم اشتدت الخصومة بين الفرعين الهاشميين

1- يقول د شوقي ضيف: هذا المستند الذي يستند إليه الإثنان فاسد، لأنهما أنزلا الخلافة منزلة الإرث، والرسول لا يورث في ماله، فضلاً عن ولاية المسلمين . العصر العباسي الأول، دار المعارف – بتصرف.

فى أيهما أقرب للرسول فتلك الصلة هى المستند الـذى يعـول عليـه كلاهمـا بإدعائـه بأحقيته فى الخلافة ... وقد أخذ المنصور يتعقب العلويين فى دارهـم بالمدينـة حتـى ترامى اليه أنَّ محمد بن عبد الله سليل الحسن بن على ابن أبى طالب "الملقب بالنفس الذكية" يبث الدعاة فى الحجازلنشـر دعوته، وأخذ البيعة لنفسه، كـذلك انتشـــرت الدعوى في العراق، فأمروا اليه أن يَجِّد فى طلب العلويين، فقبض على جماعـة مـنهم وأوثقهم بالحديد وحملهم معه إلى الحيرة وهناك أُلقى بهـم فى سرداب تحـت الأرض عند قنطرة الكوفة لا يعرفون ليلاً ولا نهاراً حتى ماتوا جميعاً.

وكان العباسيون شديدي البأس، أقوياء نكلوا بجميـع مـن ساعدهم مـن العلويين والعرب حتى قيل:

يا ليـت جـور بنـى أميـة دام لنـا   يا ليت عدل بنى العبـاس فى النـار

وظل الخلفاء على شدتهم وبأسهم وهيبـتهم حتـى عهـد المتوكـل والمنتصـــر والمستعين والمعتز.

ثم خارت قوى الخلفاء لوجود الأتراك الذين نافسوا الفرس فى السيطرة عـلى الخليفة والخلافة والإمساك بمقاليد الحكم، فقد اطمئن المعتصم للأتـراك واسـتعان بهم واطلق أيديهم فى الحكم، وكل من أتى بعده وأوسع لهم فى سلطانهم، حتى أنهـم اختاروا المتوكل خليفة لأن أمه "شجاع" كانت تركية وحيـنما أراد الـتخلص مـنهم دبروا قتله بيد ابنه المنتصـر؛ كذلك نكلوا بالمستعين والمعتز. وعانت الدولة العباسية من الثورات المتلاحقة للعلويين وخروجهم على الخلافة وكذلك الفتنة والحروب.

فعمدوا الى قمعها على نحو ما حدث في "ثورة الراوندية" اتباع ابن الراوندى الرافض والزنادقة فى فارس والعراق ... والخرمية اتباع "بابك الخرمى" وقد ظلـت الخلافة العباسية عفية قوية نحو ما يربوا على المائة عام 221 – 334 ثم بعـدها أتـى عصر الدويلات نتيجة للفوضى وضعف الخلافة اسـتقلت بعـض الـدول كالدولـة الظاهرية بخرسان وهى فارسية وغيرها.

خراسان نقطة الانطلاق:

فكر محمد بن على فى المكان الذى يتمتع بالســرية التامـة تنطلـق منـه دعوتـه، يستطيع فيه أن يتعهدها وينميها رعاية وحفظا سرًا، ثم يحميهاويساندها علانية، فقد أدرك أن الحضارة العربيـة قـد أقامـت الدولـة حتـى نهايـة القـرن الأول الهجـرى، ثـم قامـت بانجـازات وفتوحـات عظيمـة، وإنَّـه حـان الوقـت لتسـتبدل الـدعوة الاسلامية بالدعوة العربية فتكـون الرابطـة الاسـلامية أقـوى وأشـمل وأعـم مـن الدعوة العربية.

فكانت خراسان بما يتوافر فيها من مزايا البعد عن مقر الخلافة الأموية التركية السكانية بما شملت من سكان أصـليين، وجنـد مجاهـدون، وأخـلاط مـن القبائـل العربية، وخاصة اليمانية كل تلك التوليفة اجتمعت عـلى بغـض بنـى أميـة، إضـافة إلى أنَ موقعها أعطى الفرصة السـانحة للفـارين والغاضـبين عـلى الحكـم الأمـوى أن يجتمعوا متألبين عليه، وأبرزوا ما تتوق إليه نفوسهم ، وتطمح إليه.

أولاً: هو بغض بنى أمية وتمنى زوال دولتهم لذاما لبثوا أن اجتمعت كلمتهم

ثانياً: على الالتفاف حول الدعوة العباسية وقـد التـزم محمـد بـن عـلى خطـة محكمة حيث وضع نصب عينيه خواص البلدان حوله، وما اتسمت به كل بلـد ومـا تفردت به دون سوادها ، ففى الكوفة وسوادها يسيطر شيعة على وولده ، والبصرـة تدين بالكف وتؤثر الاستكانة تقول: "كن عبد الله المقتول ولا تكن عبد الله القاتل" وقد عمل محمد تنظيما وكان هو على رأس التنظيم " يليه ميسـرة مولى على بـن عبـد الله مقيماً على الدعوة فى الكوفـة، ومحمـد بـن خنـيس وأبـو عكرمـة السـراج عـلى خراسان، ثم يتلو هؤلاء أثنا عشـر نقيباً يختص كل منهم بعدد من الدعاة ثـم نظـراء النقباء وعددهم عشـرون، وقيل إنهم واحد وعشـرون ولكن يبدو أنهم كانوا اثنـى عشر، يحل الواحد منهم محل النقيب إذا توفى، ويلى هؤلاء سبعون من الدعاة، وكان بعض نظراء النقباء منهم" الروية والتفسير، وحينما أراد توجيه دعوةلأنصـاره كلـم

أتباعه عن خواص الأماكن فقال: "وأما الجزيرة فحرورية مارقة، وأعراب كأعلاج، ومسلمون فى أخلاق النصارى، وأما أهل الشام فليس يعرفون إلا آل أبى سفيان وطاعة بنى مروان، وعداوة راسخة وجهل متراكم، وأما مكة والمدينة فقد غلب عليهما أبو بكر وعمر، ولكن عليكم بخراسان ، فإنَّ هناك العدد الكثير، والجلد الظاهر، وهناك صدور سليمة وقلوب فارغة لم تتقسمها الأهواء، ولم يتوزعها الدغل، وهم جند لهم أبدان وأجسام ومناكب وكواهل وهامات، ولحى وشوارب وأصوات هائلة، ولغات فخمة تخرج من أجواف منكرة، وبعد فإنى أتفاءل إلى المشرق وإلى مطلع سراج الدنيا ومصباح الخلق.

فنجد أن محمداً احتاط لكل شىء وحسم أمره فالتزم السرية، ولم يكشف تخطيطه وقد إتكأ على أناس يعتمد عليهم وينهضون بالعزم، فحينما يريد اعلان الدولة جهرا يريد رجالًا أقوياءً يجمعهم الحنق والحقد على بنى أمية، والرغبة فى نجاح الثورة العباسية. ثم توفى محمد بن على فى غرة ذى القعدة 125 هـ، فتزعم الدعوى بعده ابنه ابراهيم وصار هو الإمام ... وحينما توفى كبير الدعاة فى الكوفة بكير بن هامان عين إبراهيم الإمام حفص بن سليمان الذى عرف بأبى سلمة الخلال.

أبو مسلم الخرسانى:

اسمه الأصلى ابراهيم بن ختكان ، ثم تسمى بعبد الرحمن بن مسلم وكان بكير بن هامان قد اشتراه وعلمه أصول الدعوة 125 هـ، بعد أن كان مولى لقيس بن معقل العجلى، وأرسله إلى محمد بن على الذى توسم فيه الذكاء والفهم وقوة العزيمة، وحينما مات محمد بن على وصارت الأمانة لولده ابراهيم وجد فيه ضالته المنشودة التى تحتاجها الدعوة فأوصاه قائلاً: "يا عبد الرحمن إنك رجل منا أهل البيت فاحتفظ بوصيتى انظر هذا الحى من اليمن فأكرمهم وحل بين أظهرهم، فإن الله لا يتم أمرهإلا بهم، ونظر هذا الحى من ربيعة فاتهمهم فى أمرهم، وانظر هذا

الحى من مضر فإنهم العدو القريب الدار، فاقتل من شككت فى أمره، ومـن كـان فى أمره شبهه، ومن وقع فى نفسك منه شيء، وإن استطعت ألا تـدع بخراسـان لسـانا عربيا فافعل، فأيما غلام بلغ خمسة أشبار تتهمه فاقتله، وإن أشكل عليك أمر فاكتف به منى"[1].

نجد احتفاء الإمام بالعنصر الفارسـى "المـوالى" وبغـض للعنصـــر العربـى، وهذا وذاك يتجه الى انهاك الدولة الأموية وتقويض أركانها ذلك "أن ابراهيم الإمام يرى أن القبائل اليمنية أيسر تقبلاً للثورة لأنها فى هذا الوقت كانت فيها يشبه الثـورة على الحكم الأمـوى، وعـلى ولاة بنـى أميـة الممالئـين للقبائـل المضـــرية، وبخاصـة القيسية، الذين كان جل اعتماد نصر بن سيار – أمير خراسان مـن قِبَـلْ الأمـويين – عليهم، فالهدف إذن هو استغلال هـذا الصـــراع القـبلى فى القضـاء عـلى الأمـويين ومن والأهم.

وهذا يدل على حنكة ابراهيم وفطنته فقد جند كـل العنـاصر الممالئـة للحكـم الأموى للدخول فى الثورة موهومًا أنها ثورته وأن الإمام مـنهم ، ومـن ثـم تشـارك المتشييعين للبيت الهاشمى على اختلاف مذاهبهم مـع مختلـف العنـاصر، فقـد أمـر إبراهيم الإمام بحجب اسمه، وأن تسير الـدعوة فى النـاس باسـم الإمـام " الرضـا من آل البيت " ثم بعد نجاح الثورة اكتشف الجمع أن الثورة كانت حربـا عـلى كـل العناصر شيعة وطالبيين وعرب وأن العلاقة قامت بين الأطراف المتعددة بـما يحفـظ التوازن فى الدولة .

وعلى الرغم أن إبراهيم الإمام أوصى أبو مسلم بما يجب فعله مع سـليمان بـن كثير إلا أن سليمان بن كثير قد حنق على ابى مسلم الخرسانى حتى إنه قـال "صـلينا بمكروه هذا الأمر واستشعرنا الخوف ، واكتحلنا السهر ، حتى قطعت فيـه الأيـدى

1. العصر العباسي الأول د شوقي ضيف صـ 23.

والأرجل، وبريت فيـه الألسـن حـزا باشـفار ، وسـملت الأعـين، وابتلينـا بـأنواع المّثُلات، وكان الضرب والحبس فى السجون من أيسر ما نزل بنا، فلـما تنسـمنا روح الحياة وانفسحت أبصارنا وأينعت ثمار غرسانا ، طرأ هذا المجهول الـذى لا يـدرى أية بيضة تفلقت عن رأسه، ولا عن أى عش درج، والله لقد عرفت الدعوة من قبل أن يخلق هذا فى بطن أمه"[1] فهو يقر بتمرسه وتشربه الدعوة أكثـر مـن أبـى مسـلم، لكن الحضور هونوا عليه الامر والزموه طاعة الإمام، والتـزام وصـيته وبتوليـة أبـو مسلم الخرسانى شأن الثورة سنة 129 هـ أرسل الإمام "اللواء " على رمـح طولـه "أربعة عشـر ذراعا إلى أبـى مسـلم"وهـو يتلـو﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾[سورة الحج: الآية 39] واتخـذ العباسـيون "الأسـود رايـة" وشعاراً احتفاءً بأن الرسولﷺحين دخل مكة فاتحاً كان تحت رايـة سـوداء ، وربـما إشارة إلى مركز دولتهم العراق حيث كانت تعرف قديمًا بالأرض السوداء.

وشاعت دعوة "الرضا من آل محمد" وغَمُضَ فيهـا ذكـر الإمـام أو الـداعى ومتزعمها ، ثم خرج ابراهيم الإمام للحج فى نفس العام 129 هـ وحينما التقى عبد الله بن الحسن على بن أبى طالب فهم الإثنان بعضهما فقد تحدثا فى دنـو الثمـرة، وأن تعب السنين العجاف، والدعوة سرًا التى تزعمها إبراهيم الإمام ونقبائـه أوشـكت تؤتى ثمارها، وأدرك إبراهيم الإمام أن عبد الله بن الحسن بن ابى طالب يمنى نفسـه بالأماني، وفطن عبد الله الى أن إبراهيم الإمام طامعًا فيها ويطلبهـا لنفسـه .. وتنـاثر الخبرحتى وصل أمر الدعوة الى الخليفة الأموى مروان .. فظن أن صاحب الـدعوة هو عبد الله محمد فهو اكبر العلويين سنا فاستقدمه اليه فأنكر أنه صاحبها ثم دله على ابراهيم الامام ... وأقبل إبراهيم أنه مقبل عـلى خطـر فكتـب رسـالة إلى "مـولاه "

1- المرجع السابق صـ23.

وأخبره اذا حدث له مكروه أن يسلمها لأخيه أبى العباس آمراً له ألا يبقى فى الحميمة بل يتوجه الى الكوفة . وأرسل رسالة إلى أبى مسلم الخرسانى مع رجل قال فيها " بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۗ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا﴾ [سورة النساء: الآية 87] ... أما بعد ... فإن رأيتمونى قتيلاً أو ميتاً فلا يثنيكم ذلك عن القيام بالحق، فوالذى آمن به المؤمنون وكفر به الكافرون، ليتممن الله أمركم، وليعزن دعوتكم، وليظهرن حقكم، وليقتلن جبابرة بنى أمية بأسيافكم، وليقومن رجل من إخوتى خليفة مطاعاً وإماماً متبوعاً، وهو عبد الله بن الأصغر الحارثية ....."

وحينما جلب لحضرة"مروان" أنكر ما وجهه له لكن مروان أمر به فحبس ثم توفى فى السجن فجمع أبو العباس أهل بيته وأعوانه ومواليه وتوجه نحو الكوفة. وقد رثى ابراهيم بن على بن هرمه الإمام إبراهيم قائلاً:

قد كنت أحسبنى جَلَدًا فضعضعنى	**قبر بحران فيه عصمة الدين**
قبر الإمام الذى عزت مصيبته	**وعيلت كل ذى مال ومسكين**
إن الامام الذى ولى وغادرنى	**كأننى بعده فى ثوب مجنون**
حال الزمان بنا إذا بات يعركنا	**عرك الصناع أديما غير مدهون**
وأعقب الدهر ريشا فى مناكبه	**فما يزال مع الإصماء يرمينى**
فرحمة الله أنواعا مضاعفة	**عليك من مقبض ظلما ومسجون**
ولا عفا الله عن مروان مظلمة	**لكن عفا الله عمن قال : آمين**

فاندلاع الثورة واكتساحها .. الأساس الذى أراده إبراهيم الإمام من تكتم اسم الزعيم المدعو له ووقوفهم خلف دعوة **"الرضا من آل محمد"** دعوة تسمية الخليفة والتنظيم السرى الشديد ضَمِنَ للدعوة النجاح إذا استمرت التنظيمات والاستعدادات ما يزيد عن ثلاثين عاما طي الكتمان حتى أن **"الخليفة**

الأموى مروان" لم يعرف بها إذ الأحوال كانت معتادة، فإن كانت هناك قلاقل فى العراق فهذا دأبها لتمركز الشيعة بها، وانتهج الخلفاء سياسة خاطئة لتزكية العصبية القبلية مما سمح بوجود تكتلات على اساس العصبية القبلية المتعارضة المتنازعة.

واثبتت التجربة إن اختيار"خراسان" كان موفقًا حيث انها تحوى صراعًا عنيفًا بين اليمنين والمضريين والربعيين (قبائل ربيعة) وكان اليمنيون يشكلون قوةكبيرة وكان يتولى الإمارة فى خراسان "أسد بن عبد الله القشرى" لبنى أمية فلم يجد صعوبة فى الحكم لأن القاعدة العريضة يمنيه مثله، لكن حينما تولى نصر بن يسار الحضرى من كنانة؛ ظهرت تكتلات ثلاثة فيها الصراع العنيف كتلة اليمانية بزعامة جديع بن شبيب الكرمانى، والمضرية بقيادة نصر، كتلة الربيعة ويتبع أكثرهم شيبان بن سلمة الحرورى واشتعلت الخلافات بين اليمنية بقيادة الكرمانى، والمضرية بقيادة نصر، واشتعلت الحرب بينهما وحينما غلب الكرمانى أجلى نصر عن مرو وخرب المدينة.

دور القبائل فى نجاح الثورة:

أحرز أبو مسلم الخرسانى نصراً تلو الأخر فى مناوشة نصر بن سيار فاستعان بأمير الأمويين على العراق " بن هبيرة " فكان يعده الوعود ثم يراوغ ولا ينفذ فقال مستصرخاً الخليفة نفسه مصوراً عظم خطر أبا مسلم :

أرى بين الرماد وميض جمر — فأحر بان يكون له ضرام
فإن الدار بالعودين تذكى — وإن الحرب مبدؤها الكلام
فقلت من التعجب : ليت شعرى — أأيقاظ أمية أم نيام ؟!

فقد تحالفت اليمانية وربيعة مع أبى مسلم ضد نصر، وأحرز أبو مسلم نصـــرًا جديدًا وحاصر مرو فبعث ثانية نصر إلى الخليفة قائلاً:

"أما بعد، فإنى ومن معى من عشيرة أمير المؤمنين فى موضـع مـن مـرو عـلى مجمـع الطـرق، ومحجـة النـاس العظمـى مـن مختلـف القوافـل والرسـل والجنـود من العراق، فى حائط قد خندقت فيه على نفسى ومن معى، وعن يمينى وشمالى قرى بنى تميم وسائر أحياء مضر، ليس يشوبهم غيرهم إلا قرى على حدهم، خاملة الذكر فيها خزاعة، وفيها حل طاغيتهم أبو مسلم. فنحن حين كتبـت إلى امـير المـؤمنين فى أمر هائل يتكفأ بنا تكفؤ السفينة عند هبوب العواصف، ونحن من أخواننـا اليمانيـة واغنامهم ورعاعهم، فيما نتوقع من سفههم، ولما قد شملهم من ورائهم الخبيث على مثل لجة البحر ..وأنا معتصم بطاعة امير المؤمنين ومن معى على مثل ذلك، لا نـؤثر عليها شيئاً وقد أملنا غياث أمير المؤمنين، ومواده، ووردخيلـه وفرسـانه ليقمـع الله بهم كل مصر على غشه، وساع فى الخلافة، فلا يكـون مثلنـا يـا أمـير المـؤمنين قـول القائل:

لا أعرفنـــك بعـــد اليـــوم تَنْـــدُبنى   وفى حيـــاتى مـــا زودتنـــى زادى

انه قد بلغ الحزام الطبيين، وكانت القلوب تبلغ الحنـاجر، فـلا يتهمنـى أمـير المؤمنين على ما أكتب به وأغلظ له فيه، وأنى لكـما، قـال الأول: احلـب حلبًـا لـك شطره، ولئن ازالنا عدونا عن موضعنا الذى نحن به، أنها زلزلة سرير أمير المـؤمنين فلا يضعن أمير المؤمنين كتابى هذا اليه على الجزع وعـلى الجـرأة عليـه، فإنـه لا مخبـأ لعطر بعد عورس، ومثلنا فيما قد أشرفنا عليه كمثل شجرة على ضفة البحر، قد يـلى أصلها، فالأمواج تضر بها من كل وجه فما بقاؤها بعد فساد أصلها، والحاح الأمواج عليها."

ثم توالت انتصارت أبو مسلم وهزائم الخليفة الأموى مروان فسقطت مرو ثم توجه أبو مسلم الخرسانى – بتوجيه الإمام – نحو العراق فدخلت الجيوش مدينة سرخس ثم سقطت طوس فأرسل نصر مرة آخرى الى الخليفة مروان يقص الحدث الجلل " أما بعد فإن نصر بن يسار كتب الى أمير المؤمنين بمن تجمع من أعداء الله من شرار العجم وسقاط العرب ، يشكو سوء إجابتك إياه، وتثاقلك عن امداده، فما أكثر استزادة أمير المؤمنين لك فى كل ما يأمرك وينهاك عنه، فإذا نظرت فى كتاب أمير المؤمنين فسرب الى نصر الجموع بعد الجموع، ثم اتبعهم القوة بعد القوة سرح من ولدك أحمدهم عندك عقلاً، وأصحهم نية فى جهاد عدو أمير المؤمنين، ووله أمر ذلك الجند، ومره بحسن سياستهم والرفق بهم، حتى يكون لهم كالوالد الشفيق أو المؤدب الرفيق، حتى لا يدخله سأمة فيما يحاول من مصالحتهم ثم آثرهم بما يجتمع عندك من الفىء فإنهم أحق به ممن أقام ولم يصل بالحرب، فإن أمر خراسان قد تفاقم واشتدت شوكة من تجمع هناك واستولت السفلة على الأخيار، وعلى أهل الدين والحسب الذين كان الله ابتلاهم به من الفرقة، والتباين، فأبدلهم الله بذلك مذلة الأرباب وربوبية العبيد، وفى تعجيلك الجنود عز لأهل الطاعة وذل لأهل المعصية فاستدرك ما قد تفاوت من تفريطك فإن العراق لك مدد والأموال لديك كثيرة غير مقبوض يدك عنها، ولا يحال بينك وبينها، فاجعل ما تمدهم به من مال وسلاح من قبل فارس، فإنهم إليه أسرع وعليهم أوسع."

ثم توالى سقوط مدن خراسان فسقطت نيسابور، جرجان، قوص طبرستان اغوار الرى ثم مات نصر 131 هـ وتوالى سقوط المدن فأرسل الخليفة مروان إلى ابن هبيرة يحمله مسئولية سقوط الجبهة الشرقية وأمره بالخروج إلى هؤلاء .. لكن جيش الهاشمية اتجه الى الكوفة وهناك اعلن محمد بن على بن خالد القسرى خلع مروان.

الحياة السياسية:

العامل السياسى يشكل الهيكل العام الذى يحيط بأجزاء الدولة والبوصلة التى تحدد وجهها وتوجهاتها وقد اجتمعت عند الأمويين أمور ساعدت على قيام دولتهم واستمرارها قرنين وما يربو عن النصف ثم دب فيها الضعف فقوضت الحكومة الأموية وتوجت الحكومة العباسية

وهناك عوامل ساعدت على قيام الثانية وانهيار الأولى منها :.

1 – كثرة الثورات .... منذ قيام الدولة الأموية عام 41هـ وكثر مناهضوها الداعون الى هدمها والتخلص منها .. لكن هؤلاء لم يكونوامن القوة بحيث يستطيعون الصمود طويلا أمام الفتك الأموى وبطش الحكام فحينما قام ابن الزبير وابن الاشعث ويزيد بن المهلب بثوراتهم قضى عليها الأمويون بالقضاء على متزعميها... أما ثورات الخوارج فقد كانت تهدأ ثم تشتعل المرة تلو الاخرى ، وكانت ثوراتهم تكلف الدولة كثير من المال والعتاد والدماء لاستبسالهم فى القتال وقوة معتقدهم (إذ كانوالا يستيئسون أبداً وكان قد استقر فى نفوسهم انَّ الأمويين نهبوا السلطان من الأمة وينبغى أن يعودإليها بحيث تتحقق المساواة بين أفرادها وبحيث يعم العدل الذيلا تستقيم حياة الناس بدونه وقد جاهدوا الأمويين جهادا عنيفا لا يصانعون فيهولا يداهنون بل يشهرون سيوفهم بازلين أرواحهم فى سبيل عقيدتهم، وكلما هزمت منهم طائفة امتطت الحسام طائفة اخرى فقد باعوا أنفسهم لله وللدين الحنيف يقاتلون فى سبيله فيقتلون من خالفوا الطريق السوى فى رأيهم ويُقتلون راضين).[1]

1- العصر العباسى الاول شوقى ضيف صـ 9 – 10 .

اما الشيعة فكانوا يشعلون الثورة فيتصدى لهم الأمويون فتنطفىء ثورتهم ثم تعاد الكرة من كلا الجانبين، وتعدأهم ثورات الشيعة المسلحة "ثورة المختار الثقفى بالكوفة"، وقد تكفل مصعب بن الزبير – حين كان والياً لأخيه على العراق – بالقضاء عليها قضاءً مبرمًا . ولم تقم للشيعة بعده قائمة حتى كانت ثورة زيد ابن على زين العابدين فى أول العقد الثالث من القرن الثانى، وقد انتهت لاخفاق ذريع، ولم يلبث ابنه يحيى أن قتل على أثره، كما قتل بعده بقليل عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن ابى طالب وقد انهكت تلك الثورات الدولة الأموية وقوضت بنيانها ولا سيما أن المتربصين بها كانوا عدة والمستائين من حكمها ليسوا بالقليل.

2 – موقف الأمويين من آل البيت ... عندما تولى الأمويون الخلافة تربصوا بآل البيت ولم يكن هناك حاكمًا أمويًا الا ووغل من دم الأشراف من أهل البيت.وأوسعوهم تنكيلاً ووعيداً[1] .. وكان المحبون لهم كثيرون فكرهوا هذا الاضطهاد للعلويين وكانوا يظهرون تبرهم حينا ويخفونه – تقيا – احايين أخرى، فإذا ما امنوا اظهروا هذا السخط وذلك التأييد ولا سيما بعد ازدياد التنكيل بالعلويين الذى عم كافة الأمصار.

3 – استياء المـوالى ... كثر الموالى بالفتوحات الاسلامية وزادوا زيادة مفرطة ، وقد أحبوا الاسلام لسيادة العدل، وشيوع المساواة، ولا سيما أنهم عاصروا حكم على ووجدوا فيه ضالتهم المنشودة من العدل، وحسن المعاملة ، وقد تبدل ذلك

1- ما خلا معاوية بن يزيد بن معاوية الذى ظل فى الحكم اربعين يوما ،ثم جمع الناس قائلا" أيها الناس ان جدى معاوية نازع الأمر اهله ومن هو أحق به منه لقرابته من رسول الله وهو على ابن ابى طالب ، وركب بكم ما تعلمون حتى اتته منيته فصار فى قبره رهينا بذنوبه واسيرا بخطاياه ثم قلد أبى الامر فكان غير اهل لذلك وركب هواه واخفه الامل وقصر عنه الأجل وصار فى قبره رهينا بذنوبه واسيرا بجريمته.. ثم قال إن من اعظم الامور علينا علمنا بسوء مصرعه وبؤس منقلبه وقد قتل عترة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأباح الحرم وخرب الكعبة وما انا بالمقلد ولا بالمحتمل تبعاتكم ، فشأنكم وامركم والله لئن كانت الدنيا خيرا فقد نلنا منها حظا ولئن كانت شرا فكفى ذرية ابى سفيان ما اصابوا منها الا فيصلى بالناس حسان بن مالك وتشاوروا فى خلافتكم رحمكم الله ... ثم دخل منزله وتغيب حتى مات بعد ايام تنازل الحسن لمعاوية عن الحكم طواعية على ان يكون الأمر للمسلمين شورى بعد معاوية انه ورث الحكم لابنه يزيد وتوالى التوريث ... وانتقلت الخلافة للبيت المروانى بعد البيت السفيانى اربع وعشرين عاما والمروانى ثمانية وستون عاما ..

الحال فى ظلال الدولة الأموية فقد كان حكامها يرون تفوق الجنس العربى، وضرورة سيادته على من دونه فاضطهدوا الفرس، والأتراك وغيرهما من الأجناس الأخرى ورأوا أنهم الخدم التابعين، أما هم فالسادة المتبوعين؛ فاستاءوا من تلك المعاملة وعملوا على تنظيم صفوفهم لتقويض بنيان الدولة الأموية متسلحين بكافة الأسلحة المادية والمعنوية، ولا سيما وأن الاسلام أرسى مبدأ المساواة وجعله من أركانه ونص عليه الرسول فى آخر خطبة حيث قال: لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى" وظلوا يبحثون عمن يوصلهم الى **بغيتهم فوجدوا أبا هاشم بن محمد الحنفية يقول** :

وعرف ذلك فيهم أبناء عمومتهم العباسيين ، ولكن كيف يلون هذه الزعامة ، والشيعة من حولهم ينضون تحت ألوية أبناء على وحدهم دون من سواهم من الهاشميين ؟ لقد أخذوا يفكرون فى ذلك ، ولم يلبثوا أن نفذوا الى أمنيتهم المبتغاة عن طريق "فرقة الكيسانية " التى تكونت حول ابن الحنفية ، فقد استوطن ابنه أبو هاشم الذى ورث عنه زعامة هذه الفرقة وإمامتها – بلدة الحميمة ببلقاء الشام ونزلها معه على بن عبد الله بن العباس وأسرته ، وسرعان ما توثقت الصلة بين ابنه محمد وبين ابى هاشم ، ورأى فيه أبو هاشم خير خلف له على جماعته ، فلما حضرته الوفاة سنة ثمان وتسعين للهجرة أوصى له وصية صريحة بالإمامة من بعده .

ويستصرخ نصر بن سيَّار مروان بن محمد وابن هبيرة واليه على العراق أن يمداه بالنجدات، ولكنهما كانا فى شغل عنه بثورات الخوارج فى العراق وغير العراق، ويموت كمدا بين الرى وهمذان. وتتقدم جيوش "أبى مسلم" بقيادة "قحطبة" وابنه الحسن مستخلصة المدن والحصون مدينة مدينة وحصناً حصناً، وما تلبث أن تقتحم العراق ويسرع ابن هبيرة للقائها عبر الفرات، ويحاول قحطبة أن يتجنبه متجها الى الكوفة ثم يلتقى به فتدور عليه – كما دارت على نصر بن سيار من قبله – الدوائر، فينحاز بجيشه إلى واسط، ويُقتل قحطبة فى ظروف غامضة، ويتولى

القيادة بعده ابنه الحسن، ويدخل الكوفة دون أن يلقى أى مقاومة وحينئـذ تـبرز الى النور حكومة بنى العباس السـرية وعلى رأسها أبو سلمة الخلال .

4 – **تطلع العباسيون**: للخلافة فى تلك الثورات حيث لم يجاهر العباسيون بدعوتهم لطلب الخلافة ولم يظهروا للنـاس نيـاتهم وأنهـم أصـحاب مطمـع فيهـا وإنـما اظهروا استياءهم من الجور الذى يسيطر على الحكم الأموى.

ومن اضطهادهم للعلويين إضافة الى اشفاقهم على المـوالى المغمطـين وأفـراد الشعب المظلومين من الأمويين الظالمين الذين لم يتورعوا عن أذى الجميع

وكان محمد بن على العباسى شديد الذكاء أرسل يبث أعوانه فى كل الأمصـار ويتلطف بالناس ويدعوا للخلاص من الأمويين ويرجع الفضل لإثنين مـن المـوالى فى انجاح الثورة العباسية وهما أبو سلمة الخلال ، وأبـو مسـلم الخرسـانى غـير أن الأول كان يود ان يُختار للخلافة أحد العلويين من أحفاد على ، غير أن أبـا العبـاس اتصل بأبى مسلم الخرساني الذى أرسل له وفداً فسلم عليه بالخلافة وبعد أن أعلمه بنية ابي سلمة – فاضطر الأخير الى الإذعان للرأى يقول **شوقى ضيف**:

واتجه أبو العباس توا الى المسجد الجامع فى الكوفة ، فبايعـه النـاس ، وارتقـى المنبر ، فاشرأبت إليه الأعناق وأصغت اليه الآذان ، فإذا هو يحتج بآى القرآن الكريم على أن بيته العباسى أحق بالخلافة من بيت العلويين ، وكـان متوعكـا فـانقطع عـن متابعة الكلام ، وتابعه عمه داوود متحدثًا باسمه ومؤكدا فضل الخرسانيين فى تحرير الأمة من نير الأمويين[1]

ومن حكمهم الباغى الفاسد ، ولم يطمئن ابو العباس لمقامـه فى الكوفـة ، دار العلويين من قديم فتحول عنها الى معسكر الخراسانيين ، ثم فارقه الى الحـيرة وأخـذ

---

1. الطبرى 6 / 81 وما بعدها .

فى بناء الهاشمية لتكون مقر سلطانه وأغرى ابا مسلم الخراسانى بأبى سلمة فدس اليه من قتله[1].

وقامت الدولة العباسية ونقلت حاضرة الخلافة من الشام الى العراق ، وكما نكل الأمويون بالعلويين ، نكل العباسيون بالأمويين فقد أرادوا أن يستأصلوا شأفتهم من على وجه الأرض؛ حتى إن عبد الله بن على دعا فى أبى قطرس نحو ثمانية منهم فى اليمن ، ثم أمر أن يضربوا بالعمد حتى الموت بعد أن طالبه الشعراء بالقصاص للإمام إبراهيم بن محمد، ومن قتلوا من العلويين وقد صنع السفاح عم داوود وسليمان مثل فعله ونكل بالعديد منهم .. ليس هذا فحسب بل أنهم حرقوا جثث موتاهم وأخرجوهم من قبورهم ما خلا معاوية، وعمر بن عبدالعزيز .

الحياة الإجتماعية

اختلف حكم العباسيين عن الأمويين اختلافا بيِّنًا فقد أطلقوا للناس حرية الحياة فى العقيدة ، والعمل ، والمسلك المعيشى، وقد تجلت هذه الحرية وهذا الاختلاف فى أمور عدة .

اولا : الشكل الاجتماعى

عاش العباسيون نتيجة لكثرة الموارد حياة بذخ وترف وتبدى هذا البذخ والترف الشديد فى المأكل والملبس ، واستعمال الطيب واتخاذ الدور والقصور، ونشأت طبقة متوسطة تستفيد من كل ذلك من العلماء والأطباء والشعراء والخدم .

يقول أبو دولامة :

إن كنت تبغى العيش حلوا صافيا ... فالشعر أغز به وكن نخاسا

تنال الطرائف من طراف نهد ... يحدثن كل عشية أعراسًا

ملك الثلاث الآنسات عنانى ... وحللن من قلبى بكل مكان

---

1. الطبرى 6 / 103 والمسعودى 3 / 199 واليعقوبى 3 / 89 .

مـــالى تطاوعنــــى البريــة كلهـــا وأطيعهـــن وهـــن فى عصيانـــى

مـــا ذاك إلا أن سلطـــان الهـــوى وبـه عــززن – أعــز من سلطانـــى

وكانت خزائن الدولة هى المعين الغدق الذى هيـأ تلـك الحيـاة المترفـة، فقـد كانت تحمل حمول الذهب والفضة من أطراف الأرض حتى قيل إنَّ المنصـور حـين توفى ترك أربعة عشر مليون دينار وستمائة مليون درهم ، وإن دخل بيت المال سـنويا فى عهد الرشيد كان نحو سبعة مليون دينار حتى إن المنصور رصد لكل شخص من أهل بيته الف الف درهم كل عام .

ويقال إن غلة "الخيرزان زوجة المهدى" من اقطاعاتها كانت تبلغ سنويا مائـة وستين مليونا من الدراهم وكانت اقطاعات محمد بن سليمان بن على العبـاس ،والى البصرة تدر عليه كل يوم مائة الف درهم وغيرهم من الأثرياء العديدين لكن عامـة الشعب لم تكن بهذا البذخ ولم تعـرف هـذا اللـون مـن الـترف . وفي ذلـك يقـول د / شوقى ضيف .

ولا ريب فى أنَّ هذا كله كان على حساب العامة المحرومـة التـى كانـت تحيـا حياة بؤس تقوم على شظف العيش لينعم الخلفاء والوزراء والـولاة والقـواد وكبـار رجال الدولة وأمراء البيت العباسى الذى بلغوا هم وأبنائهم نحو ثلاثين الفا لعهـد المأمون [1] وطبيعى أن يعم البؤس والشقاء من جانب ، بينما يعم النعيم والـترف مـن جانب آخر ، بل لقد كان الشقاء والبؤس أكثر الجوانب العباسية ، فالجمهور يعـيش فى الضنك والضيق ، لا الرقيق منه فحسب الذى كان يعمل فى القصور والضـياع ، بل ايضا جمهور الناس من الاحرار ، وكأنما كانوا جميعا أرقـاء فى هـذا النظـام الـذى كفلت فيه أسباب النعيم ووسائل الترف لأقلية محدودة اسـتأثرت لنفسـها بطيبـات الارض والرزق والحياة .

---

1. مقدمة ابن خلدون صــ 123 .

فنجد أن هذا الترف والثراء الفاحش خص العباسيون به أنفسـهم فقـط فقـد كان هناك مترفون شديدى الترف : شيدوا القصور وبنو الدور وملئوها بالجوارى ، والقيان كذلك كان هناك الفقراء شديدى الحاجة والعوز لا يملكون قـوت يـومهم حتى قال ابو العتاهية يصف حالهم

مــن مبلــغ عنــى الامــام　　　نصـائحـــا متواليـــة

انــى ارى الاســعار اســ　　　عــار الرعيــة عاليــة

وأرى غمــوم الــدهر را　　　ئحــة تمــر وغاديــة

وأرى اليتــامى والأرامــل　　　فى البيــوت خاليــة

مــن بــين راج لــم يــزل　　　يســموا اليــه وراجيــة

يشــكوا مجهــدة بأصــوات　　　ضعـافــا عاليــة

مــن للبطــون الجائعــات　　　وللجســوم العاريــة

لقد أباح العباسيون الزواج من الأعجميات ، وكثـروهن فى دورهـم وجعلـوا لهن الكلمة العليا ، ولم يك الأمويون يسمحوا بـذلك محافظـة عـلى الـدم العربـى وخوفا على النسل من المعايرة بأن داخلتهم عناصر أجنبية فأقام العرب مـع العجـم مجتمعا جديدا لـه قـيم ومعـايير مسـتحدثة او متداخلـة مـن كـلا الجـانبين العربـى والأعجمى نتيجة لوجود جيل من المولودين لـه عـادات وأخـلاق مغـايرة للعهـد الاموى.

على أننا نجد لليهود والنصارى تأثير كبـير، وإن كـان اليهـود يكنـون الكـره والحقد الدفين للإسلام والمسـلمين ، فقـد كـان للنصـارى الـدور الطيـب فى حيـاة

المسلمين .. وكان لكل منهم أسلوبه فبينما تقلد المهام الرفيعة والمهن الشريفة النصارى ككتبة السلطان والأطباء والعطارين والصيارفة .

نجد اليهود ينهضون بالمهام الوضيعة مثل الدباغة وغيرها من المهن الوضيعة حتى رسخ فى ذهن العرب انهم أقذر الامم – على حد قول د/ شوقى ضيف .–

ثانيا : الجانب العقادى :

نتيجة للحرية التى أباحها العباسيون للناس استعمل البعض تلك الحرية استعمالاً خاطئاً فأشاعوا المجون والفساد الخلقى .

وربما يرجع استسهال مقارفة الذنوب للحضارة الساسانية التى ورثوها وكانت تقدم الخمر لمريديها ،والبساتين كانت ملىء بالخمر، وصاحب الخمر، الغناء والرقص حتى تكتمل لذة الشراب .. يقول أبو نواس :

رقت حواشى الدهر فهى تمرمر — وغدا الثرى فى حلية يتكسر

نزلت مقدمة المصيف حميدة — وبدا الشتاء جديدة لا تكفر

معطر يذوب الصحو منه وبعده — صحو يكاد من النضارة يقطر

غيثان : فالأنواء غيث ظاهر — لك وجهه والصحوغيث مضمر

يا صحبى تقصيا نظريكما — تريا وجوه الأرض كيف تصور

تريا نهارا مشمسا قد شابه — زهر الربا فكأنما هو مقمر

ويقول أيضًا :

دنيا معاش للورى حتى إذا — حل الربيع فإنما هى منظر

أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكا — من الحسن حتى كاد أن يتكلما

وقد نبه النيروز فى غسق الدجى أوائل ورد كان قبل مكتما

ومن شجر الورد الربيع رداءه عليه كما نشرت وشيا متمنما

أحل فأبدى للعيون بشاشة وكان قذى للعين إذ كان محرما

ورق نسيم الريح حتى حسبته يجىء بأنفاس الأحبة نعما

ففى الكرخ انتشرت دور اللهو والمجون كذلك ... وفى البصرة والكوفة، وقد تردد عليها الشعراء يشربون ويسكرون وينظمون الشعر مثل أبي نواس وأبي العتاهية، كذلك ابن المقفع وكانت الغوانى يتفنن فى الإغراء، وإبداء جمالهن، ولم يغب الأدب عن تلك الأفعال بل وجد الشعر بقوة فنجد النساء تزين بعصابات نظمت فيها الدرر واليواقيت وكتبت عليها أبيات فى صفائح الذهب مثل:

ما لى رميت فلم تصبك سهامى ورميتنى فأصبتنى يا رامى

ويذكر اسحاق الموصلى إنه دخل على الأمين يوما فوجد من حوله وصائف يختلن فى حسنهن وبأيديهن مراوح نقشت عليها أبيات غزل منها .

أتهوون الحياة بلا جنون فكفوا عن ملاحظة العيون

ويقول آخر على لسان إحدى الجوارى:

أفلتُ من حور الجنان خلقت فتنة من يرانى

واستتبع ذيوع الخمر وانتشارها وجود مظاهر سيئة متعددة :

1 – وجود الغزل المكشوف فقد كان معظم الشعراء من الفرس الذين لم يألفوا الحشمة وحرمة النساء فتجرأوا على مغازلتهن وإشاعة الإباحية من خلال أشعارهم المكشوفة المثيرة للغرائز الملهبة للشعور حتى استغاث الوعاظ مالك بن دينار – واصل بن عطاء بالمهدى؛ من بشار وأشعاره المكشوفة ؛ فتوعده

وهدده حتى يكف عن ذلك فأخذ يردد انه ترك الغـزل والنسيب نـزولا عـلى رغبة الخليفة فقال :

يــــا منظـــــرا حســــنا رأيتــــه	**مــــن وجـــه جاريــــة فديتــــه**
بعثــــــــت الىَّ تســــــــومنى	**بُــــرد الشــباب وقـــد طويتـــه**
والله رب محمـــــــــــــــــد	**مـــا ان غـــدرت ولا نويتــــه**
امســــــكت عنـــــك وربــــما	**عـــرض الـــبلاء ومـــا ابتغيتـــه**
إنَّ الخليفــــــة قـــــد نهــــانى	**وإذا أبــــى شـــــيئا أبيتـــــه**
ونهـــــانى الملــــــك الهــــمام	**عـــن النســـيب ومـــا عصـــيته**

2 – التعلق بالغلمان المُرْد وكان والبة بن الحباب هو حامل اللواء لهذا النوع الممقوت من الغزل وتبعه أبو نواس وشاع هذا النوع مع وجود كثير من الخصيان حتى زبيدة أم الأمين حين وجدته أحاط نفسه بكثير من الخصيان وشاعت فيه الأقاويل أرسلت اليه مجموعة من الجوارى وألبستهن لبس الذكور فسمين الغلاميات وسرعان ما انتشر هذا المسلك فى أماكن الشرب والخمر ونص على وجوده بصورة لافتة بين الشعراء.

3 – الشعوبية والزندقة(1).. ساوى الإسلام بين مختلف الشعوب ووفق بينهم وجعلهم تحت راية واحدة تدعو إلى التوحيد والمساواة وظل هذا نهج المجتمع الإسلامى حتى أخر الخلفاء الراشدين ، لكن الأمويين أوجدوا الفرقة بين المسلمين من خلال ظلمهم البيِّن للموالى وارهاقهم بالواجبات وسلبهم الحقوق حتى حنقوا عليهم حنقا شديدا فتزعم الحانقين اسماعيل بن يسار،

1الشعوبية نسبة الى الشعوب الأعجمية وهى نزعة تقوم على مفاخرة تلك الشعوب – وفى مقدمتها الفرس – للعرب مفاخرة تستمد من حضارتهم ومعايرة العربى ببداوته وبداءته .

وعمل على مهاجمةالدولة الأموية داعيًا الى الخلافة العباسية وإقامة دولتهم واستطاع أن يفت عضد الأولى ويرسى بناء الاخيرة ، وبذلك فتح للفرس باب الريادة والحظوة عند العباسيين فصالوا وجالوا .

كان منهم المعتدلون الذين ساووا بين العرب وغيرهم من الأجناس الأخرى مثل أبو يعقوب الخريمى . ومنهم المغالون الذين اختالوا على العرب بحضارتهم الساسانية ففضلوا الشعوب الأخرى على العرب .. وعمدوا الى تصغير شأنهم وتحقير أمرهم .. وكان هؤلاء الفارسيون ينتمون الى طوائف عدة .. وقوميون شديدى الإنتماء إلى قوميتهم الفارسية ويشعرون أنَّ العرب سلبوهم حقهم فى الحكم، وقوضوا دولتهم، والمجَّان الخلعاء الذين رأوا فى كل ما خالف الدين بغيتهم وآمالهم فشربوا الخمر وصاحبوا النساء ودعوا الى ذلك المسلك كأبى نواس .. الذى ظل يعب من كل لذة ويتمتع بكل نشوة ويشيع الفجور.

كما شاعت الزندقة [1] وفرق الملاحدة وهم الذين خرجوا من الإسلام وجندوا انفسهم للسخرية من كل ما هو عربى مسلم

يقول الجاحظ: " إنَّ عامة من ارتاب بالاسلام إنما كان أول ذلك رأى الشعوبية والتمادى فيه وطول الجدال المؤدى الى الضلال ، فإذا أبغض شيئا أبغض

1-وكلمة الزندقة ليست عربية انما هى تعريب لمصطلح ايرانى كان يطلقه الفرس على صنيع من يؤلوون " الاقستا " كتاب داعيتهم زاردشت تأويلا ينحرف عن ظاهر نصوصه ، ومن اجل ذلك نعتوا به دعوة مانى ومن فتنوا بها من الفرس ، واخذ مدلول الكلمة يتسع فى العصر العباسى ليشمل كل من استظهر نحلة من نحل المجوس ، واتسعت اكثر من ذلك فشملت كل الحاد بالدين الحنيف وكل مجاهرة بالفسق والاثم ، ومعروف ان جمهور الفرس قبل الاسلام كانوا مجوسا على دين – زرادشت الذى ظهر فى ديارهم حوالى منتصف القرن السابع قبل الميلاد وما وضعه لهم من تعاليم ضمنها كتابة " الاقستا " وفيه زعم أن للعالم إلهين هما " اهورا مزد " اله النور خالق كل خير و " اهرمن " اله الظلمة خالق كل شر ، وأن وراء الحياة الدنيا حياة اخرى يكون فيها حساب الشخص على اعماله فأما النعيم وإما الجحيم – وأنَّ النار مقدسة طاهرة مما جعل الايرانيين يقيمون لها المعابد فى كل مكان ، وظهر عندهم فى القرن الثالث الميلادى داع يسمى " مانى " مزج فى تعاليمه بين الزرادشتيه والبوذية والنصرانية ، فأبقى من الاولى على عقيدة الهى النور والظلمة واستباحة الزواج بالبنات والاخوات ، واخذ من الثانية عقيدة التناسخ وتحريم ذبح الحيوان والطيور ، وأخذ من الثالثة الزهد والنسك ، وفرض على اصحابه صلوات وأدعية كثيرة

اهله ، وإن أبغض تلك اللغة أبغض تلك الجزيرة ، فلا تزال الحالات تنتقل به حتى ينسلخ من الاسلام ، اذ كانت العرب هى التيجاءت به ، وهى السلف والقدوة"[1].

إذا فقد سخر اللشعوبيون من العرب لبداوتهم ، وسخروا من مناهجهم فى الحياة ومن اعتمادهم على العصى ولبسهم الخشن ورعيهم الإبل والأغنام ، وكانوا يقارنون بينهم وبين الحضارات القديمة فارسية ورومية ويونانية وآرامية وغيرها ... وكانوا يركزون على الأهاجى ويضيفون اليها ويسخرون منها إضافة الى تحقيرهم للخصال العربية الأصيلة كالشجاعة والكرم .

بل أنهم حاولوا سل الرسول وقريش من العرب وإدخاله فى نسبهم ادخالا فزعموا أن الرسول سُئل عن أهله وعن قريش فقال " نحن قوم من نبط كوثى" ووضعوا الأحاديث المفتراه على الرسول وأنه فضلهم على العرب حين قال " لأنا بهم أوثق منى بكم " والوضع فيه بيِّن .

وكان من الشعراء من يزكون نار الفتنة ويشعلونها حامية الوطيس مثل بشار بن برد الذى شن حربا عنيفة على العرب على الرغم من أن أباه كان طيانا يضرب اللّبِنْ إلا إنه تداخل مع ملوك الفرس وكبراءهم وأدعى نسبه إليهم بل إدعى الانتساب الى قياصرة الروم ، وظل ينفس على العرب ويحقد عليهم ويبثهم حقده وسمومه .

المزج بين العلويين والعباسيين

وقف الحكام والأمراء موقف الرافض لتلك النزعات وهاجموها وساندهم رجال الدين واللغة والشعراء .. بل ان نفرا من الموالى المنصفين وقفوا لتلك الهجمات وناوءوها مثل مؤَلَف كتاب العرب لابن قتيبة ، والبيان والتبيين

1الحيون 7 / 220

للجاحظ، وماجت البلاد بالمؤيدين والمعارضين والمتمسكين بتلابيب عدم الانحياز المؤسرين للسلامة.

واشتعلت النيران بين قطبي النزاع ؛ العلويين والعباسيين ؛ فإذا ما حاول أحد العلويين الظهور وجمع الأنصار.. تصدى له الخليفة الأموى أو أحد امرائه فبدد شملهم ، وفرق جمعهم وقتل من طال منهم ، فآثروا الاختفاء والعمل فى الظلام ولمَّ الأنصار والمريدين ، وقد وقع خلاف بين زيد بن الحسن بن على ، وأبو هاشم بن محمد بن الحنفية فأوقع زيد بأبى هاشم عند الوليد بن عبدالملك وأخبره أن أبا هاشم قد اتخذ لنفسه أنصار وشيع من أهل العراق يأتمرون بأمره فقبض عليه الوليد وسجنه ، ثم تشفع له على زين العابدين بن الحسين فأخرجه الوليد من محبسه واستبقاه لجواره فى دمشق ليكون تحت عينه ، لكن أبا هاشم كان يتطاول بالقول على الوليد فسئمه وأمره بالخروج فخرج عن دمشق وصحبه ابن بجير مشيعا له ثم أحس ابو هاشم بدنوا أجله فأوصى سلمه بن بجير قائلا " ما احسب منيتى الا كائنة بهذا البلد ما امرضنى الا ما داخلنى من عتو الوليد "

ثم عرج على محمد بن على بن عبد الله بن العباس فى الحميمة وأوصاه ، ولم يك ابو هاشم بن محمد بن الحنفيه عقب فحين دنا أجله أوصى لمحمد ، وأعلم خاصةشيعته بأن الامر قد نقل إلى بنى العباس بموجب هذه الوصية وأن عليهم طاعتهم وموالاتهم وكان هذا 97هـ أو 98 هـ فتحولت الشيعة الكيسانية أنصار أبى هاشم الى أول دعاة لبنى العباس ، وحينما أوصى أبو هاشم لمحمد بن على نشط محمد لمعارضة الأمويين وشعر هو وأصحابه أنهم أصحاب حق فى الخلافة وما عليهم إلا أن ينشطوا فى الدعوة لأنفسهم .

أدرك محمد بن على يقظة الأمويين وحدتهم فى مهاجمة ومناوئة المناهضين لذا أثر السرية وأن يقتفى أثر أبو هاشم فى التنظيم السرى الذى ارتضاه لدعوته .

الحياة العقلية

ضمت الدولة العباسية الأجناس المختلفة نتيجة لزيادة الفتح وامتداد الدعوى ووصولها الى كثير من البلاد ، حتى وصلت خرسان وإيران وغيرهما من البلدان ووجد سكان تلك البلاد فى سماحةالإسلام ضالتهم المنشودة فدخلوا فيه أفواجا ... وحتى من لم يدخل حرص على حسن الصلة بينه وبين المسلمين وأقبلوا على اللغة العربية يفهمون أسرارها، ويتقنون مفرادتها ، وتجمعهم لغة القرآن يعد أن كان لكل منهم لغته المفضلة ، ففى ايران كانوا يتكلمون الفهلوية ، وفى العراق والجزيرة كانوا يتكلمون اللغة الآرامية وما انبثق منها من النبطية ، والسريانية وفي الشام كاوا يتكلمون اللغة الأخيرة ولغات سامية مختلفة ، وفى مصر كانوا يتكلمون القبطية ، وفى بلاد المغرب كانوا يتكلمون البربرية . وكانت اللغة اليونانية قد أخذت تشيع – منذ غزو الإسكندر – فى الأوساط الثقافية بالشرق كله : فى ايران والعراق والجزيرة والشام ومصر ، بينما كانت اللاتينية تشيع فى تلك الأوساط بشمالى إفريقية والاندلس .. وقد كان الإقبال على تعلم اللغة العربية منقطع النظير فصارت لغة الفكر والحديث والثقافة والحضارة وقد أقبل الفارسى خاصة على اتقانها بشكل منقطع النظير فصار منهم الائمة :ـ مثل أبى حنيفة وتلاميذه واللغويون مثل سيبويه وتفوقوا فى الأدب مثل ابن المقفع ، ونبغوا فى الشعر مثل بشار وأبو نواس . ، وبلغ من إتقان البلاد المفتوحة للعربية أن تفوق فيها ابناء تلك البلاد حتى نافسوا العرب وليس معنى اتقانهم للعربية هجر اللغة الأصلية تماما، لكنها تراجعت وانحصرت فى الأديرة فضلا عن تساقط كلمات منها إلى الاستخدامات العربية فنجد منها بعض الكلمات الآرامية والنبطية والفارسية فى الأطعمة والملابس بل أقبل كثير من العرب على دراسة الفارسية كما فعل الفرس الذين درسوا العربية وأتقنوها ونتيجة لمرونة اللغة العربية وسهولة استيعابها كثر الاشتقاق منها والتعبير بها مع الإحتفاظ بمقوماتها الذاتية وفرديتها .. فوجدت الألفاظ المأخوذة من اللغات الأخرى من

نحو اليونانية كالقيراط ، الأوقية، والقولنج .. أو أبدلت بكلمات عربية لها نفس الدلالة وذات المدلول .. وقد انتشر اللحن نتيجة لإبدال بعض الحروف مكان بعض من العين همزة ، والقاف كاف والراء غينا ، التاء والشين والزاى سينا ، وغيرها لكن هذا اللحن كان نتيجة لفقد الدربة لدى غير العربى الذى لم يكن يستعمل مخارج تلك الكلمات فى لغته وكان هناك طبقة المثقفين الذين خلا كلامهم من كل لحن والتزام الأصول والقواعد العربية .. والثقافة الفارسية كانت الأبعد أثرا نتيجةلكثرة وعمق مؤثريها فى الثقافة العربية .

أما الثقافة اليونانية فنقلت عن طريق الترجمة أو الرقيق والإماء أو عن طريق ما تناثر منها من الثقافة الهيلينية وتداخلت كلمات منها فى المطعم والملبس وأسماء الأطعمة والأشربة .

النهضة التعليمية وأسباب ازدهارها

غلب على العصر العباسى الصبغة العقلية المفكرة فقد افتتح له أبواب المحاورات والمناظرات من خلال اطلاعه على الفكر الرومانى، والفارسى، واليونانى، والهندى إما عن طريق اسلام الشعوب أصحاب البلدان المفتوحة أو عن طريق الكتب التى انتشرت فى الأورقة والمكتبات الخاصة والعامة مما شجع الشعراء وغيرهم على البحث والتنقيب بل دعوا إلى السؤال والتخلص من الجهل وعدم المعرفة يقول بشار :

شفاء العمى طول السؤال وإنما　　　دوام العمى طول السكوت على الجهل

فكن سائلا عما عناك فإنما　　　دعيت أخا عقل لتبحث بالعقل

وقد علق ابن يسير على أهمية الكتاب ودوره فقال منوها على ذلك :

هم مؤنسون وألاف غنيت بهم　　　فليس لى فى أنيس غيرهم أرب

فـــأيما أدب مـــنهم مـــددت يـــدى إليه فهـو قريـب مـن يـدى كثـب [1]

حتـى كـأنى قـد شـاهدت عصرـهم وقد مضت دونهم من دهرهم حقـب

فقد وجد العباسيون اللذة العقلية فى الاطـلاع والإحاطـة بمختلـف العلـوم والمعارف فطالعوها ثم نظموا منها شعرا جيدا .

نمو الحياة العقلية يرجع لعوامل كثيرة أهمها التعلـيم ، لـذا اهـتم العباسـيون بالتعليم ادركًالمكانة العلم وتقديرًا لمساعدته فى النهضة بـالبلاد لـذا أحـاط الحكـام أنفسهم بالعلماء والصرفيين والنحويين وغيرهم ، وكل من برع وحذق شيئًاما كـان يجد له موضعًا

إما للاستنارة برأيهم أو لتعليم ذويهم وورثة العـرش فاحتـل هـؤلاء العلـماء مكانة سامقة فى نفوس الخاصة والعامة مثل الفرَّاء معلـم أبنـاء المـأمون ، والمفضـل الضبى معلم المهدى، والكسائى معلم الرشـيد وابنيـه الامـين والمـأمون ، وقطـرب مؤدب الأمين هذا بالنسـبة للخاصـة مـن الحكـام والقـادة وذويهـم وكـان الحكـام يفرضون لهم العطاء الجزيل ويضرب بالمهدى المثل فى كثرة الأعطيات وابنه الرشـيد .. كذلك فعل المأمون فقد كان أحدهم يعطى مائة الف درهم .. او خمسين الـف .. او عشرة آلاف شهريا معرفة بقدر العلم ومرتبة العلماء .

اما عامة الشعب فكانوا يذهبوا الى الكتاتيب ليتلقوا عن الشيوخ ما يتيسر لهم من القرآن الكريم ، والعلوم والآداب المختلفـة، وهنـاك فرقـا شاسـعًا بـين مكانـة ودخل معلمى الخاصة ومعلمى العامة فأجر معلم العامـة زهيـد متفـاوت حسـب عمل والد المتعلم ومقدار رزقه .. أما مؤدب الخاصـة فقـد تمتعـوا بالـدخل الـوفير والمكانة العالية ، وكانت المساجد أيضا لها دور كبير فى نشر العلم وتشجيع المتعلمين فقد كانت الحلقات الشـهيرة حيـث يلتـف المتعلمـون حـول اسـتاذهم المسـتند الى

1كثب : قريب

اسطوانة فى المسجد والى جواره مستملٍ يأخذ عنه ويوصله الى من لم يصله صوته .... وذلك فى شتى فروع العلم ومختلف انواع المعارف .

وقد ساعد ذلك على وجود طائفة من المتخصصين فى الفروع المتعددة والمسلحين بمختلف أنواع العلم حيث كانت رغبة المتعلم هى الباعث الوحيد على جلوسه لتلقى العلم من هذا المعلم أو ذاك ويلاحظ فى هذا العصر ازدهار الحركة العلمية .ومن أسباب ازدهار الحركة العلمية

1– العطاء الوفير الذى كان يبسطه الحكام والقادة على المعلمين دفع الكثرة الى تحصيل العلم وطلبه فعندما يبزغ نجم أحدهم كان يطلب فى دار الخلافة مما جعلهم يتكالبون على العلم والتحصيل .

2 – استخدام الورق مادة للكتابة فقد كانت الجلود والقراطيس المصنوعة بمصر هى مادة الكتابة وكانت ثقيلة على الأيدى والجيوب فقد كانت مرتفعة الثمن وحينما استخدموا الورق توسعوا فى الكتابة بل إن الفضل بن يحى البرمكى أنشأ مصنعا للورق فى بغداد فى عهد الرشيد ...ولا شك أن وجود مصنع للورق ساهم في النهضة العلمية وأفاد الحركة التعلمية فى :

أ –استعمله الأدباء فى تسجيل معارفهم وعلمهم واتخذوا لأنفسهم وراقين يكتبون عنهم مثل دماغ ابى غسان وراق أبى عبيدة

ب – شيوع اقتناء الكتب وامتلاكها .. بل انشئت المكتبات العامة التى يرتادها كل متعلم نظير مبالغ زهيدة من أمثال " دار الحكمة" التى انشئت فى عصر الرشيد وكانت بمثابة جامعة للمعارف والفنون يرتادها كل مبتغى علمًا حتى قيل إن مكتبة يحى بن خالد البرمكى ، كانت تحوى العديد من الكتب ، ومن كل كتاب ثلاثة نسخ فقد كانت تقوم الكتابة او النسخ آنذاك محل الطباعة

اليوم ، وقد اشتهرت عدة مكتبات مثل مكتبة : اسحق بن سليمان العباسى ، مكتبة يحى بن خالد البرمكى ، ومكتبة الوافدى وغيرها من المكتبات .

ج – أنشأت الدكاكين حيث يبيع الوراقون ما كتبوا ويتاجرون فيه وكان بعض المتعلمين يذهبون الى تلك المحلات منهم من يشترى الكتب ومنهم من يدفعون أجرًا زهيدًا مقابل الاطلاع على مختلف المعارف والفنون .

د – نتيجة لرخص الورق وانتشاره اهتم البعض بزخرفة الكتب وتجميلها حتى إنهم كان يزينونها بماء الذهب .

3 – شيوع المناظرات والندوات العلمية، فقد كان بعض القادة والحكام يحبون الندوات والمناظرات التى كان يعقدها العلماء من مختلف العلوم ، فقد تناظر الكسائى وسيبويه بين يدى الرشيد ، وكذلك بين يدى يحى بن خالد البرمكى ، واشتهر البرامكة بإقامة الندوات المتعددة التى ضمت الفلاسفة والمتكلمين وغيرهم يتحاورون ويتناقشون فى الشعر والادب والكلام والفلسفة

4 – الحرية والفكر والجدل العقلى أتاحت الحرية العقلية التى شاعت فى العصر العباسى المجال لمناقشة مختلف الأراء واخضاعها للنظر العقلى حتى فكر الزنادقة والملاحدة وصاحبى الأهواء والملل والنحل المتعددة ، كانت تناقش فى مجالس الخاصة مثل مجالس يوحنا بن ماساوية ، ومجلس حنين ابن اسحق ومجلس يحى بن خالد البرمكى ويوضح ذلك ..

يقول د / شوقى ضيف : وكان مجلس المأمون ساحة واسعة للجدال والمناظرة ، وكان مثقفًا ثقافة عالية واسعة وعميقة بالعلوم الدينية ، واللغوية وبالفلسفة ، وعلوم الأوائل ، فمضى يحول مجالسه فى دار الخلافة ببغداد إلى ندوات علمية تتناول كل فروع المعرفة وفى ذلك يقول يحى بن أكثم :

"أمرنى المأمون أن أجمع له وجوه الفقهاء وأهل العلم من بغداد ، فاخترت له من أعلامهم أربعين رجلا واحضرتهم وجلس لهم المأمون فسأل عن مسائل وأفاض فى فنون الحديث والعلم""(1) ويمضى ابن اكثم فيقول : انه لما أنتهى ذلك المجلس طلب إلىَّ المأمون أن أنوَّاع مجالسه بحيث تكون لكل طائفة من العلماء مجلس ، ويعرض طيفور فى كتابه بغداد كثيًرا من هذه المجالس وما طرح فيها من موضوعات مختلفة للجدل والمناظرة .. ويصور المسعودى ما عاد على الحركة العلمية من هذه الندوات التى غدت كأنها مجمع علمى كبير ، فيقول : " قرب المأمون إليه كثيًرا من الجدلين والنظارين كأبى الهذيل العلاف ، وابى اسحق ابراهيم بن سيار النظام وغيرهما ممن وافقهما وخالفهما (يريد من المعتزلة وغيرهم) وألزم مجالسه الفقهاء وأهل المعرفة من الادباء وأقدمهم من الامصار وأجرى عليهم الأرزاق (الرواتب) فرغب الناس فى صنعة النظر وتعلموا البحث والجدل ، ووضع كل فريق منهم كتبا ينصر فيها مذهبه ويؤيد بها قوله " (2)

5 –بروز ذوى المواهب الخاصةواشتهارهم فقد كانت الثقافة والمعرفة منتشرة تغطى حاضرة الخلافة، فالمساجد مفتوحة ليل نهار والدكاكين والكتب متيسر الحصول عليها فبرز كثير من أبناء الشعب بما تمتعوا به من قدرات خاصة على رغم بساطة نشأتهم وصاروا أعلام الشعر .... فبشار كان أبوه طيَّانا يضرب اللَّبِن ، وأبو نواس كانت أمه غازلة للصوف وتعوله منه ، وأبو العتاهية كان يحمل في صغره الخزف والجرار ويبيعها، كذلك كان أبو مسلم حائكا ، وأبو تمام كان أبوه عطارا او خمارا ، وكان البعض قد تسمى بمهنته مثل شعيب القلال – يصنع القلل – ابى احمد الثمار – بائع الثمر – وقد أصاب العامة الكثير من المعارف والثقافة ،كلٌ قدر استطاعته وحسب استيعابه .

1بغداد لطيفور صـــ 45

2الحيوان 4 / 442

هذا وقد حرص الخلفاء العباسيون على نقل ما يستطيعون من المعارف والعلوم الى اللغة العربية وشجعوا على ذلك وأثابوا عليه . يقول السعودى معلقا على الحركة النشطة للترجمة فى عصر المنصور " كان أول خليفة قرب المنجمين وعمل بإحكام النجوم وكان معه نوبخت المجوسى ، وأسلم على يديه – وهو أبو هؤلاء النوبختية – وابراهيم الفزارى المنجم وعلى بن عيسى الاسطرلابى المنجم . وهو أول خليفة ترجمت له الكتب من اللغات العجمية الى العربية ومنها كتاب كليلة ودمنة وكتاب السند هند ، وترجمت له كتب ارسطاليس وكتاب الأرثماطيقى وكتاب اقليدس (1)ولما كان المنصور هو الفاتح لحركة الترجمة إذ سار على نهجه من تلاه من الحكام إضافة الى الوزراء والأمراء ؛ حيث شجعوا جميعا حركة الترجمة والنقل بل إن هناك أسرًا شهيرة اقترن اسمها بالتشجيع على الترجمة والتحفيز عليه مثل آل نوبخت ،وعلى رأسهم الفضل بن نوبخت الذى ترجم كتب الفلك وأل سهل وعلى رأسهم الفضل بن سهل الذى عنى بترجمة كثير من الكتب الفارسية ، وكان للبرامكة القدح فى إذكاء حركة الترجمة، ونقل كثير من الكتب الى العربية سواء أكانت رومية او فارسية أو يونانية أو هندية ، ويذكر فى ذلك يحى بن خالد البرمكى حيث ترجم فى الفلك والطب ومن أشهر المترجمين للتراث الفارسى زادويه بن شاهديه بهران بن مرد أنشأه بن عيسى الكسروى ، عمرو بن الفرخان وغيرهم ثم تشتد حركة الترجمة وتقوى اكثر فى "عهد المأمون" اذ جعل من خزانة الحكمة معهدا علميًا كبيرًا إضافة الى الحاقه مرصده به ونشاطه فى الترجمة وقد اشتهر من المترجمين الحجاج بن مطر ، يحى بن البطريق ، وحنين بن اسحق ، الذى اشتهر بالدقة والتميز حتى إنَّ المأمون كان يعطيه زنة ما يترجمه ذهبا .

وقد ازدهرت عدة معارف وعلوم ارتبطت بالمترجمين أو المؤلفين مثل علم الرياضة، والفلك الذى نبغ فيه الخوارزمى ،والعقاقير وعلم التشريح الذى عكف

1المسعودى 4 / 241

يوحنا بن ماسويه على تشريح القرده – كتبت رسالة " دغل العين " وعمت شهرتها الآفاق كذلك علم الكيمياء والذى نبغ فيه جابر بن حيان فقد كان ابن صيدلى كبير استطاع ارساء هذا العلم وخلف نظريات وقد ترجمت الى اللاتينية واستفاد منها الأوروبيون إفادة عظمى .كذلك ترجمت كتب الموسيقى لاقليدس وأفاد منها الخليل بن احمد من وضع علم العروض فلم يبقى فن أو علم أو معرفة الا وجد عند العرب طرف منه فقد صحبت تلك الترجمة الفارسية ترجمة يونانية وهندية فى كافة التخصصات حتى فيما اتصل بالملل والنحل والخرافات هذا إضافة الى الفلسفة اليونانية والمعارف العلمية .. حيث نبغ المتكلمون فى الفلسفة .يقول د / شوقى ضيف : وعلى هذا النحو أصبح العقل العربى فى العصر العباسى الأول عقلا متفلسفًا كما أصبح عقلًا علميًا ، لا من حيث فهمه وفقهه بعلوم الأوائل بل أيضا من حيث اسهامه فيها وإضافاته الجديدة حتى ليضيف علومًا لأول مرة فى تاريخ الحضارة الانسانية على نحو ما أضاف الخوارزمى علم الجبر ، وكان هذا العقل قد أظهر نضجه العلمى وإحكامه لوضع العلوم منذ القرن الثانى ، مما نراه متجليا فى العلوم اللغوية والدينية ومباحث التاريخ وعلم الكلام .

روافد الثقافة العربية

شغل التراث الفارسى أذهان المتلقين سواء أكان تراثًا فارسيًا خالصًا ، أوفارسيًامترجما عن اليونانية مساحات عراض من عقول ومؤلفات العرب فى تلك الحقبة إضافة للرافد الثقافى الهندى واليونانى ، ولا سيما فى الطب والعلوم والرياضة والحكمة والموسيقى .

وكان كتاب " البد " يتحدث عن بوذا حكيم الهند ... ثم ظهرت عقيدة التناسخ التى تحدث بها عبد الله بن سبأ واستغلها فى أن الجزء الإلهى عند على بن ابى طالب لن يفنى " بل إن بعض شيات البوذية ظهرت فى التصوف الإسلامى فنمط الحياة التى عاشها الزاهد الكبير ابراهيم بن أدهم ، بها كثير من التشابه بسيرة بوذا ،

وقد ترجم كثير من العلوم والمعارف اليونانية الى العربيـة مبـاشرة أو للسرـيانية ثـم ترجم للعربية ، وقد اهتم أبـو جعفـر المنصـور بالترجمـة وترجمـت كتـب ارسـطو ، المجسطى لبطليموس كتاب اقليدس ومؤلفات أخرى .. وظهرت أسر هوت العلم والترجمة فألفت وترجمت مثل أسرة جورجيس ، بختشيوع ، النسطورى .. فقد كان طبيبا فى مدرسة جند نيسابور .. لكن الترجمة أخذت شكلا منهجيـا مـنظما فى عهـد المأمون فقد أنشأ بيت الحكمة 217 هـ واستجلب لمركز ترجمته كل ما سمع من قـيِّم الكتب حتى عند أعدائه البيزنطيين فنشطت ترجمة التراث اليونانى فى مختلف الفروع العلمية .. ولا شك أن الكتب الفلسفية المترجمة كان لها أثـر كبـير فى تكـوين الجـدل عند المتكلمين العرب .

وقـد قيـل إن العباسـيين سـموا معتزلـة لاعتـزالهم الوقـوع بـين العلـويين والأمويين . وقد علا نجم كثير من المعتزلة وكانت لهم مكانة سـامقة لـدى الخلفـاء العباسيين حتى أنَّ صاحب واصل بـن عطـاء عمـرو بـن عبيـد كـان يعـظ الخليفـة المنصور فيبكى بين يديه وكان الأثنان واصل وعمرو غاية فى الزهد والتقشـف عـلى الرغم من قربهما من السلطان وكان عمرو جريئا فى وعظ الخليفة ، لا يخشى شيئا .

روى الجاحظ وابن قتيبة أن عمرو بن عبيد دخـل عـلى المنصـور يومـا فـرأى عنده فتى لم يعرفه فسأله المنصور : يا أبا عثمان أتعرفه ؟ فقال المنصور : هذا ابن امير المؤمنين وولى عهد المسلمين .. فقال له : قد رضيت له امرا يصير اليه إذا صار ، وقد شغلت عنه فبكى المنصور ثم قال : عظنى يا أبا عثمان : فقال إنَّ الله قد أعطاك الدنيا بأسرها فاشتر نفسك منها ببعضها، فلو أنهذا الأمر الذى صار إليك ، بقـى فى يـدى من كان قبلك لم يصل إليك وأذكر ليلة تمخض عن يوم لا ليلة بعـده .. فـوجم أبـو جعفر من قوله فقال له الربيع : يا عمـرو : غممـت أمـير المـؤمنين .. فقـال عمـرو للمنصور : إنَّ هذا صحبك عشرين سنة لم ير لك عليه أن ينصـحك يومـا واحـدا ، وما عمل من وراء بابك بشىء من كتاب الله ولا سنة نبيه قال أبو جعفر : فما صنع ؟

قد قلت لك : خاتمى فى يدك فتعال وأصحابك فاكفنى قال عمرو : ادعنا بعدلك تسخ أنفسنا بعونك .. ببابك الف مظلمة أردد منها شيئا نعلم أنك صادق " لذا حينما مات عمرو بن عبيد رثاه الخليفة فى حادثة فريدة أن يرثى الخليفة واحدا من الناس .قال المنصور :

صلى الإله عليك من متوسد | قبرا مررت به على مران
قبرا تضمن مؤمنا متخشعًا | عبد الاله ودان بالقرآن
وإذا الرجال تنازعوا فى شبهة | فصل الحديث بحجة وبيان
ولوأن هذا الدهر أبقى صالحا | أبقى لنا عمرا أبا عثمان

وقد أثر كل ذلك فى الشعر فقد كان للفرقة الإعتزالية شعراؤها الذين يذيعوا مفاخرها ويدافعوا عنها .وكان بشار صديقًا لواصل ثم تدهورت العلاقة بينهما فهجى واصل فقال واصل بن عطاء عند ذلك : " اما لهذا الأعمى الملحد المشنف المكنى بأبى معاذ من يقتله .. اما والله لولا أن الغيلة سجية من سجايا الغالية لبعثت اليه من يبعج بطنه على مضجعه ويقتله فى جوف الليل فى منزله ، وفى يوم حفلة ثم كان لا يتولى ذلك منه إلا عقيلى أو سدوسى .. ولما بلغ هذا القول بشار حسبه تحريضا عليه فترك بغداد ولم يعد اليها إلا بعد وفاة واصل فى سنة 131 هـ يقول بشار :

مالى أشايع غزالا له عنق | كنقنق الدو إن ولى وان مثلا
عنق الزرافة ما بالى وبالكم | أتكفرون رجالا أكفروا رجلا

فأجابه شاعرهم صفوان الأنصارى مثنيًا على معتقدى الإعتزال موضحًا منهجهم الإعتزالى

رجـــال دعـــاة لا يفــل عـــزيمهم تهـــكم جبـــار ولا كــــيد مـــاكر

اذا قال مروا فى الشتاء تطوعوا وان كان صيف لم يخف شهر ناجر

بهجـــرة أوطـــان وبـــذل وكلفـــة وشـــــدة أخطـــار وكـــد المســـافر

فـــأنجح مســـعاهم وأثقـــب زنـــدهم وأورى بفلـــج للمخاصـــم قـــاهر

ومن الواضح أن المنهجين التقيا ؛ منهج الدولة العباسية من احتضان غير العرب وضمهم للاسلام وجذبهم بكل الطرق وبكافة الوسائل ، ومنهج المعتزلة الداعى الى إعمال العقل، ومواكبة الحضارة ، والتوسل لشرح الإسلام بما جد من آليات العقل والمنطق، فإن كان الرعيل الأول واصل ، وعمرو بن عبيد وأصحابهما زهدوا فى المناصب وعاشوامعيشة المتقشفين .. فإن الجيل الثانى قرب من مواقع النفوذ والسلطان ففى عهد المأمون استوزر احمد بن ابى داوود وظل فى منصبه للمعتصم ثم الواثق ، وظلت المعتزلة لفترة طويلة يتمتعون بالنفوذ ، وحدب الخليفة حتى جاء المتوكل فانقلب عليهم وقرب أهل السنة ونكل بالمعتزلة ، وصادر أموالهم وزج بهم فى السجون .. لذا انطلق لسان الشعراء مادحين فى المتوكل قادحين بأهل البدع – يقصدون المعتزلة .فقد قال أبو بكر بن الخبازة مادحا المتوكل :

وبعـد فـإن السـنة اليـوم أصـبحت معـــززة حتـــى كـــأن لم تذلـــــل

تصـــول وتســـطو اذ أقـــيم منارهـــا وحط منار الأفـك والـزور مـن عـل

وولى أخـو الإبـداع فى الـدين هاربًـا إلى النـار يهـوى مـدبرا غـير مقبـل

شـــفى الله مـــنهم بالخليفـــة جعفـــر خليفتـــه ذى الســـنة – المتوكـــل

خليفـــة ربـــى – وابـــن عـــم نبيـــه وخـير بنـى العبـاس مـنهم مـن ولى

وجـامع شـمل الـدين بعـد تشـتت وفـارى رؤوس المـارقين بمنصـل

فعلى صوت السنة وخفت صـوت المعتزلـة.وربما فضـت الدولـة يـدها مـن الإعتزاليين لنفاد فائدتهم منها إضافة إلى الثورات الضارية التـى أنهكـت الدولـة فى القرن الثالث وأوائل القرن الرابع مثل : بابك الخرمى، ثورة الزنج ، ثورة القرامطـة ، إضافة إلى ظهور دويلات للمذهب الشيعى وانشـقت عـن الكيـان العباسـى ولا ننسى العصر التركى وميله للجانـب السـنى .وفى ظـل الدولـة البويهيـة اسـتعادت المعتزلة مجدها التليد فإن كان أهل بويه شيعة .. وبين المعتزلة والشيعة خـلاف .. إلا أن الخلاف بين المعتزلة وأهل السنة أحد وأعنف ،

لذا صفوا خلافهم والتقت المصـلحتان : مصـلحة أهـل بويـه وجـود نصـير جديد قوى ضد خصومهم ، ومصلحة المعتزلة وجود سند يأخذ بأيديهم ويعيد لهم مجدهم الذى ولى وهذا ما فعله الصاحب بن عباد حيث حمل الناس ترغيبًـا وترهيبًـا على اعتناق الإعتزال فقد كان وزيرا لمؤيد الدولة البـويهى ، لكـن حيـنما تـولى فخـر الدولة نكل بهم بعد وفاة الصاحب فلم تقم لهم قائمة .

قال أبو نواس مهاجمًا إياهم ..

فقـال لمـن يـدعى فى العلـم فلسـفة حفظت شـيئا وغابـت عنـك أشـياء

لا تحظـر العفـو إن كنـت امـرءا حرجا فـإن حظركـه فى الـدين ازراء

فأبو نواس يعيب على النظام ويدعوه أن يقلع عن القول بانتفـاء العفـو فى الآخـره عن المذنبين ، ويرى أن فى هذا القول زراية بسماحة الدين وبمشيئة الخالق فى العفـو عمـن يشاء.

والمعتزلة بشكل عام لم تخرج عن السلطان مثل الخوارج ، لذا لم تحارب مثلهم فعمدوا الى اقناع الناس بالموعظة أو الجدل أو القوة ونبغ منهم كثيرون شكلوا أدوات بناء

صلبة ؛ وقفت فى وجه معاول الهدم من الشعوبية وغيرهم من أصحاب النحل .. فقد استطاع أصحاب العقول من المعتزلة مجابهتهم الحجة بالحجة والزامهم بالتراجع والإقرار .

يقول بشر بن المعتمر متكلما عن العقل وقدرته الفائقة

لله در العقل من رائد وصاحب فى العسر واليسر

وحاضر يقضى على غائب أن يفصل الخير من الشر

بذى قوى قد خصه ربه بخالص التقديس والطهر

ويتبع بشار كشأن الاعتزاليين الشىء فتحدث عن العقل وما الفكر الا ثمرة من ثمار العقل .

لو فكر العاقل فى نفسه مدة هذا الخلق فى العمر

لم ير إلا عجبا شاملًا أو حجة تنقش فى الصخر

فكم ترى فى الخلق من آية خفية الجسمان فى قعر

أبرزها الفكر على فكرة يحار فيها وضح الفجر

ونلاحظ أن المعتزليين اتسموا بالبلاغة المضمونية لم يكون أصحاب كلام مرصوص ، ولا تنميق وترجيع للكلام وتزينه بمحسنات بدون مضمون مميز .. فطريقة آدائهم للمعانى كانت مرتبطة بالموضوع الذى يراد بحثه ؛ فهيأ لهم حسن الأداء لأفكارهم ذات الطابع الفلسفى بالعبارة المبينة المشرقة .

والمعتزلة ذات أسلوب جدلى مميز قد يقوم على نتائج تتولد عن المقدمات وقد يكون قياسًا ، وقد يكون الجدل عقليًا خالصًا وقد يكون طريفًا وفى الحالتين يعكس الذهنية عند الاعتزاليين ، وقد دار حوار لطيف بين "أبى الهذيل العلاف" والشاعر

"صالح بن عبدالقدوس" فقد كان صالح زنديقًا وحين مات أحد ابنائه جزع عليه كثيرا ووافاه الهذيل العلاف ، شيخ المعتزلة كالمتوجع له فرآه حزنا فقال أبو الهذيل : لا أعرف لحزنك وجها اذا كان الناس عندك كالزرع ، فقال صالح : يا أبا الهذيل إنما أتوجع عليه لأنه لم يقرأ كتاب الشكوك فقال له وما هذا الكتاب يا صالح ؟ قال : هو كتاب وضعته من قرأه تشكك فيما كان حتى يتوهم أنه لم يكن ، وفيما لم يكن حتى يتوهم انه قد كان ، قال له أبو الهذيل : فشك أنت فى موت ابنك واعمل على انه لم يمت ، وان كان قد مات وشك ايضا فى انه قد قرأ كتاب الشكوك وان لم يقرأه .فعلى الرغم أن حزن الأب لفقد ولده أمرًا طبيعيًا مألوفًا الا ان عبارة العلاف (لا أعرف لحزنك وجها) مبررا وعلة تمشيًا مع معرفة العلاف بدينونة صالح للتناسخ فينكر عليه حزنه حيث الأولى به ان يطبق على ذاته ما يؤمن به فلا يتسرب الحزن لنفسه .

الرؤية الفكرية والدينية للمذاهب المختلفة

من نافلة القول أن الأحزاب السياسية فى العصر العباسي تشعبتعن جذورها الثلاث التى وجدت فى العصر الأموى فقد حوى العصر الأموى الحزب الحاكم – الأمويين، والحزب المعارض – الهاشميون بكل فروعه ، حزب الخوارج الرافضين للحزبين الأولين .

فالخوارج: ظهروا على الساحة معارضين لعلى لقبوله التحكيم فانفصل اثنا عشر الفا أغلبهم من تميم واتجهوا الى حروراء مغادرين للكوفة مكونين حزباً خاصا بهم له مبادئه وأسسه .. فقد اجمعوا على تكفير على وعثمان وأصحاب الجمل والحكمين وقيموا موقف الناس من الحدث فمن رضى بالتحكيم أو صوب الحكمين أو أحدهما كفروه .

وسرعان ما اختلط الموقف السياسى بالموقف الدينى فقد ربطوا بين العمل والعقيدة وضرورة تلازمهما فالنطق بالشهادتين يستلزم تأدية الفروض الخمس إقامة الصلاة ، إيتاء الزكاة ، حج البيت ... واتسموا بالعنف فى الفعل والحدة فى القول، يقول أبو حمزة الخارجى – أحد نساك الأباضية عنهم أنهم " فرقة الضلالة بطشهم بطش جبرية ، يأخذون بالظنة ويقفون بالهوى ، ويقتلون على الغضب ، ويحكمون بالشفاعة ويأخذون الفريضة من غير موضعها ، ويضعونها فى غير أهلها ... " وهم على عبادتهم وزهدهم وبعدهم عن اللذات وكبحهم جماح الشهوات ، يرون ضرورة الخروج على الحاكم الجائر ويدفعون أرواحهم ثمنا لرده ويتعاملون بقوة وحدة وقد نوه على ايجابيتهم أبو حمزة كما قام بنقدهم .

حتى اذا رأوا السهام قد فوقت ، والرماح قد أشرعت ، والسيوف قد انتضيت، ورعدت الكتيبة بصواعق الموت وبرقت .. استخفوا بوعيد الكتيبة لوعد الله " ومضى الشاب منهم قدمًا حتى اختلفت رجلاه على عنق فرسه " وتخضبت بالدماء محاسن وجهه فأسرعت إليه سباع الأرض وانحطت عليه طير السماء .. فكم من عين فى منقار طائر طالما بكى صاحبها فى جوف الليل من خوف الله ، وكم من كف زالت عن معصمها طالما اعتمد عليها صاحبها فى جوف الليل بالسجود لله .

فقد ثبت نقضهم ووقوفهم فى وجه العلويين والأمويين على السواء ... وقامت حروب طوال بينهم وبين الأمويين ثم بينهم وبين العباسيين فقد رأوا انهم لم يأتوا الحكم باختيار حر من الناس وأن خلفائهم لم يقيموا العدل ..

لذا أباحوا لأنفسهم حربهم ومهاجمتهم ،وقد أرسل السفاح اليهم من يقاتلهم (خازم بن خزيمة)فانتصر عليهم .. قتل الجلندى الذى خرج فى عمان على حكم السفاح ، وكان من خوارج الأباضية وعلى رغم قتل عشرة آلف من جند الجلندى الا أنهم سرعان ما خرجوا مرة أخرى على المنصور ثم المهدى ثم هارون الرشيد .واتسموا فى قتالهم وخروجهم بالورع الدينى والشجاعة الفائقة والمجالدة

فى الحرب، وقد تبدى ذلك فى أشعارهم تقول الفارعة الخارجية ، أخت الوليد بن طريفة ، ترثيه بعد أن قتله قائد جيش الرشيد ، يزيد بن مزيد الشيبانى :

فيا شجر الخابور مالك مورقًا كأنك لم تحزن على ابن طريف

فتى لا يحب الزاد إلا من التقى ولا المال إلا من قنا وسيوف

وهذا العنف المحتدم فى السياسة الدينية والذى سحب أذياله على الحياة السياسية، سمح بوجود فرق كثيرة الى جوارالفرقتين المتناحرتين الأمويين ، والهاشميين حيث ظهرت المرجئة التى أملت فى عفو الله أن يشمل الجميع ، والمعول عليه الضمير الذى حرك المناصرين " لعثمان أو على" فالله علام الغيوب يحكم بينهم ذلك إنهم لما استعرضوا أعمال السياسة على مبادئهم رأوا أن المتقاتلين الأولين ، كالذين ناصروا عثمان ، والذين خرجوا عليه، والذين قاتلوا مع على، والذين قاتلوا مع معاوية – كلهم مصدق بالله ورسوله، وكلهم متأول،إذاً فكلهم مؤمن، وإذا أخطأ بعضهم فعفوا الله قد يشملهم، ثم اضطرت المرجئة إلى أن تفلسف رؤيتها وتظهر مبدأه وضوابطه ومعاييره، فنجد أنها لم تربط بين الإيمان والعمل، كما فعل الخوارج بل أوجبوا الإقرار باللسان والتصديق بالقلب، فمن اعتقد بقلبه وصدق فهو مؤمن، ولا يضر إيمانه ما يقارب من معاصى أو يرتكب من كبائر، وترتب على ذلك عدة مفاهيم ثبوت الإيمان بلا زيادة أو نقصان، حين ارتكاب الكبيرة يظل الإيمان مع ما حوى القلب من إيمان أو فسق، يدخل النار لكن لا يخلد فيها، وعد الله المتقين ووعده يقينى التحقق ، وأوعد الله الفاجرين لكن وعيده قد يتخلف ليسود عفو الله وغفرانه .كما قال تعالى .. ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ .... ﴾ [سورة الزُّمَر: الآية 53]

الفـرق الفرعيـة:

دخل الإسلام كثير من البلدان المفتوحـة إمـا ترهيبـا أو ترغيبـا أو لأغـراض نفعية ، وكان كثير منهم لهـم معتقـداتهم فى ديانـاتهم القديمـة فحملوهـا معهـم الى الإسلام ... بل وصل الأمر ببعضهم الى محاولة اقحامهـا داخـل الـدين الإسـلامى وظهرت فرق مثل : المرقيونية ، الديصـانيه ، المنائيـة – المانويـة ، المزدكيـة . اتفقـت الفرق الثلاث الأولى على أن أصـل الخلـق النـور والظلمـة وردوا الوجـود كلـه الى الأصلين هاذين ... لذا أطلق عليهم " الثنوية " .

المزدكية - ويسمون كذلك بالمحمرة فهـم فى الأصـل مجـوس ، وكـانوا يسكنون الجبال فيما بين أزربيجان وأرمينية وبلاد الديلم وهمدان ودينور ، وفيما بـين أصفهان وبلاد الأهواز وقد دعاهم صاحبهم " مزدك " – الـذى نسـبوا اليـه – إلى الانهـماك فى اللـذات ، والعكـوف عـلى بلـوغ الشـهوات مـن المأكـل والمشـرب ، والاختلاط والمشاركة فى الحرم والأهل وقد كانت معتقـداتهم مجافيـة تمامـا للـدين الإسلامى روحًا وتعاليمًا، ومع ذلك اعتنقها كثير من وجهاء المجتمع وسوقته، فقـد اعتنقها الجعد بن درهم مؤدب ابنمحمد آخر خلفاء بنى أمية وقيل إنه كـان زنـديق وأدخل مروان فى الزندقة ، وهجا أبو نواس إبان اللاحقى واتهمـه باعتنـاق عقيـدة المانوية يقول :

جالســــت يومـــــا أبانــــــا	**لا در در أبــــــــــــــــــــان**
ونحــــــن حضر ـــــــ رواق	**الأمــــــــير بالنهـــــــــروان**
حتــــــى اذا مــــا صـــــــلاة	**الأولى دنــــــــــــــــت لأوان**
فقـــــام منـــــــذر ربـــــــى	**بــــــــالبر والإحســــــــان**

وكلمـــــــــــا قــــــال قلنــــــا　　إلـــــــــى انقضــــــــاء الأذان

فقـــــال : كيــــــف شـــــــهدتهم　　بـــــــذا غـــــير عيــــــــان ؟

لا أشــــــهد الــــدهر حتـــــى　　تعايــــــــــن العينــــــــــــان

فقلــــــت : ســــــبحان ربــــــى　　فقـــــال : ســــبحان مـــــانى

فقلــــــت : عيســــــى رســــــول　　فقـــــال : مـــــن شيــــــطان

فقلــــــت : موســــــى نجـــــى　　المهيـــــــــمن المنــــــــــان

فقــــــال : ربـــــــــك ذو　　مقلــــــــة إذن ولســـــــــــان

أنفســـــــــــــه خلقتــــــــــــه　　أم مـــــن ؟ فقمـــــت مكـــــانى

وقلــــــــت : ربـــــــــى ذو　　رحمـــــــــة وذو غفـــــــــران

وقمـــــــت أسحـــــــب ذيـــــلى　　عـــــن هــــــازل بــــــالقرآن

حتى إن البرامكة اتهموا فيها وهاجمهم الأصمعى :

إذا ذكـــــر الشرــــــك فى مجلــــــس　　أضـــــاءت وجـــوه بنـــى برمـــك

وإن تليـــــت عنـــــدهم آيــــــــة　　أتـــوا بالأحاديـــث عــــن مــــزدك

وقد ترجم بن المقفع كثير من كتب الفرق مما ساعد على انتشارها وذيوع الزندقة فقد ترجم كتب مانى ، ابن ديصان ، وكتب مرقيون .

المعتزلة فى بداية الدعوى قرت العقيدة فى النفوسبلا أدلة عقلية، ولا براهين منطقية ، استيقظت الفطرة وفطنت الروح فاعتنق الناس الإسلام لكن فى العصر العباسى الثانى أى بعد أكثر من قرن احتيج إلى تدعيم العقيدة بالعقل

والمنطق والفكر، ولا سيما بعد ظهور أصحاب الديانات والملل الأخرى بحججهم العقلية، وبراهينهم المنطقية ،فاحتيج الى مخاطبة العقل للعقل ، وقد استقطبوا الحياة الفكرية والأدبية منذ اوائل القرن الثانى الهجرى فقد ظهرت فرقتى الجبرية والقدرية ، فالانسان مجبر فيما يفعل فهو مسير ، وظهرت القدرية التى تقول إن الانسان مخير يفعل ما يشاء وظهرت فتنة القرآن الكريم أهو قديم أم محدث ، ثم صفات الله أهى ذاته أم إنها غير ذاته

فظهرت المعتزلة التى وجب عليها التعامل مع قضايا هامة مطروحة في مختلف الجوانب الدينيوية والأخروية ،ويرجع وجود الاعتزال الى سؤال وجهه أحدهم إلى الحسن البصرى في مجلسه الذى يضم الكثيرين عن حكم مرتكب الكبيرة : فقال له : يا إمام الدين ، لقد ظهرت فى زماننا جماعة يكفرون ، أصحاب الكبائر ، والكبيرة عندهم كفر مرج به عن الملة ، وجماعة يرجئون أصحاب الكبائر ، والكبيرة عندهم لا تضر مع الإيمان ، بل العمل على مذهبهم ليس ركنًا من الإيمان ولا يضر مع الإيمان معصية ، كما لاينفع مع الكفر طاعة ، وهم مرجئة الأمة ، فكيف تحكم لنا فى ذلك اعتقادا ؟فتفكر الحسن فى ذلك ، وقبل أن يجيب قال واصل بن عطاء : أنا لا أقول إنَّ صاحب الكبيرة مؤمن مطلق ، ولا كافر مطلق ، بل هو فى منزلة بين المنزلتين ؟ لا مؤمن ولا كافر ، ثم قام واعتزل الى اسطوانة من اسطوانات المسجد يقر ما أجاب به على جماعة من أصحاب الحسن . فقال الحسن عند ذاك : اعتزل عنا واصل ، ومن هنا سمى هو وأصحابه المعتزلة

وقد كانت فى البداية رؤية دينية لكنها سرعان ما تطورت فصارت تحزبا سياسيا تابع لرؤية الحزب السياسى الموجود، فالعلويون يتهمون الأمويين بقتل على ، والأمويون يلعنون عليًا على المنابر ، والعلويون يهاجمون الخوارج ويرون أنهم انفضوا عن على وتركوه وحيدًا يواجه مصيره ، والخوارج يكفرون عليًا لقبوله

التحكيم ويكفرون من حاربه ، والمرجئة يرجعون الحكم بين هـذه الـرؤى لله ، هـو وحده الأعلم من على صواب ومن على خطأ .

لذا تبلورت الرؤيا الدينية وأخذت شكلًا سياسـيًا ، فحيـنما أقـر واصـل بـن عطاء أنه لايكفر أحدًا ولا يبرئ أحدًا وأن أحد الفريقين فاسق لا محالة،وهذا المـوار فى الساحة والتشتت الفكري والعقلي سـاعد سـقوط الأمـويين والعلـويين كلـيهما، وكان ذلك بمثابة تمهيد للحكم العباسى الذى يعد حكم المعتزلـة ارهاصـة ايجـاده ، وقد علا نجم المعتزلة في بعض الأحايين وسادوا البلاد حتى قيل أن ثمة علاقة بـين وجودهم ووجود العباسيين .فأبو جعفر المنصور منحهم النفوذ العظـيم ، ويمكننـا أن نقول إن العباسيين ربما وجـدوا فى موقـف المعتزلـة الفكـرى مـا يـدعم كيـانهم وشرعية حكمهم من جهة الحكم الفقهى ذلك أنهم وجدوا فيه سندا لهم ضد فقهـاء السنة الذين أنكروا هذه الشـرعية ومن ثم احتضن العباسيون المعتزلة.[1]

نتاج المعتزلة الشعرى لقد تنوع نتاج المعتزلة فلم يك كله عبارة عن جدل وصور عقلية عاكسة لنمط التفكير، بل هناك أبيات شعريةتعكس حالاتهم ، حيـث وجدنا أقطاب المعتزلة قد برعوا فى فن الغزل وكان مـنهم مـن هـو متـأثر بغـيره أو شديد التأثير فى غيره يقول صفوان الأنصارى متحدثا عن الفكر الاعتزالى .

تلقـب بـالغزال واحـــد عصرـه ... فمـــن لليتــامى والقبيــل المكــائر

ومــن لحــرورى وآخـــر رافــض ... وآخـــر مرجـــى وآخـــر جائـــــر

وآمـر بمعـروف وانكـــار منكـــــر ... وتحصـين ديـن الله مـن كـل كـافر

يصيبون فضل القول فى كـل مـوطن ... كـما طبقـت فى العظـم مدبـة جـازر

تـراهم كـأن الطـير فـوق رؤوسـهم ... عـــلى عمـــة معـــروف فى المعـــاشر

---

1 عز الدين اسماعيل فى الشعر العباسى الرؤية والفن صـــ 183 .

وسـيامهم معروفـة فى وجـــــوههم وفى المشـى حجاجـا وفـوق الأبـاعر

وفى ركعـة تـأتى عـلى الليـل كلـــــه وظـــاهر قـــول فى مقـــال الضـــمائر

وفى قــص هــداب وإحفــاء شــارب وكـــور عـــلى شـــيب يضىـء لنــاظر

وعنفقـــة مصـــلومة ولنعلــــــــه قبـالان فى ردن رحيـب الخواصــــر

فتلــك علامــات تحيـــط بوصــفهم ولـيس جهـول القـوم فى علـم خـابر

فهو يوضح أوجه النفع التـى يقومـون بهـا مـن الـدفاع عـن الإسـلام ضـد الخوارج والرافضة والمرجئة ، وأبـديإنهم فئـة مميـزة : شـكلا زيهـم الخـاص الـذى يعرفون به العمامة ، الثوب القصير والنعـل ذى الزمـامين ، ومضـمونا حيـث إنهـم صادقون قولًا وعقيدة كما أنهم يملكون سلامًا قلبيًا ، وبشر بن المعتمر يتحـدث عـما تكبدوه حتى يصلوا الى هذه النتيجة فهم طلاب علم مدافعين عن الدين والأبيـات اعتزازا بالذات .وقوة الاحساس بها ، يقول بشر بن المعتمر موضحًا ذلك كله

إن كنـــت تعلـــم مـــا أقـــول ومـــا تقـــول فأنـــت عـــالم

أو كنــــــت تجهـــــل ذا أو ذاك فكــــن لأهــــل العلــــم لازم

أهـــل الرياســــة مـــن ينـــا زعهــــم رياســــتهم فظــــالم

ســــهرت عيــــونهم وأنــــت مــــن الــــذى قاســــوه حــــالم

لا تطلـــــــبن رياســـــــــة بالجهـــل أنـــت لهـــا مخاصـــم

لـــــولا مقـــــامهم رأيـــــت الـــدين مضـــطرب الـــدعائم

وللنظام أبيات شعرية رفيعة فى الغزل وان اختلف فى نسبتها له أم لأبى نواس يقول النظام :

توهمـــه طـــرفى فـــألم خـــده　　　فصار مكان الـوهم مـن نظـرى اثـر

وصـــافحه قلبـــى فألـــم كفـــه　　　فمن صـفح قلبى فى أناملـه عقـــر

ومـــر بقلبـــى خاطـــرا فجرحتـــه　　　ولم أر جسـًما قـط يجرحـه الفكـــر

يمـر، فمـن لـين وحسـن تعطـف　　　يقـال بـه سـكر ولـيس بـه سـكر

وقد وردت الأبيات فى الأغانى بترتيب آخرو منسوبة لأبى نواس

توهمـــه قلبـــى فأصـــبح خـــده　　　وفيـه مكـان الـوهم مـن نظـرى أثـر

ومـــر بفكـــرى خـــاطرا فجرحتـــه　　　ولم ار جســـا قـــط يجرحـــه الفكـــر

وصـــافحه فلبـــى فألـــم كفـــه　　　فمـــن غمـــز قلبـــى فى أناملـــه عقـــر

يقول النظام:

وشـــادن ينطـــق بالظـــــرف　　　يقصرـــ عنـــه منتهـــى الوصـــف

رق فلـــو بـــزت سرابيـــله　　　علقـــه الجـــو مـــن اللــــطف

يجرحـــه اللحـــظ بتكـــــراره　　　ويشـــتكى الايمـــاء بـــالطرف

أفديـه مـن مغـرى بـما أسـاءنى　　　كأنـــه يعلـــم مـــا أخفـــى

وثمة تواصل بين النظام وأبى نواس فى كثير من المفردات والجمل .

يـــا تـــاركى جســـدًا بغـــير فـــؤاد　　　أسرفـــت فى الهجـــران والإبعـــاد

إن كـــان يمنعــك الزيـــارة أعـــين **فادخـــل عـــلى بعلـــة العـــــواد**

كـــيما أراك وتلـــك أعظـــم نعمـــة **ملكـــت يـــداك بهـــا منيـــع قيـــادى**

إن العيـــــون عـــــلى القلـــــوب إذا **جنـــت كانـــت بليتهـــا عـــلى الاجســـاد**

ويقول أبو نواس :

يـــا تـــاركى جســـدا بغـــير فـــؤاد **أسرفـــت فى هجـــرى وفى إبعـــادى**

إن كـــان يمنعــك الزيـــارة أعـــين **فادخـــل عـــلى بعلـــة العـــــواد**

إن القلـــــوب مـــــع العيـــــون اذا **جنت جـاءت بليتهـا عـلى الأجسـاد**

أشـــكو اليـــك جفـــاء أهلـــك إنهـــم **ضربـــوا عـــلى الأرض بالأســـداد**

وفي كل الأحوال كان لفن الغزل رقعة شعرية لدى المعتزلة ، أظهرت ملامـح الشوق ، والوجد ، واللوعة في كل المواقف.

الفكر الجدلى الكلامى وأثره على الأدب

وإذا كان الجدل الكلامى الذى دار بين "محمد الـنفس الذكيـة وأبـى جعفـر المنصور" قد رسم الخطوط الرئيسية لمنهج كلا الحزبين الشيعي والعباسي ، فإن هـذا الجدل قد استمر بعد ذلك على المستوى الفقهى فكـان الصراـع بـين فقهـاء الشـيعة وفقهاء السنة ، كما انعكست أصداؤه على المستوى الأدبـى فظهـر الشـعر السياسـى المعبر عن وجهة نظر العباسيين ووجهة نظر معارضيهم من الشـيعة ، ويشـغل هـذا الشعر قدرًا غير يسير من أدب ذلك العصر ، كـان لـه فعلـه وتـأثيره وخطـره لـدى الفريقين المتصارعين ولدى جماهير الناس ، حيث كان الشعر ما زال فى ذلك العصرـ – كما كان فى العصر الأموى – يقوم بدور الصحافة الحزبية السياسية .

والشعر هنا قطعه حجاج تثبت حق العباسيين وتفند آراء العلويين وتدحضها مستلهما سورة الأنعام وحجب الأعمام لابناء البنت فى الميراث ، ويثبت أن العباسيين أصحاب مجد وشرف فى الجاهلية والإسلام ، حيث كانوا يقومون على السقاية فى العصرين والتعريض بحجج العلويين وأنهم أصحاب وهم وأباطيل ، والعباسيون أصحاب حق وواقع ، وقيل إن البيت الشعرى :

أنى يكون وليس ذاك بكائن — لبنى البنات وراثة الأعمام

كان سببا فى قتله حيث تعقبه العلويون واغتالوه وقد رد على ذلك الشاعر جعفر بن عفان الطائى حين قال :

لم لا يكون – وإن ذاك لكائن — لبنى البنات وراثة الاعمام

للبنت نصف كامل من ماله — والعم متروك بغير سهام

ما للطليق وللتراث وإنما — صلى الطليق مخافة الصمصام

فالمعروف انه أسر يوم بدر وافتدى نفسه فسمى طليقًا ، لأنه أسلم بعد الفداء خوفا من السيف فلا يحق لأبنائه الولاية ، وكان موقف الخلفاء العباسيين من الشعراء المؤيدين لهم من بذل العطاء واغداق المنح، سببا لتغيير كثير من الشعراء مسلكهم الخاص بحثًا عن المزايا العباسية، فقد تمسكوا بأهداب الخلافة رغبة فيما عندهم أو رهبة من سيوفهم ، رغما من ميلهم القلبى للعلويين يقول منصور النمرى مخاطبا الرشيد (بل انه وظف لسانه فى خدمة العباسيين ومجادلة العلويين حين قال:

بنى حسن وقل لبنى حسين — عليكم بالسداد من الأمور

أميطوا عنكم كذب الأمانى — وأحلاما يعدن عداة زور

ألا لله در بنـــــــــي عـــــــــلي وزور من مـقـالـتـهـــم كـــبــير

يُسـمـون الـنـبـي أبـاً، ويأبـى الأحزاب مـــن سـطـــر فـيسـطـــــور

وكان الشعراء يلتمسون الوسطاء ليصلوا للخلفاء العباسيين فها هو الشـاعر بن عبدالحميد اللاحقى يرى مكانة مروان بن حفصه ومعيشته فيسيل لعابه ويذهب لإصدقائه من البرامكة ليصلوه بالخلفاء.

أمــــرر عَـــلَىْ جَـــدَثِ الحُسَـــيْنِ وقُــــلْ لِأعْظُمِـــــهِ الزَّكِيَّــــةْ

يَـــا أَعْظُـــمَاً لَا زِلْـــتِ مِــــنْ وَطْفَـــــاءَ سَــــاكِبَةً رَوِيَّـــــة

فــــــإذا مــــــرَرْتَ بِقـــــبرِهِ فأطِـــــل بِــــهِ وقـــــفَ المَطيّـــة

وَابْـــــكِ المُطَهّـــــرَ للمطهَّــــرِ والمطَهَـــــــــــّرةِ الزكيَّـــــــة

كبكــــاء مُعْوِلَـــةٍ غَـــدَتْ يَـــو مــــــاً لِواحِدِهـــــا المنيَّـــــة

ومن الشعراء من صرح وجاهر فى شعره بتأييده العباسيين يقـول مـروان بـن حفصه متغنيًا بحب العباسيين:

طرقتــك زائـــرة فحـــى خيالهـــا بيضـــاء تخلـــط بـــالجمال دلالهـــا

ثم يقر بأحقية العباسيين بالخلافة ويستشهد بالقرآن فخاطب العلويون قائلاً:

هَلْ تَطْمِسُونَ مِنَ السَّماءِ نُجُومَها بـــأكفكمْ أمْ تســـترون هلالهـــا

أمْ تَجْحَـدُونَ مَقَالَـةً عَـنْ رَبِّكُـمْ جِبريـــلُ بَلَّغَهـــا النَّبـــيَّ فَقَالَهَـــا

شَـهِدَتْ مِـنَ الأنْفَـالِ آخِـرُ آيـةٍ بـــتراثهمْ فـــأردتم إبطالهــــا

ومنهم من بهت موقفه فلجأ للتقيا أحياناً ... كذلك وفي أحايين أخرى من يشيع فى جرأة ويعلن فى وضوح حق الشيعة مستندين لقوله ﷺ .. "من كنت مولاه فعلى مولاه" فهى لعلى ثم ولده من بعده:

عجبتُ من قوم أتوا أحمداً	**بخطبةٍ ليس لها موضعُ**
قالوا له: لو شئت أعلمتنا	**إلى من الغايةُ والمصرعُ**
إذا توفيت وفارقتنا	**وفيهمُ في المُلكِ من يطمعُ**
فقال لو أعلمتكم مَفزعاً	**كنتم عسيتم فيهِ أن تصنعوا**
كصنعَ أهلِ العجل إذ فارقوا	**هارون فالتَرْكُ له أروعُ**
ثم أتته بعدَه عزمةٌ	**من ربهِ ليس لها مدفعُ**
أبلغ وإلا لم تكن مبلغاً	**والله منهم عاصمٌ يمنعُ**
فعندها قام النبي الذي	**كان بما يأمرهُ يصدعُ**
يخطِبُ مأموراً وفي كفهِ	**كفُّ علي نورها تلمعُ**
رافِعها أكرِم بكف الذي	**يرفعُ والكف التي تُرفعُ**
يقول والأملاك من حولِه	**واللهُ فيهم شاهدٌ يسمعُ**
من كنتُ مولاهُ فهذا لهُ	**مولىً فلم يرضَوا ولم يقنعُوا**
فاتّهموه وانحنت منهمُ	**على خلافِ الصادق الأضلعُ**
وضلّ قومٌ غاظهم فعله	**كأنما آنافهم تُجدعُ**

حتـــــى إذا وارَوه في لَحَــــــــده وانصـــــرفوا مـــن دفنـــه ضـــيّعُوا

مــــا قـــال بــــالأمسِ وأوصى بـــه وأشـــــتروا الضـــــرّ بــــما ينفـــــعُ

ثم يتلفت السيد الحميرى لمدح العباسيين من خـلال تأييـده لمعتقـدهم إنهـم سيتداولون الخلافة فى الأرض وإنها ستظل فيهم إلى أن يظهر المسيح المخلص:

دُونَكُموهـــــا يـــــا بنـــــي هاشـــــمٍ فَجـــدِّدوا مـــن عهـــدها الدَّارســـا

دُونَكمُوهـــا لا عـــلا كعـــبُ مَـــنْ كـــان علـــيكم مُلكَهـــا نافســـا

دونَكُموهــــــا فالْبَســــوا تاجَهــــا لا تَعْـــدَموا مـــنكمُ لـــه لابســـا

لـــــو خُــــيِّرَ المنــــبرُ فُرســـــانَه مـــا اختـــار إلاّ مـــنكُم فارســـا

قـــد ساســـها قـــبلكُم ساســـةٌ لم يتركـــوا رَطبـــاً ولا يابســـا

ولســــتُ مــــن أن تَمْلكوهــــا إلى مَهـبِط عيسـى فيكُم آيسا

والفكرة هنا مزدوجة: فالخطاب موجه لبنى هاشم وكذلك تحتمل العلـويين والعباسيين فكلاهما لهاشم وفكرة سيادة الحكم ظهـور المسـيح مبـدداً للكفـر قـاراً للإيمان، توافق معتقدات فرقة مع الكيسانية حيث يرون بعودة محمد بـن الحنفيـة إلى العالم ليقوم بالدور نفسه.

كذلك هناك من رفض المماثلة وصرح بتشيعه ومعاداة العباسيين وهـو دعبـل بن على الخزاعى ومن تفجعه لمقتل الحسين:

رأس بـــن بنـــت محمـــد ووصـــيه - يـــا للرجـــال - عـــلى ثنـــاه يرفـــع

والمســـلمون بمنظـــر وبمســـمع لا جـــازع مـــن ذا ولا متخشـــع

أيقظـت أجفانـا وكنـت لهـا كـرى   وأنمـت عينـا لم تكـن بـك تهجـع

ثم رثى من رثى محمد النفس الذكية، وأخوه إبراهيم اللذان نكبا على يد بنى العباس والمعيشة الضنك والملاحقة التى يعانيها العلويين.

بكيـت لرسـم الـدار مـن عرفـات   وأذرى دمـع العـين بـالعبرات

مـدارس آيـات خلـت مـن تـلاوة   ومنـزل وحـى مقفـد العرصـات

ديـار عفاهـا كـل جـون مبـادر   ولم تعـف للأيـام والسـنوات

ثم يبرر سر حبه لهم:

ملامـك فى أهـل النبـى فـإنهم   أحبـاى مـا عاشـوا وأهـل ثقـاتى

تخـيرتهم رشـدا لأمـرى فـإنهم   - عـلى كـل حـال - خـيرة الخـيرات

فيـا رب زدنـى مـن يقينـى بصـيرة   وزد حـبهم يـا رب فى حسـناتى

ولا يفوته الحديث عن سوء معاملـة العباسـيين وتكـديرهم عـيش العلـويين حين يصدر ذك قائلاً:

أَلَمْ تَـرَ أنّـي مـذ ثلاثيـنَ حجّـةً   أروحُ وأغـدو دائـمَ الحسَـراتِ

أرى فَيأهُـم في غـيرهم مُتَقسَّـماً   وأيـديهمُ مـن فَيئهـم صَـفِراتِ

فـآل رسـول الله نحـف جسـومهم   وآل زيـاد حفـل القصـرات

بنـات زيـاد فى القصـور مصـونة   وآل رسـول الله فى الفلـوات

ويمدح المنصور النميرى هارون قائلاً:

أى امرئ بات من هـارون فى سـخط   فلـيس بالصـلوات الخمـس ينتفـع

إن المكـــــارم والمعـــروف أرديـــــة　　　أحلـــك الله منـــــها حيـــث تتســـع

إذا رفعـــــت أمـــرءا فـــالله يـــــرفعه　　　ومـــن وضـــعت مـــن الأقـــوام متضـــع

ويهجوا أبو تمام العباس قائلاً:

فعلـــتم بأبنـــاء النبـــي ورهطـــــه　　　أفاعيـــل أدناهـــا الخيانـــة والغـــدر

ومـــن قبلـــه أخلفـــتم لوصيـــــه　　　بداهيـــة دهيـــاء لـــيس لهـــا قـــدر

فجئـــتم بهـــا بكـــرا عوانـــا ولم يكـــن　　　لهـــا قبلهـــا مـــثلًا عـــوان ولا بكـــر

أخـــوه إذا عـــد الفخـــار وصـــهره　　　فـــلا مثلـــه أخ ولا مثلـــه صـــهر

وشـــد بـــه أزر النبـــــي محمـــــد　　　كـــما شـــد مـــن موسى بهارونـــه الإزر

وهذه الأبيات وغيرها توضح الدور الذى لعبه الشعر في رصد الصراع بين العباسيين والأمويين في ردهات العصر العباسي.

تنازع الحكم بين الشيعة والعباسيين وأثره على الأدب

قضى العباسيون على الأمويين واخمدوا صوتهم وبدأوا يقرون حكمهم ويهنأوا به ، لكن انقلب بعض الاتباع المريدين إلى مخالفين معارضين وهم العلويون، فإن كانوا مثلوا صوت المعارضة النشطة القوية فى العصر الأموى إلا أن قوتهم اشتدت ومعارضتهم قويت أثناء الحكم العباسى وبرزت هذه المعارضة حادة قوية أَنا ، وتوارت لينة ضعيفة أَنًا أخر ... فالشيعة الإمامية قائدها جعفر الصادق (من فرع الحسين بن على بن ابى طالب) آثر الهدوء وسلم للعباسيين ، اذ لم يك الوقت مناسبًا أما محمد بن عبد الله الملقب بالنفس الذكية (من فرع الحسن ، كان يرى نفسه أحق بالولاية من العباسيين (لما زعموه من أن بنى هاشم انتخبوه للخلافة وبايعوه لها من أواخر عهد بنى أمية وكان ممن بايعه أبو جعفر المنصور)

فامتنع عن مبايعة أبى العباس السفاح ولمن بعـده أبـو جعفـر المنصـور وقـد عذب المنصور أبناء الحسن وأذاقهم العذاب ، وأخفى محمد بن عبد الله ثم ظهـر فى المدينة وأخذ البيعة .والأحداث السياسية سحبت رداء التأثير على الأدب

إذ أن الأديب يتـأثر بالأحداث المحيطة بهو يـودع هـذا التـأثر الشـعر والنثـر اللذان نالا الكثير من الأفكار السياسية التى وقعت في هذا العصر فجـاءت حاويـة وجهة نظر الطرفين ،وأدلة أحقية كل منهما فى تـولى الخلافـة ، فقـد أرسـل المنصـور كتاب أمان ل "محمد " يأمنه فيه وشقيقه اذ جاءه قبل أن يحاربه .فأرسـل إليـه محمـد برسالة ارتكزت على أفكار ثلاثة :

الوصاية كانت لعلى ومن ثم أبناؤه أحق بها ، وأن اتباع محمدًا يفـوق المنصـور جيشًا ونسبًا ، دور العلويين كان هامًا فى إنجاح الثورة وعرَّض بأخلاقيات المنصـور حين غدر بابن هبيرة بعد أن أمنه ، وغدر بمحمد عبد الله بن على وقائده أبـو مسـلم يقول محمد بن عبد الله " بسم الله الرحمن الرحيم " من عبد الله محمـد المهـدى أمـير المـؤمنين الى عبـد الله بـن محمـد امـا بعـد ﴿طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرۡعَوۡنَ بِٱلۡحَقِّ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنُرِيَ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنۡهُم مَّا كَانُواْ يَحۡذَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [سورة القصص]

وأنا أعرض عليك من الأمان مثل الذى أعطيتنى ، وقد تعلم أن الحق حـق ، وأنكم إنما طلبتموه بنا ، ونهضتم فيه بشعبنا ، وخطبتموه بفضـلنا ، وإن أبانـا عليًـا رضي الله عنه كان الوصى والإمام ، فكيف ورثتموه دوننا ونحن أحياء ؟ وقد علمت أنـه ليس أحد من بنى هاشم يمت بمثـل فضـلنا ، ولا يفخـر بمثـل قـديمنا وحـديثنا ، ونسبنا وسببنا ، وإما بنوا أم رسول الله فاطمة بنت عمرو فى الجاهلية دونكم ، وبنوا

فاطمة فى الإسلام من بينكم ، فأنا أوسط بنى هاشم نسبا ، وخيرهم أما وأبا. لم تلدنى العجم ، ولم تعرف فى أمهات الأولاد وإن الله تبارك وتعالى لم يزل يختار لنا ، فولدنى من النبيين أفضلهم محمد ﷺ ، ومن أصحابه أقدمهم إسلاما وأوسعهم علمًا وأكثرهم جهادا على بن أبى طالب ، ومن نسائهم أفضلهن خديجة بنت خويلد، أول من آمن بالله وصلى إلى القِبلة ، ومن بناته أفضلهن وسيدة نساء أهل الجنة ، ثم قد علمت أن هاشمًا ولد عليا مرتين ، وان عبدالمطلب ولد الحسن مرتين ، وأن رسول الله ﷺ ولدنى مرتين من قبل جدى الحسن والحسين ، فما زال الله يختار لى حتى اختار لى فى النار فولدنى أرفع الناس درجة فى الجنة ، وأهون أهل النار عذابا، فأنا ابن خير الأخيار وابن خير الأشرار، وابن خير أهل الجنة وابن خير أهل النار ولك عهد الله إن دخلت فى بيعتى أن أؤمنك على نفسك وولدك وكل ما أصبته ، إلا حدًا من حدود الله ، أو حقا لمسلم او معاهد ، فقد علمت ما يلزمك فى ذلك فأنا أوفى للعهد منك ، وأحرى لقبول الزمان ، فأما أمانك الذى عرضت على فأى الأمانات هو ؟ أأمان ابن هبيرة ؟ ام أمان عمك عبد الله بن على ؟ أم أمان ابى مسلم؟ والسلام .

فلما وصلت الرسالة أمر أبو جعفر على الرد عليه بنفسه على الرغم من إنه قيل إِنْهِ صاحب الرسالة .واشتملت رسالته على حجج واضحة تفند أدلة محمد بن عبد الله وتثبت جدارتهم بالخلافة وأحقيتهم بها .

فهم ابناء عم رسول الله والعم يقدم في الإرث على أبناء البنت ، ويتحدث عن شيعتهم التى مكنتهم من أحراز النصر فى الوقت الذى تخذل منه العلويون من قبل المتشيعين ومن سائر الناس، بدليل فشلهم فى تولى الإمارة حقبًا متوالية ونوَّه أن الأمويين قد نكلوا بالعباسيين لأنهم أبناء عمومتهم – هاشم – ومع ذلك فقد استطاع العباسيون أن يأخذوا ثأرهم من الأمويين ويحققوا نصرا عليهم ثم جهز جيشًا وجهه إلى المدينة فقتل محمد بن عبد الله وأرسل رأسه للمنصور ، ثم وجهه

ثانية الى البصرة وكان ابراهيم ابن عبد الله شقيق محمد استولى عليها فاستطاع عيسى بن موسى ان يهزمه ويلحقه بأخيه .ثم خشى المنصور من انفضاض اتباعه من حوله فجمع الخرسانيين وأخذ يلقى الحجاج فى خطبته مدافعا عن موقفه فقال " ابتعثكم الله لنا شيعة وانصارا ، فأحيا شرفنا وعزنا بكم – أهل خراسان – ودفع بحقكم أهل الباطل ، وأظهر حقنا ، واصار الينا ميراثنا عن نبينا ﷺ ، فقر الحق مقره ، وأظهر مناره وأعز انصاره ... ثم يشير إلى ما كان من خروج العلويين عليهم بعد أن صار الأمر إليهم " ظلما وحسدا منهم " وإلى أنه لم يصنع بهم بغيًا وعدوانا بل أنه استوثق من نواياهم الشريرة وسعيهم فى الفتنة .ثم تم الأمر للعباسيين الذين أسدوا حكمهم على اساسإنه حق إلهى ، أى أنهم أوصياء الله فى أرضه ، وقد صرح بذلك جعفر المنصور حين قال

" إنما سلطان الله فى أرضه " وهدفوا من وراء ذلك إلى استباحة دم كل من خرج عليهم مهما كانت صلته أونحلته او مذهبه .وأعمل العباسيون سيوفهم في العلويين واستطاع المنصور القضاء على الفرع الحسينى من العلويين فى المدينة والبصرة .

لكن فى عهد الهادى فرح العلويون بقيادة الحسين بن على بن الحسن والتف حولهم الطالبيون لكنه قتل فيها مذعة – فخ – وكانت وبالا عليالطالبين فهى أشد واقعة تعرض لها العلويون بعد كربلاء يقول أحد شعراء الشيعة : فلأبكين على الحسين بعولة وعلى الحسن:

وعلى ابن عاتكة الذى وآروه ليس بذى كفن

تركوا بفخ غدوة فى غير منزلة الوطن

كانوا كراما هيجوا لا طائشين ولا جبن

غســــــلوا المذلــــــة عنهمــــــو غســــل الثيـــاب مــــن الـــدرن

هــــدى العبــــاد بجـــــدهم فلهـــــم عـــــلى الله المنـــــــن

واستطاع إدريس بن عبد الله بن الحسن وأخوه يحى الإفلات من تلك المذبحة ففر إلى مصر فوجه له الرشيد الخليفة العباسى بعد الهادى من احتال عليه وقتله غدرا بالسم 177هـ ، وحينما وضعت أمة له حملها سماه اتباعه باسم أبيه .... ثم نشأت دولة الأدارسة فى المغرب، أما أخوه يحى ففر الى الديلم وأخذ البيعة لنفسه من أهلها، فقد كانوا مقتنعين بأحقيته فى الخلافة ، وهنا ظهر دور هام للبرامكة فقد أرسل الرشيد جيشًا بقيادة الفضل بن يحى البرمكى لكن الفضل بدهائه وحنكته استطاع أن يأخذ له الآمان من الرشيد، واستقبله هارون بحفاوة بالغة ، ولكن وقعت وشاية من أحد أبناء الزبير من أعداء الطالبيين فغدر به وحبسه ثم أطلقه "جعفر البرمكى" دون علم "هارون " فحنق عليه ،

وكان " للفضل بن سهل " يدا طولى لتمكين "المأمون " على أخيه "الأمين" فقد كان يخفى ميلًا للعلويين وكان متزعم دعوة العلويين فى خراسان "على بن موسى" من الفرع الحسينى المعروف "بعلى الرضا" وفى عام 201 هـ استطاع "سهل " ان يقنع "المأمون" بالبيعة "لعلى الرضا " من بعده وحينما علم " على الرضا" برفض الهاشميين له فى بغداد ، وخلعهم الخليفة المأمون وتوليتهم عمهم إبراهيم بن المهدى، حتى ذهب "للمأمون" وأحله من البيعة لكى لا يحدث شقاق فنفسه أبت ذلك ، فدس له المأمون خبزا مسموما فمات .

وقد صاحب الشعر تلك الأحداث فنجد من الشعراء من ساند الحكم العباسي وكان صوته الصادح، وفي الأغاني " أخبرني الحسن بن عليقال : حدثني محمد بن القاسم بن مهرويه قال: حدثني على بن الحسن الكوفي ، قال : حدثني محمد بن يحي ابن أبى مرة التغلبي "مررت بجعفر بن عفان الطائي يومًا وهو على باب منزله ،

فسلمت عليه ، فقال لي : مرحبًا يا أخـا تغلـب، اجلـس ، فجلسـت . فقـال لي: أمـا تعجب من ابن أبى حفصة لعنه الله حيث يقول:

أنـــى يكــون ولــيس ذاك بكــائن لبنـــى البنـــات وراثـــة الأعـــام

فقلت بلا والله ، إني لأتعجب منه ، وأكثر اللعن له ، فهل قلت في ذلك شيئًا؟ فقال نعم ، قلت :

لم لا يكــــون وإن ذاك لكـــــائن لبنـــي البنـــات وراثـــة الأعـــام

للبنــت نصــف كامــل مــن مالــه والعـــم مـــتروك بغـــير ســـهام

مـــا للطليـــق وللـــتراث وإنـــا صـلى الطليـق مخافـة الصمصـام [1]

فالشعراء يمنحون ويمنعون فيما لا ينبغى وهو "الخلافة" إذ يتعـاملون معهـا كإرث، بينما الخلافة مجالها الأوحد الشورى وإجماع المسلمين.

الإطار الإبداعى للحياة المبدعة

لقـد طـال التغيـير كافـة مسـتويات الحيـاة العباسـية: المسـتوى السياسـى، الاجتماعى، الإقتصادى، والفكرى، وبالتالى سُحب هذا التغيير على النتاج الفكـرى والروحى.

وقد تنازع المبدعين تياران : -(تيار القديم) – التاريخ – التقليد والإحتـذاء ، و (تيار الجديد) – الواقع – الإبداع والإبتكار ، حيث انقسم الشعراء الملتزمين لهـذا المنهج أو ذاك او سائرين على المنهجين معا ، فالملتزمين للقديم الموروث مـن طرائـق فى الآداء والتعبير يرون أن القدامى قد وصلوا إلي النماذج الرفيعة المحتذية، ولا سيما فى العصر الأموى حيث قرب عهد البداوة ، وبنمط الحياة البدوية فكان من اليسـير أن يسير الشعراء على النهج ونلاحظ أن الشعراءالأمويينأعجبوا بالشعراء الجاهليين

1الأغانى ج 10 صـ 3558

المتوافقين معهم ، فكان كل شاعر أموى يتحيز للشاعر الـذى يتفـق مـع منهجـه فى الأداء يتماشى مع نهجه فى التعبير قيل إن الفرذدق قال : امرؤ القيس أشعر النـاس ، وقال ابن خلف الأحمر : زهير أشعر الناس، وقال ذو الرمـة : لبيـد أشـعر النـاس ، وقال ابن مقبل : طرفة أشعر الناس، وقال الكميت : عمرو بن كلثوم أشعر النـاس ، وكان السير فى ركاب القدامى يتفق مع منهج الحياة ، ونظامها ، لكـن حيـنما جـاء العصر العباسى والتغيير أصاب الأنماط الحياتية فى كل شىء، والمجتمع نفسه انتقـل من طور البداوة الى إطار الحضارة والمدنية بتغيراتها الجوهرية ، نجد من الشعراء من التزم نهج القدامى، ومنهم من رفض باعتبار أنَّ طريقة الأسلاف كانت تتناسب مع نهجهم وحياتهم، أما الواقع الجديد فقد جاف تلك الطريقة وبعد عن هـذا النسـق، والمفترض أن يسبق الفنان عصره فتكون رؤيته ارهاصة لتطور مجتمعـه واستشر ـافه للمستقبل الواعد بالعلوم والفنون لا الوقوف على اطلاله ورسمه

رؤية جديدة للموضوعات الشعرية

تعددت الأذواق فى البيئة العباسية لتعدد صنوف الإبداع فقد وجـدت أنـماط متنوعة، منها من التـزم المطلـع الطلـلى القـديم أو" الخمـرى " الجديـد ، أو المطلـع الغزلى.. وهو قاسم مشترك بين القديم والجديد ومنهم من تحرر من الالتزام بمطلـع من تلكم المطالع، ومن ثم نظمـت القصـائد كـيفما اتفـق دون الاطـراد عـلى وتـيرة واحدة .

والذي لا مرية فيه أن الأغراض الشـعرية إرث يتـوارث مـن تـاريخ قـديم ، فالاغراض إما باقية متوارثة وجدت عليها تغـيرات فى الأداء والتنـاول أو أغراضـا أوجـدتها الحضـارة المسـتحدثة والواقـع المعـاش... كالشـعر التعليمـى والقصـائد المتناولة لسيرة النبى ﷺ والصحابة.

والأغراض التى وجدت فى العصر العباسى ... الوصف، المدح، الهجاء ، الغزل ، الرثاء ، وهما أغراض متوارثة لكن يد التطوير والتحديث امتدت اليها فكستها ثوب الجدة .

الوصف: أصل الأغراض الشعرية فقلما يوجد غرض شعرى لا يداخله الوصف سواء أكان وصفًا للذات أو الشعور أو للكون والموجودات، وقلما كان يوجد مستقلا بذاته بل دائما يتداخل مع غيره من الأغراض.

وفى العصر العباسى .... تعددت المرائى المبهجة – إنسان أو مدينة–، أو المحزنة – انسان او مدينة – فتأثر الشعراء بتلك المرائى أيما تأثر ؛ وبعد أن كان الوصف يدور فى إطار وصف الناقة أو الراحلة والغزلان وحمر الوحش، أو الليل والنجوم ويشغل حيز من القصيدة، نجد الشاعروقد تعرض لموضوعات جديدة فالقصور ملأيبما جد وأمتع ويشحذ القريحة ويطلق الخيال فاللسان ... وبات الوصف يشغل معظم القصيدة مهما كان غرضها حتى أن قصيدة ابن المعتز فى الخمر:

انزلت من ليل كظل حصاة ليلا كظل الرمح وهو مؤات

يشغل الوصف ثلثيها فقد امتدمن البيت الخامس إلى البيت التاسع عشر أى قبل ان ينهيها بست أبيات حيث تضمنت الأبيات وصف الطبيعة وصفًا تفصيليًا من البرق والسحاب والرياح والأمطار التى تغمر الأرض بكرمها واتخذ من ذلك مدخلا لوصف الممدوح وكرمه .. يقول ابن المعتز :

عرف الدار فحيا وناحا بعدما كانا صحا واستراحا

وفيها يقول أيضاً:

من رأى برقاً يضيءُ التماحا ثَقَبَ اللّيلَ سَناه، فَلاحا

لم يـــــزلْ يلمـــــعُ بالليـــــلِ		حتـــى خلتـــه نبـــه فيـــهِ صـــباحا

وكـــأنّ الرّعـــدَ فَحْـــلُ لِقـــاحٍ،		كلّـــما يُعجِبُـــه الـــبرقُ صـــاحَا

لم يـــدع أرضـــاً مـــن المحـــلِ		إلاّجـــادَ، أو مَـــدّ عليهـــا جَناحَـــا

و ســـــقى أطـــــلالَ هنـــــدٍ،		فأضح تيَمْرَحُ القطـرُ عَليهـا مِراحـا

ديـــماً في كـــلّ يـــومٍ ووبـــلاً،		واغتباقـــاً للنّـــدى، واصـــطِباحَا

ويقول ابن جهم واصفًا قصر من قصور المتوكل وصفًا تفصيليا دقيقـا حيـث قبة القصر التى تكلم النجـوم وتسـتمع إلى أسرارهـا، وعـن شرفاتـه التـى حليـت بالفسيفساء وتماوجت فيها الأنوار فكأنهـا فتيـات النصـارى وقـد شربـن الصـبوح وخرجن فى موكب عيد الفصح يتخطرن ويرقصـن، ثـم عـن نـافورة القصرـ التـى تندفع نحو السماء فى إصرار كأن لديها عندها ثأرا .... الخ يقول مبرزًا ذلـك كلـه في صورة:

وقبـــة مُلـــكٍ كـــأن النجـــوم		تصـــــغي إليهـــــا بأسرارهـــــا

لهـــا شرفـــات كـــأن الربيـــع		كســـاها الريـــاحين** بأنوارهـــا

نَظَمـــــنَ الفُسَـــــيفُسَ نَظـــــمَ		الحُلِيِّلِعـــونِ النِســـاءِ وَأَبكارِهـــا

فَهُـــنَّ كَمُصـــطَبِحاتٍ بَـــرَزنَ		بِفِصـــحِ النَصـــارى وَإِفطارِهـــا

فَمِـــنهُنَّ عاقِصَـــةٌ شَـــعرَها		وَمُصـــــلِحَةٌ عَقـــــدُ زُنّارِهـــــا

وَفَـــوّارَةٍ ثَأرُهـــا في السَـــماءِ		فَلَيسَـــت تُقَصّـــرُ عَـــن ثارِهـــا

تَرُدُّ عَلى المُزنِ مـا أَنزَلَـت عَـلى		الأَرضِ مِـــن صَـــوبِ مِـــدرارِها

ولعل هذه الصورة كانت أمام عين ابن المعتز حين وصف قصرا كذلك فقال:

وبنيان قصر قد علت شرفاته كصف نساء قد تربعن فى الأزر

وكما اتسع الوصف وتنوعت مجالاته، فقد اتجه نحو شكل أدائي جديد، مثل وصف الزهور ، يقول أبو بكر الصنوبري

أرأيت أحسن من عيون النرجس أم من تلاحظهنّ وسط المجلس

درٌّ تشقق عن يواقيتٍ على قضب الزمرّد فوق بسط السندس

أجفان كافورٍ حففن بأعينٍ من زعفرانٍ ناعمات الململمس

فكأنها أقمار ليل أحدقت بشموس أفقٍ فوق غصنٍ أملس

فقد رهفت المشاعر فرقت التصرفات، ورقيت سبل التواصل، فقد كان بعض المحبين يرسلون لأحبائهم ورودا مع بعض الأبيات الشعرية، لذا كثرت الأبيات الواصفة للزهور وألوانها وأنواعها وأماكنها. ثم تغيبت الصور القديمةوانقطعت صلة الشعراء بوصف بعر الآرام، ونبات الشيح ووصف الصحراء والحنطة، فالوصف الشعري عكس المرائي الموجودة.

المدح: التجربة الإجتماعية العباسية والواقع المعاش اصطبغا بالجدة والتحديث، فاتسعت الآفاق وتشعبت الرؤى والاتجاهات، وعلى الرغم من أن المدح غرض قديم إلا أن عصا التغيير أصابته فلم يلتزم الصفات المألوفة التى يمدح بها الشخص وهى التناهى فى الكرم والشجاعة ، بل اتسع المدار، وتعددت الأفلاك، وقد أدرك هذا كله الشعراء، والخلفاء ، كمادحين وممدوحين، فالخليفة يجب ان يراه الناس قائمًا باعمال الدنيا مخلصا فى إقامة الدين، فقد روى ابن المعتز ان

الشعراء اجتمعوا يومًا بباب الرشيد فسألوا الإذن فلم يؤذن لهم، ثم بدا له، فقال للحاجب: اخرج إليهم فقل لهم : من اقتدر ان يمدحنا بالدين والدنيا فى ألفاظ قليلة فليدخل فبادر ابن أبى السعلاء فاستأذن ، فقال للحاجب أدخله .. فأدخله فقال له الرشيد: **أنشدنى قولك:**

أغيثا تحمل الناقة أم تحمل هارونا ؟

فقال : أُنشدك ما اخترته وشرطته اليوم: فقال: بل أنشدنى الأبيات ، فأنشده

أغيثا تحمل الناقة أم تحمل هارونا ؟

أم الشمس أم البدر أم الدنيا ، أم الدينا ؟

ألا لا ، بل أرى كل الذى عددت مقرونا

على مفرق هارون فداه الآدميونا

فهذا الخبر يوضح لنا كيف أن الخليفة نفسه حدد لمن شاء من الشعراء أن يمدحه الأفق المعنوى الذى يحلق فيه الشاعر ، حيث تقترن رعايته للشئون الدنيوية بحفاظه على عرى الدين ، ومن قبل رفض الخليفة المنصور أن يُمدح على الطريقة القديمة ، بأن يشبه بالأسد أو البحر أو ما أشبه ذلك .

والتزم هذا المنهج الشعراء الكبار... فها هو ذا البحترى يمدح المتوكل مقرًا بأنه قائمًا بشئون الرعية ... فقد نالت به الغنى بعد العدم والهدى بعد العمى ... إضافة إلى قيامه بشئون الدين يقول:

عن أى ثغر تبتسم وبأى طرف تحتكم

فيحلق فى الأفق نفسه ، حيث يرى الخليفة قائمًا بشئون الرعية ، وأخذًا فى الوقت نفسه بأهداب الدين ، فيقول :

قــــل للخليفـــــــــة جعفــــر المتوكـــــــل بـــــــن المعتصــــــم

المرتضى ـــــ ابـــــن المجتبـــــى والمـــــنعم بـــــن المنتقــــــم

أمـــا الرعيـــة فهــــــى مـــن أمـــــان عــــدلك فى حـــــرم

يـــا بـــانى المجــــــد الـــذى قـــد كـــان قـــوض فانهـــدم

أسلـــــــم لـــــدين محمـــــــد فـــإذا ســــلمت فقـــد سلـــــم

نلنـــا الهـــدى بعـــد العمــــى بـــك والغنــــى بعــد العــــدم

والشعراء العباسيون وإن كانوا قد حادوا عن صفتى الكرم والشجاعة إلا ان المبالغة احيانا قد تغلب أشعارهم فتكون محلًا للانتقاد والذم، ويعلق المبرد على أبيات أبى نواس فى مدح الرشيد:

لقـــد اتقيـــت الله حــــق تقاتـــه وجهدت نفسك فوق جهد المتقـى

فقال: ليس هذا البيت أردت ، ولكـن ذكرتـه للـذي بعـده لأنـه معطـوف ، متصل به وهو:

وأخفت أهــل الشـــرك حتـى إنـه لتخافــك النطــف التـى لم تخلــق

هذا البيت بادى العوار جدا ، وقد رده فى مكان آخر فقال:

هــــارون الفنـــا ائـتلاف مــودة ماتــت لهــا الأحقــاد والأضــغان

حتى الذى فى الرحم لم يك صـورة لفــؤاده مــن خوفـــــه خفقـــان

وقد قال ابو نواس شيئًا من الشعر فى الأمين اتهم فيه، لإنه قال قولًا عظـيمًا لا يتكلم بمثله مسلم، وهو قوله:

تنازع الأحمدان الشبه فاشتبها خلقا وخلقا كما قد الشراكان

اثنان لا فصل للمعقول بينهما معناهما واحد والعدة اثنان

وهو يقصد بالأحمدين هنا: المحمدين: النبى محمد ﷺ ومحمدا الأمين وهكذا تصل بالشاعر المبالغة إلى حد أنه يوحد بينهما فينزلق إلى كثير من التطاول والغلو الغير مقبول.وروى المرزبانى: "إن على بن الجهم لما أنشد المتوكل قصيدته التى يمدحه فيها بقوله:

وصاح إبليس بأصحابه حل بنا ما لم نزل نحذر

مالى وللغر بنى هاشم فى كل دهر منهم منذر

عظم ذلك على أبى عبد الله أحمد بن أبى دؤاد فأطرق، فقال ابن الجهم: يا أبا عبد الله، ما سمعت مديحاً للخلفاء مثل هذا ؟ قال: لا ، ولا غيرى، ولا توهمت ان أحدًا يجترئ عليه مثله " والجرأة التى اجترأها ابن الجهم ولم يتوهمها أبو دؤاد تصدر عن انسان هى أن هذا الشاعر جعل بنى العباس كالأنبياء المرسلين المبشرين والمنذرين، الذين ظهروا الواحد بعد الآخر فى أحقاب متفاوتة من الزمن. ولكن المدح ما اقتضته الظروف وكان معتدلا وجديداكمدح الكتاب للوزراء او الدواوين فيمدحون بالفطنة والحصافة وبعد النظر، وبراعة القول وقد مدح البحترى محمد بن عبد الله الملك الزيات الذى كان كاتبًا ثم صار وزيراً فقال:

بعض هذا العتاب والتفنيد ليس ذم الوفاء بالمحمود

ثم يقول: لتفننت فى الكتابة حتى عطل الناس فن عبدالحميد

فى نظام من البلاغة ما شك امرؤ أنه نظام فريد

وبديع كأنه الزهر الضاحك فى رونق الربيع الجديد

مشـــــرق فى جوانـــب الســـمع   مــا يخلقــه عــوده عــلى المســتعيد

وركـبن الفـظ القريـب فـأدركن   بـــه غايـــة المـــــــراد البعيـــد

ويقول فى مدح سليمان بن وهب كاتب المأمون الذى صـار وزيًـرا للمهتـدى والمعتمد:

كـــأن آراءه والحــــــزم يتبعهــا   تريــه كــل خفــى وهــو إعــلان

ما غاب عن عينه فالقلب يكلـؤه   وأن تــنم عينــه فالقلــب يقظــان

الهجـــاء: تنوع الهجاء نتيجة لتنوع الهاجين والمهجووين فقد يوغـل الشـاعر فى السب والقذف، وينزل بهجائه دركات كثيرة فى التسـفل تسـتوجب إقامـة حـد، وهذا عند الشعراء الملىء نفوسهم البذاءة،وسهل على ألسنتهم الفحش، بلا ورع ولا وازع، وقد يكون هجاؤه نوعًا من السخرية وإثارة الضحك على المهجـو ، لإطـلاق نكتة لاذعة أو لتصوير ضاحك - كاريكاتورى له – وهـو يتطلـب مخيلـة خصـبة ، وفطنة، وذكاء، مغلفون بخفة ظل تجعل المتلقـى يضـحك والأشـعار تنتشرـ، فمـن الشعر البالغ الحد المتناهى فى الفحش قول عمرو بن المبارك فى رجل سبه:

الحمـــد لله العـــلى ومـــن   لـــــه كــــل المحامــــــد

أيســبنى رجــل عليــه مــن   الـــدعارة ألـــف شـــاهد

مـــاذا أقـــول لمـــن لـــه   فى كــل عضــو الــف والــد

وفاقه أبو النواس حين قال:

يــا نــافع يــا ابــن الفــاجرة   يـــــا ســـــيد المــــؤاجرة

يــا حلـــــف كـــل داعـــر   وزوج كـــــــل عـــــــاهرة

مــا امـــة تملكـــها   **او حـــرة بطـــاهرة**

تجـــارة أحـــدثتها   **فى الكشـح غـير بـائرة**

لـــو دخلـــت عفيفـــة   **بيتـــك صـــارت فـــاجرة**

حتـــى متـــى ترتـــع فى   **الخســـران يـا ابـن الخـاسرة**

حتى إن الهجاء انتشـر فى أثناء الصـراع العقدى بشكل كبير، وبرع أبو نواس فى تخلل الحالات والأوتار الشعورية، وكان يتقن رصد الانفعالات الخاصة ويصور دخوله على أحد البخلاء فرآه يناغى طعامه – خبز وسمك – وكأنه ينـاغى ولـده ، فما كاد يرى أبا نواس حتى اكتئب وحنـى رأسـه وبكـى خوفـا وترهبًـا ان يشـاركه طعامه فلما علم أنه صائم ضحك وابتسم:

رأيــت الفضــل مكتئبــا   **ينــاغى الخبـز والســمكا**

فقطـب حـين أبصـرنى   **ونكــس رأســه وبكــى**

فلمـــا أن حلفـــت لـــه   **بأنـــى صـائم ضـحكا**

ثم يرصد صورة بخيلا آخرويصورها مبدعًا:

رغيف سـعيد عنـده عـدل نفسـه   **يقلبــه طـــورا فطـــورا يلاعبـــه**

ويخرجــه مــن كمــه فيشمـــه   **ويجلســه فى حجــره ويخاطبـــه**

وإن جاء المسـكين يطلـب فضـله   **فقـــد ثكلتـــه أمـــه وأقاربـــه**

يكر عليه السوط من كـل جانـب   **وتكســـر رجـــلاه وينتـف شـاربه**

وقد يلجأ أبو نواس للهجاء تصحيفا فيعتمد على تصحيف الكلمات:

صـــحفت أمــــك إذ   **ســـمتك فى المهــد أبانـــا**

صـــيرت بـــاء مكـــان التـــاء تصـــــحيفا عيـــانــــــا

قـــد علمنـــا مـــا أرادت لم تـــــرد إلا أتـانــــــا

فهكذا تلاعب أبو نواس باسم أبان فزعم أن أمه حين سمته كانت تقصد كلمة أتان أى انثى الحمار - ولكنها صحفت كما يصحف الكاتب أحيان فجعلت مكان التاء باء – وهكذا ، بضربة تصحيف صغيرة جعل الشاعر حمارًا ، وقد استفاض هذا اللون من الهجاء وفى غيره فيما بعد ، بخاصة فى العصور المتأخرة .وعلى الرغم من اشتهار بشار بالهجاء المقذع الا انه كان يعلم فى قرارة نفسه أنه طالما لم يسب عرضًا او يطعن نسبًا ... فلم يخطى ء فقد روى ابن المعتز : "ان المهدى لما قتل بشار ندم على قتله ، وأحب أن شيئا يتعلق به ، فبعث إلى كتبه فأحضرها ، وأمر بتفتيشها طمعًا فى أن يجد فيها شيئا مما حزبه عليه ، فلم يجد من ذلك شيئا ومر بطومار مختوم فظن أن فيه شيئا ، فأمر بنشره ، فإذا فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم: إنى أردت أن أهجو آل سليمان بن عبد الله بن العباس، فذكرت قرابتهم من رسول الله ﷺ وآله، فمنعنى ذلك من هجومهم ووهبت جرمهم لله عز وجل وقد قلت بيتين لم أذكر فيهما عرضًا ولم أقدح فى دين وهما:

دينـــا آل ســـليمان ودرهمـــــهم كالبـــابليين شـــدا بالعفـــــاريت

لا يوجـدان ولا يرجـى لقاؤهمـا كـما سـمعت بهـاروت ومـاروت

سواء أكانت القصة حقيقية أم لا؟ فقد أراد أن يهجو فابتعد عن الطعن فى الدين أو سب العرض، وقد يمدح الشاعر ممدوحاً ما، ثم يقوم إذا تبدلت الأحوال واختلفت العصور بهجائه وسبه كما كان يفعل قديمًا بدخول الشاعر على الممدوح ومعه قصيدة مدح ، وقدح ، فإذغ استجيب له مدح .. وإلا فالهجاء مصيره.

الغـزل: فى العصر العباسى الثانى وما تلاه من عصـور نضـبت المشـاعر وجفت الأحاسيس، فأنشأ طائفة فى الشام والعراق نوعًا من الغزل الصناعى الـذى لا يقف خلفه قلب ينبض، ولا ينطلق من إسار حب جارف، فجاء شعرهم صناعيًا جافًا قاسيًا ، ولكن الأسوأ منه شعر تبناه مجموعة من المقلـدين للنزعـة النواسـية فى الشام والعراق، حيث كثر فى شعرهم هجر القول ، فاحش الغزل ، مرذول المجون ، فقد نقل العباسيون دار الخلافة إلى العراق فى القرن الثانى الهجرى، لاسباب مختلفـة والتف حولهم الأغنياء والأمراء ، وامتزج بحكـم الجـوار أفـراد وحضـارة الغالـب والمغلوب، وصارت عاصمة الخلافة وغيرهـا مـن العواصـم دار جـذب لأجنـاس مختلفة فكانت هناك الأعراق المتعددة ، الفارسـى ، الرومـى ، النبطـى ، السـامرى ، التركى ، الماجوسى ، البوذى ، الصقلى ، الهندى ، وقامت علاقات انسانية مشتركة ، بسيول الوافـدين الممتلئـين بحضـارات أممهـم وعـاداتهم فسـادت بعـض المفـاهيم وانحسرت مفاهيم اخرى ... وتبوأت المرأة مكانتها وسالت فى شعاب الدولة الفتية وتناقلت بين بيوت الكبراء والتجار والأمراء ثم تصدرت سدة الخلافة أمًا وزوجًـة وابنًة وصار لها من المكانة ما لاينازع .ونجد هنا النساء صنفين : الحرائـر : ولهـن مـا لهن من التبجيل والاحترام والقواعد التـى يلتزمنهـا ويلتزمهـا الشـعراء المتحـدثين عنهن فيتحدثوا فى اطار انهن حرائر منتسبات إلى قبائل فيعى توابع ذلك ويراعيـه فى نظمه .

والجوارى: وهن الصنف الأخر الذى غير مسـار الحيـاة فى الدولـة العباسـية وإضافة الجديد على مختلف النواحى ظرفًا ودعابًة، بهجة وانسًا، فقد أسرف الخلفـاء فى اقتناء الجوارى ... " كان للمتوكل أربعـة آلاف جاريـة ، وللرشـيد زهـاء ألفـى جارية من المغنيات ،وانتشرت أماكن بيعهن حتى فى كل حاضرة سوق ، وفى بغداد شارع يسمى دار الرقيق " وكان هذا الوصف محببًا إلى الرجال يلقى إقبالا لملوحتهن

وظرفهن وجمالهن، ولا سيما أن الكثيرات منهن كانـت مـن ذوات الثقافـة، ويجـدن مهنا ذات دلالة خاصة مثل العزف على الالآت من عـود ونـاى وزمـر ودف وهـى ذات دلالة باعثة على المجون واللهو واغتراف الملذات ، لـذا كثـر وجـود القيـان فى الحوانيت التى تبيع الخمر ودور اللهو " انكشفت الجـوارى عـلى الرجـال يرقصـن ويلهون مما جرأ الشعراء، ولم يجدوا حرجا من وصف محاسنهن،أو دنو الرجـال مـن حسنهن فكان الشعراء ينظرون الى الشعر القديم والشعراء الباكين ... ساخرين لأن الزمان قد أسعدهم ويسر لهم التواصل مع معشوقاتهم ووصلهم .

ولاشك ان إطلالة الحضارة الجديـدة غـيرت فى السـلوك البشرـى آنـذاك .. فهاهم الخلفاء يتسابقون فى اقتناء وشراء الجوارى المميزات فى العقل والفكر يتربعن فى القصور ويشغلن قصور الخلافة ، فالحدائق الغناء ، والورود والرياحين، اتاحت للشعراء أن ينظموا أبياتا حسان ينضح منها أريج المسك وانتشرت الجوارى، وقوين فى الوضعية الإجتماعية حتى تسلمن مفـاتيح القلـوب والألبـاب ، وتبـدت شـوكة الغالب فحينما تغلب فئة فئة أخرى تسرى فى عـروقهما شرايـين التـأثير والتـأثر مـع بعضهما البعض ... فقد تبدل العصر من عصر عربى خالص – العصر الاموى – الى عصر عربى فارسى ثم عصر تركى عربى وواكب الشعر والغـزل خاصـة التيـارات المختلفة ... فظهر المحافظون .. والمتجاوزون حتى اسـتغاث المصـلحون بالخليفـة ليوقف هجمة المتجاوزين – كما استجار واصل بن عطاء بالمهدي من تجاوز بشـار – لكن ظل الغزل يتنازعه التياران وعاش المصلحون والمفسدون بين النصر والإنعزال زهوًا وخفوتًا ... وتأثرت المعانى والاخيلة بشكل بين .. وداخل الغزل الكثـير مـن آداب الفرس ... فى ألفاظهم، وتـراكيبهم، مواسـمهم ، وأعيـادهم ، وتقاليـدهم، وعاداتهم ، وتخطى الغزل المرأة فصار كل ما يتعلق بها يصح أن يكون موضعا للغزل مثل الخيمة والبساتين والورود والرياحين بعد أن ظلت حبيسـة قرونًـا طويلـة بـين الإبل والشيح والقيسوم .

ونجد اختلاف النظرة للغزل فما كان شهيرا موجودا فى العصر الجاهلى صار مطموسا وأقل وجودا فى العصر الإسلامى حيث الُرقبة الذاتية او الخارجية قوية عنيفة، فسعى الشاعر إلى الوحدة، وعد خلوه بالمرأة انتصارًا ولقاءه بها فتحًا وزاد لهائمون بالمرأة المقتحمون دنياها.

ومن النوع الأول قول بشار:

يا قوم أذنى لبعض الحى عاشقة	**والأذن تعشق قبل العين أحياناً**
قالوا: بمن لا ترى تهذى فقلت لهم	**الأذن كالعين توفى القلب ما كانا**
هل من دواء لمشغوف بجارية	**يلقى بلقيانها روحا وريحان**

ويقول أبو نواس عن محبوبته جنان:

دع جنانا وجهًا	**عنك إن كنت عاقلاً**
لا تذكر بنفسك المو	**ت إن كان غافلاً**
أنت إن لم تمت بها	**اللمام لم تبح قابلاً**
رحمت نفسك التى	**ذهبت عنك باطلاً**

ولعله أراد أن يذكر أن هيامه بها وموته يوشك أن يكون بمثل العذريين.

يتنازع الغزل تياران غزل يعلق فيه الشاعر بالصفات المعنوية فيعجب بها ويهيم، وغزل يرتبط بالصفات الجسدية وهذان النوعان إرث حضارى ورصيد يتكأ عليه الشعراء العباسيون يقول ربيعة الرقى – فى عهد الرشيد – متأثرا بمنهجية عمر بن أبى ربيعة وسائرا على منواله:

أيهـــا النـــاس ذرونـــــــى   لســـت مــــن أهـــل الفـــلاح

أنـــا انســـان معنـــــــى   بهـــوى المـــرض الصـــحاح

أنـــا زيـــــر للغوانـــــى   وأخـــــــو لهـــــو وراح

غيرأنـــــى لســـــت أغشـــى   أبـــداً بــــاب الســـــفاح

ويشـــهدأن الكـــرام قبلـــه أحبـــوا   فـــــلا لـــــوم عليـــــه ولا ذم

كـــرام النـــاس قـــبلى قـــد أحبـــوا   كـــرائمهم واحبـــبن الكرامـــا

جميـــل والكثيـــــر قـــد أحبـــا   وعـــروة مـــن هـــؤلاء لاقـــى حمامـــا

هـــم ســـنوا الهـــوى والحـــب قـــبلى   ومـــا ألفـــى لهـــم فى النـــاس ذامـــا

والحق ظل الغزل العفيف الطاهر حيًا بجانـب النـوع الأخر الـذي يثـور عـلى الجسدى، غزل قوي حار لا يعرف المتاع المادي ، ولا اقتطاف زهرات الحب وثماره، وإنما يعرفوا المحرقة كما يعرف الحرمان والشقاء، مهما أمَّل صاحبه ، ومهمااستعطف، ومهما تضرع فليس هنـاك إلاوغـلا تجـرع الغصـص ، واحـتمال الأهـوال والآلام، وزاحم الغزل العفيف في الإبداع الغزل المادى يقول ابن الرومي:

أعانقها والـنفس بعـد مشـوقة   إليهـا، وهـل بعـد العنـاق تـدان

وألثم فاهًا كـي تـزول حـرارتي   فيشـــتد مـــا ألقـــى مـــن الهـــيمان

كـأن فـؤاديليس يشـفى غليلـه   سوى أن يرى الروحين يمتزجـان

فالعناق لا يروى ظمأه، وفي قلبه جذوة لا تطفئها القبلات بل تزيـدها تلظيًـا واشتعالاً، ويصور العناق في صور لطيفة، ويسوق معانى مستحدثة..

طالمـــا التفَّـــتْ إلى الصبـــــ ح لنـــــا ســـــاق بســــاق

في قفـــــاع مــــن لثـــــام وإزار مــــــن عنـــــاق

فقد كسيا الليل كله بكسوة حسية، وهو تصوير مغاير للتصوير العذري ومن تصويره الحسي أيضًا:

صــدور فــوقهن حقــاق عـــاج وحــــلي زانـــه حســـن اتســـاق

يقـــول النـــاظرون إذا رأوهـــا أهــذا الحَــلي مــن هــذي الحقــاف

وفى صورة أخرى يصور أبو العباس الناشى بكاء إحدى صواحبه، وقد أحست أن فراقه لها سيطول مده فقال وهو محزون الفؤاد:

كـــأن الـــدموع عـــلى خــدها بقيــــة طـــل عــــلى جُلنـــــار

أما عن الجانب الغزلي العفيف والتدله في الحب والشغوف بالمعنوي فمنه قول الحلاج:

أنت بين الشغاف والقلب تجري مثـل جـري الـدموع مـن أجفـاني

وتحـل الضـمير جـوف فـؤادي كحـــلول الأرواح فـــي الأبـــدان

وحينما ظهر ابن الفارض 577هـ – 633 هـ كانت له رائعة نظم ، تنظم السلوك فى العشق الإلهى:

ولقدْ خلوتُ مـعَ الحبيـبِ وبيننـا سِرٌّ أرَقّ مِـــنَ النّســـيمِ، إذا سرَى

وأبـــاحَ طــرفي نظــرةً أمَّلتهـــا فغـدوتُ معروفـاً وكنـتُ منكَّـراً

فدهشـــتُ بـينَ جمالـهِ وجــلالهِ وغـدا لسـانُ الحـالِ عنـي مخـبراً

فـأدِرْ لِحاظَـكَ في مَحاسِـن وَجْهِـهِ تَلْقَى جَميـعَ الُحسْـنِ، فيـهِ، مُصَـوَّراً

لوْ أنّ كُلّ الحُسْنِ يكمُـلُ صُـورَةً　　وراَهُ كـــانَ مهـــلَّلاً ومكبِّـــرَ

وظهرت ظاهرتان على النقيض قد يندرجا او يرتبطا بـالغزل ظـاهرة الغـزل بالغلمان .... ورائدهاأبو نواس حيث خلع كل الصفات المحببة للأنثى على الغـلام، لكن لاستخدامه ضمير الذكر اكتشف الأمر ..

قــل لــذى الطــرف الخلــوب　　ولــــذى الوجـــه الغضـــوب

ولمـــن ثنــــى إليـــــه　　الحســـن أعنـــاق القلـــوب

يـــا قضيـــــب البـــــان　　يهتــــز عـــلى دعــص كثيـــب

قـــد رضـــينا بســـــلام　　أو كـــــلام مـــــن قريـــــب

فـــبروح القــــدس عيســـى　　وبتعظيـــــــم الصليـــــــب

قــــف اذا جـــئت إليـــنـــا　　ثـــم ســـلم يـــا حبيـــبـــى

فهذه الصفات التى وصف بها الغلام هنا كلها من الصفات التقليدية للمرأة، الكثيرة التردد فى الشعر منذ العصر الجاهلى ومثل ذلك قوله أيضاً:

لبــق القـــد لذيـــــذ المعتنـــق　　يشـــبه البـــدر اذا البـــدر اتســـق

مثقـــل الـــردف اذا ولى وحكـــى　　موثقـــا فى القيـــد يمشـــى فى زلـــق

وإذا أقبـــل كـــادت أعيـــــن　　نحـــــوه تجـــرح فيـــه بالحـــدق

وهـــو فى عينــــى جديـــد دائـــمًا　　وســـواه الـــدهر فى عينـــى خلـــق

وهى تجربة جديـدة عـلى المسـتوى الانسـانى فى الشـعر العباسـى ، وظـاهرة العشق الالهى ... فقد تطور الزهـد فى العصرـ العباسـى وظهـر مـن يسـتخدم لغـة المحبين كرمز للحديث الإلهى وأول من فعل ذلك ذو النـون المصرـى ت 246هــ،

أبو اليزيد البسطامى ت 261هـ ، الحسين بن منصور الحلاج ت 309. فالألفاظ التى استخدموها وقاموسهم الشعرى هو المستخدم فى الغزل لكن هو غزل رامزاً للفناء فى المحبوب، يقول ذو النون المؤسس لمبدأ المتصوفة:

أموت وما ماتت اليك صبابتي ولا قضيت من صدق حبك اوطاري

تحمل قلبي فيك ما لا أبثه وإن طال سقمي فيك أو طال اضراري

اللغة الشعرية بين القديم والجديد

واللغة هى قوام التعبير بها ينتقل الفكر من مجرد تهويمات وخيالات فى العقل الى أصوات مسموعة تستطيع أن تحكم عليها جودة أو رداءة، حسنً أو قبحًا .

تأثرت اللغة العربية بهذا التطور تأثرا كبيرا وظهرت فيها ألفاظ وتعبيرات مليحة طريفة لم تك معروفة من قبل ، وتخلصت من الألفاظ الجافة وما تبقى من ألفاظ غريبة وحوشية، والحق أن ذلك كان ملحوظا فى نهاية العصر الأموى حيث أقيمت المناظرات فى حضور الجمع الغفير من الناس ..إذ ازدهر التطور اللغوى فى العصر العباسى نتيجة لازدهار العلوم والمعارف ، وقد استحدث أسلوب مولد جديد أسلوب يحتفظ للغة بكل مقوماتها ، كما يحتفظ بالوضوح والبعد عن الألفاظ الغامضة والمعانى المبهمة ، بل انه ليحرص على الآداء البليغ، بحيث يروق المتكلم والكاتب والمترجم والسامع بعذوبة منطقه، إضافة إلى تلذذ الأذان حين تستمع اليه كما يلذ العقول والقلوب.

وقد قامت اللغة في هذا العصر على هجر كثير من الألفاظ البدوية الحوشية الجافة التى تنبو على ذوق أهل الحاضرة كما قام على الإرتفاع عن الألفاظ العامية المبتذلة ، مع العناية بفصاحة اللفظ وجزالته ورصانته والملائمة الدقيقة بين الكلمة

والكلمة فى الجرس الصوتى ، وبذلك لم يقف عند الأداء الفصيح فحسب ،إذ اتخذ لنفسه أصولا بيانية تشيع فيه الرونق والجمال .

واللغة هى المعين الذى يحوى الموروث جيده ورديئه ، ويضاف إليها التعابير الجديدة سواء أكانت جيدة أم رديئة، فهى أداة الفن القولى والتى تأتى وفق نسق ما دالًا على قائله فالأبنية اللغوية والوسائل التعبيرية دالة على صاحبها فلكل طريقته ولكل آليات تعبيره ... واللغة لا تستجيب للتغيير الطفرى مرة واحدة بل يمر التغيير فيها بمراحل انتقالية قد تكون بطيئة لحد كبير، ولكنها تكتسب وتتطور بمداومة الاطلاع والنظر ، وظلت البادية هى أصل اللغة ومصدرها والحاضرة هى فرعها المستعمل لها ......

وقد سئل العتابى الشاعر وهو ولد " عمرو بن أم كلثوم " عن سر إقباله على لغة العجم والأخذ منها فقال " اللغة لنا والمعانى لهم " أى أن طرائق الآداء تحمل الحضارات ، ونسق الحياة والمرائى، وهى تتسم بالجدة ، أما المعانى التى خاض فيها القدامى فهى موروثات انسانية ملك للجميع .

وقد عبر الجاحظ – المتأثر بالحياة الجديدة – مشيدًا باللفظ البدوى الأصيل يقول " ليس فى الأرض كلام هو أمتع ولا أأنق ، ولا ألذ فى الأسماع ، ولا أشد اتصالاً بالعقول السليمة ولا أفتق للسان ، ولا أجود تقويمًا للبيان ، من طول استماع حديث الأعراب العقلاء الفصحاء والعلماء البلغاء "

ولكن شعراء العصر على رغم من محاصرتهم بقيم وتقاليد فتية ثبتت بمرور الزمن تأكيدًا وترسيخًا .. إلا أنَّ الكثيرين رفضوا التنفس برئة القدامى .. وظلوا يجددوا ويعدلوا فى الموروث مستجيبين لذوق العصر وفى الموشح

" أخبرنى يوسف بن يحى بن على المنجم عن أبيه قال : حدثنى على بن مهدى قال: حدثنى أبو حاتم السجستانى قال : قلت للأصمعى : أبشار أشعر أم مروان؟

(يعنى مروان بن أبى حفصة) فقال : بشار أشعرهما قلت : وكيف ذلك؟ قـال: لأن مروان سلك طريقا كثر سلاكه فلم يلحق بمن تقدمـه ، وإن بشـار سـلك طريقـاً لم يسلكه أحد فانفرد به وأحسن فيه ، وهو أكثر فنون الشعر ، وأقـوى عـلى التصرـف وأغزر وأكثر بديعًا ومروان اخذ بمسالك الأوائل .فهم وإن قلدوا القدماء إلا أنهـم لم يستطيعوا محاكاتهم وقصروا عنهم إلا أنَّ" بشار فقد انتمى لواقعه يشتق معانيه من الواقع الحضارى المعاش ، بأفقه الواسع ، ومعطياته المتجـددة، وقـد رفـض خلـف الأحمر رؤية أبا منذر لشعره من أنه يحاكى القديم لأنه حـتما سيقصرـ عـنهم . . فقـد حاول أبو منذر ومن لف لفه أن يعيش فى إطار المـوروث يسـتحييالقديم ، ويطـرح الحديث .. لكنه لم يحز سبقًا فالقديم متميز فى إطاره الزمـانى ،والمكـانى ، والحيـاتي فإذا ما طرح فى الحديث أثار استفهامًا .. وقد نص على ذلك أبو العتاهية حين قـال : إن كنت أردت بشعرك العجاج، وروؤبه فما صنعت شيئا، وإن كنـت ، أردت شـعر أهل زمانك فما أخذت مأخذهم .. أرأيت قولك ومن عاداك لاقى المرمريسا

أى شيء " المرمريس" ففى تعليق أبى العتاهية هـذا عـلى منحـى ابـن منـذر الشعرى إدراك سليم لحقيقة أنَّ محاكـاة الأقـدمين لـن تضـيف شـيئا ،وأنَّ العصـــر يتطلب من الشاعر الذى يعيش فيه الأخلاص له ، لا إلى أى عصر مضى .

وبـذلك نجـد أن الخلفـاء كـانوا يؤكـدون ضرورة مواكبـة العصـــر وعـدم الالتصاق بالقديم والتحلل من الجديد ، فحينما مدح أبو الخطاب البهدلى " الخليفـة موسى الهادى " منتهجا فى مدحه نهج القدامى معنى وأداء .... ففى البدايـة حشـد ألفاظًا وتعبيرات غريبة وعرة ثم أفاض فى ذكر صفات الأسـد ، وكيـف ان خليفتـه أشجع من الأسد وهى معانى قديمة مستهلكة يقول:

مــاذا يهيجــك مـــن دار بمحنيـــة ... كــالبرد غــير منهــا الجــدة العصـــر

عفـــت معارفهـــا ريـــح تنســـقها ... حتـــى كـــأن باقيـــا رســـمها ســـطر

أزرى بجــدتها بعــدى وغيرهــا هــوج الريــاح التــى تغــدو وتبتكــر

دار لواضــحة الخــدين ناعمــة غرثــى الوشــاح لهــا فى دلهــا خفــر

مــا مخــدر خــدد مستأســد أســد ضــبارم خــادر ذو صــولة زئــر

غضــنفر غضــف قرضــابة ثقــف مســترعب لقلــوب النــاس مصــطبر

ذو بــرثن شرت ضــخم مــزوره خبعــثن الخلــق فى أخلاقــه زعــر

جــاب الشراسـيف رحـب الجـوف مفترس عند التجاول للأقران مهتصـر

عفرنس أهـرت الشـدقين ذو حنـق للقــرن عنــد لقــا الأقــران مقتســر

جهــم المحيــا همــوس، لا ينهنــه صــوت الرجــال ولا للزجــر ينزجــر

ببــالغ عشــر عشــر مــن شــجاعته إذا تنازلــت الأبطــال واشــتجروا

بــل انــت أجــرأ منــه فى تقدمــه وأنت أقــدم منــه حــين يجــترأ ... إلــخ

وقد يلجأ الشاعر الى النهج القديم، لكي يضفى عليه جدة وحضـارة فحينـما مدح أبوتمام الخليفة أحمد بن المعتصم مشبها له بشخصيات تعد رمـوزاً عـلى بعـض القيم قائلاً:

إقــدام عمــرو فى ســماحة حــاتم فى حلــم أحنــف فى ذكــاء إيــاس

نفر بعض الحضور وأبو الإيـاب والـردة التعبيريـة، فالعصــر غـير العصــر والحياة تختلف عن الحياة، وطالبوه بمواكبة العصر قائلين: أما تخزى؟ تشبه أحمد بـن المعتصم، وهو فى بيت الخلافة وبيت هاشم بهؤلاء الأعراب؟ فزاد فيهـا بعـد ذلـك قوله:

لا تنكــروا ضربــى لــه مــن دونــه مــثلاً شروداً فى النــدى والبــاس

فـــالله قـــد ضرب الأقـــل لنـــوره   مـــثلاً عـــن المشـــكاة والنـــبراس

فقد طالبه المبدعون والنقاد بلبس عباءة العصر، والتعبير فى إطارها مما دفعه إلى هذا الإعتذار المقنع، وبعد أن أنشد قصيدته؛ وأعطاها لإحدهم لم يجد هذين البيتين في القصيدة، مما يدل على حدة قريحته، وذكاءه، وفطنته وهناك تيار من مشجعى القديم كان يكيل النقد للمبدعين المحدثين رافضاً طريقة أدائهم ومنهجهم، سأل ابن الأعرابى الراوية العلامة أبا برزة الأعرابى – أحد بنى قيس بن ثعلبة – أيعجبك قول أبو العتاهية:

ألا يـــا عتبـــة الســـاعة   أمـــوت الســـاعة الســـاعة

فقال: والله ما يعجبنى! وفى رواية أخرى قال الأعرابى: لا والله، ولكنه يغمنى.

ولقى ابن المنذر أبا العتاهية: كم تقول فى اليوم؟ قال ربما قلت عشرين وأكثر وربما أقول خمسة أو ستة .. فقال له أبو العتاهية: لكنى لو أشاء أن أقول ألف بيت لقلت .. قال ابن المنذر لأبى العتاهية: أنا أقول مثل قولى:

هل لشىء فـات مـن مـردود   أو لحـى مؤمـل مـن خلـود

حتى أنشده القصيدة – وأنت تقول:

ألا يـــا عتبـــة الســـاعة   أمـــوت الســـاعة الســـاعة

وتقول: إن الدنيا قـد غرتنـا   واســـتعلتنا واســـتلهتنا

لســـنا نـــدرى مـــا فرطنـــا   فيهـــا إلا مـــا قـــدمنا

ولو رضيت أن أقول مثل هذا لأكثرت. وقد ارتضى كثير من المحدثين النهج الإبداعي الحديث، ليس عزوفًا عن منهج الأقدمين، وإنما طلبًا للتجديد

ومسايرة للعصر، وقد رووا أن بشارًا حضر يومًا مجلس عقبة بن سلم الهنائى، وحضر المجلس عقبة بن رؤية بن العجاج الذى أنشد عقبة بن سلم أرجوزة يمدحه فيها ، فأحسن بشار محضره ، وأقبل يستحسن أرجوزته فلما فرغ من الشعر التفت إلى بشار وقال: يا أبا معاذ، هذا طراز لا تحسنه أنت ولا نظراؤك .. فغضب بشار وقال: ألى تقول هذا؟ والله إنى أرجز منك ومن أبيك ومن جدك، ثم غدا على عقبة بن سلم بأرجوزته الدالية، التى يقول في مستهلها:

يا طلل الحى بذات الصمد بالله خبر كيف كنت بعدى

وفيها يقول أيضاً:

الحر يلحى والعصا للعبد وليس للملحف مثل الرد

وصاحب كالدمل الممد حملته فى رقعة من جلدى

والحق أن الشاعر العباسى كان كثيراً ما يحرص على الصدق وأن يعبر عما يريد وقتما يريد، فقد رأى أبا نواس الفروسية فى ثوب عباسى قشيب ... فزاوج بين الفروسيةوالمجون فيصرخ قائلاً:

يا بشر ما لى والسيف والحرب وإن نجمى لله والطرب

مما يدل على تغيير قيم الأشياء فى نظر البعض من خلال منظور حضارى جديد لكن هذا لا ينفى أن المعايير الأخلاقية المختلفة كانت موجودة عند البعض بدليل وجود فارس السيف فارس الكلمة المتنبى.

ولاح في الأفق اتجاه التزام واقعية التجربة الشعرية ...حيث ظل المبدعون منقسمون فى التفاصيل والإجمال؛ فقد رأى البعض منهم ضرورة التزام المطالع الطللية ... ذكر الربع والأصحاب والأماكن التى درست ... ورأى أخرون حل أيديهم وإراحة أذهانهم من تلك التقاليد، وضرورة أن يعبر الشاعر عن قضاياه

اليومية ومشاكله المعيشية وأيهما أقوى فى احساسه وأيهما أجذب فى تعلقه بها وأيهما ألصق بنفسه فى حديثه عنها، فعقد أبو نواس موازنة صريحة بين ذلك حين قال:

أحسن من منزل بذى قار — منزل خمارة بالأنبار

شم ريحانة ونرجسه — أحسن من أينق بأكوار

وعشرة للقيان فى دعة — مع رشأ عاقد لزنار

ونقر عود إذا ترجعه — بنان رود الشباب معطار

أحسن عندى من أم ناجية — وأم عمرو ، وأم عمار

ويطيل أبو نواس فى التفصيل يبين ما كان فعبر عنه ، وما هو كائن فيحق له التعبير عنه.

أحسن من وصف دارس الدمن — ومن حمام يبكى على فنن

ومن ديار عفت معالمها — ريحانة ركبت على أذن

فى روضة بالنبات يانعة — قد حفها كل نير حسن

ويبدوا أن مهاجمة المطالع الطللية كانت تقف ورائها وجهة نظر لها دوافعها فبينما يرى الكثيرون ضرورة التزام المطلع الطللى كإعلان قوى عن الهوية العربية حيث إنها هوجمت من أكثرية من الموالى، الذين نظروا إليها نظرة استهزاء واستغلال حتى اتهموا من يبدأ قصيدته بالحديث عن الطلول بأنه يتوارى خلف تلك العادة ليخفي عيًا عنده؛ وقلة فهم وإدراك كما قال أبو نواس:

صفة الطلول بلاغة القدم — فاجعل صفاتك لابنة الكرم

وعلى الرغم من ان بشار هو رأس المجددين وأول من تزعم تلك الحركة لكنه قال:

كيف يبكي لمحبس فى طلول من سيبكى لحبس يوم طويل

إن فى البعث والحساب لشغلاَعن وقوف برسم دار محيل

فقد قصد تفعيل مبدأ اسلاميا آلا وهو أن لا ينشغل الإنسان بما سيأتى وما سيحدث له، وهذه الدعوة للأطمئنانلها نظرة ذات دلالة نفسية ،واعتقادية، فالمعروف أن القلق والذعر المسيطران على الإنسان قبل الإسلام دفعاه للإحتماء بالذكريات باحثًا عن الطمأنينة فيجد في مذخوره ما يبث فيه الهدءة لكن ذلك كان يحدث قبل الإسلام ، لكن بمجيء الاسلام لابد أن يتبدد الخوف والقلق لحلول طمأنينة الدين فقد علم المسلم أنه لا تيه بعد الموت ، فيلقى الانسان فى غياهب وتيه المجهول بل هناك بعث فثواب أو عقاب كل حسب ما قدم فيجب أن يوجه فكره الى ما ينتظره، فيكون قادراً ويعمل على طمأنة نفسه بحسن العمل لا عاجزا أمام فكرة ظواهر الكون الكبرى التى كانت سائرة أمام الجاهلى القديم والتمسك بها يُعد ردة تاريخية ، ونجد أن الشاعر كان ينطلق على الطمع والرجاء أو لغيرهما، لكن غريزة الطمع كانت محركا أساسيًا تدفعه للتجويد والإشادة ..

لذا أكثر المدح حتى أن أبا نواس الذى كان يأنف المدح " كان يهرب من الخلفاء والملوك بجهده ويلام على ذلك فيقول: إنما يصبر على مجالسة هؤلاء الفحول المنقطعون الذين لا ينبعثون ولا ينقطون الا بأمرهم ، والله لكأنى على النار إذا دخلت عليهم، حتى انصرف الى إخوانى ومن أشاربه ، لأنى اذا كنت عندهم لم أملك من أمرى شيئاً."

إذ تبدل موقفه وبينما كان متحمساً للمطلع الخمرى الذى استبدل به المطلع الطللى ويعلنها صريحة:

لســت لــدار عفــت بوصــاف ولا عـــلى ربعهـــا بوقـــاف

ولا أســلى الهمــوم فى غســق الليــل بحــاد فى البيــد عســاف

لكــن بوجــه الحبيــب أشربهــا بـــين نـــدامى وبـــين أُلاف

ولا يكتفى بهذا بل يهاجم من التزم المطلع الطللى:-

أيا باكى الأطلال غيرهــا الـبلى بكيت بعين لا يجف لهـا غـرب

اتنعت دارا قد عفت وتغـيرت فإنى لما سالمت من نعتها حرب

وقد كان هجومه يحمل شكلاً للسخرية والتهكم بالوقوف عـلى الأطـلال إذ يقول:

قل لمن يبكى عـلى رسـم درس واقفا مـا ضر لـو كـان جلـس

نجد أن حماسه هذا فتر، وحدة رفضه خفتـت ، وعنـف هجومـه لان، حيـنما طالبه الخليفة بالإياب الى المقدمة الطللية والتحلـل مـن المقدمـة الخمريـة اسـتجاب ورضخ حين قال:

أعر شعرك الأطلال والدمن القفـرا فقد قال ما أزرى به نعتك الخمران

دعــانى الى نعــت الطلــول مســلط تضـيق ذراعـى أن أجـوز لـه أمـرا

فســـمع أمـــير المـــؤمنين وطاعـــة وإن كنت قد جشمتنى مركبا وعرا

فالخليفة حتما يرفض أن يصرخ شاعرا أمامه بالـدعوة الى الخمـر ومعاقرتهـا، ونجد أن أبا نواس لم يكتف بالإياب للمطلع الطللى بل التزم الـنهج القـديم التزامًـا حرفيا، فحينما مدح الرشيد تحدث عن الناقة وارتحاله من مغانى الشباب:

حـى الـديار اذ الزمـان زمـان	**واذ الشباك لنـا حـرى ومعـان**
يـا جنـد سـفوان مـن متربـع	**ولـربما جمـع الهـوى سـفوان**
واذا مررت على الـديار مسـلماً	**فلغــير دار أميمــة الهجـــــر**
أنـا نسـبنا والناسـب ظنــــة	**حتى رميت بنا وانت حصـــان**
لا نزعت عن الغوايـة والصـبا	**وخدت بـى الشـدنية المـذعان**
سبط مشافرها، دقيق خطمهـا	**وكأن سائر خلقها بنيان .. إلخ**

وتأسيسًا على ما سبق يتبينأن الدوافع إلى التزام أبي نواس منهج القدامى كثيرة ، فقد يكون التزام رأى أولى الأمـر ليفـوز بـالجوائز، وقـد يكـون إظهـارًا لاقتـداره وتمكنه من المحاكاة ، وقد يكون خضوعًا لموهبته التى تبلورت من ثقافته الواسـعة، فقد كان عالمًا فقيهًا من أحفظ أهل زمانه لأشعار القدامى والمخضـرمين فى الجاهلية والإسلام ، بل واوائل الإسلامين والمحدثين فهولا يحفظ المشهور فقط بـل يقررانـه يحفظ سبعمائة أرجوزة عزيز فى أيدى الناس.

الموضوعات الشعرية الجديدة

استحدث الخلفاء العباسيون سبلا معيشية جديدة ، وأوجدوا اتجاهات لم تك معروفة من قبل ليس هذا فحسب بل إن الشعراء أيضا تمشيا مع التطور والتجديد أحدثوا موضوعات جديدة فى تناولها ، فهى وإن كانت موجودة فى الشعر القديم إلا أن طريقة التناول كانت حديثة من قِبل الشاعر العباسى ، مما هيأ لفتح باب واسع من تحليل الأخلاق المحمودة ، وأيضا فإنهم وسعوا معانى الهجاء وما فيه من أخلاق مذمومة، فتناولوها هى الأخرى بالبسط والتفصيل منفصلة عن أشعار الهجاء .. وبذلك اتاحوا للمربين والمعلمين مادة طريفة لتأديب الناشئة وحثهم على الأخلاق الفاضلة وصدهم عن الأخلاق المذمومة، وقد وقفوا طويلاً عند واجبات الإخوة والصداقة واختيارالإخوان الأصدقاء، وسبر أخلاقهم قبل اصطفائهم، فهم على طبقات منهم من يشبه الدواء، ومنهم من يشبه الداء، ومنهم المتصنع الملق الذى يشبه الثمرة المرة حسنة المنظر، فإن نزل بك سوء فر منك وازور عنك، وفى ذلك يقول حماد عجرد[1]:

كم من أخ لك تنكره ... ما دمت من دنياك فى يسر

متصنع لك فى مودته ... يلقاك بالترحيب والبشر

يطرى الوفاء وذا الوفاء ... ويدحى الغدر مجتهداً وذا الغدر[2]

فإذا عدا والدهر ذو غِيَر ... دهر عليك عدا مع الدهر[3]

فارفض باجمال مودة من ... يقلى المقل ويعشق المثرى[4]

1-الأغاني 14 / 359.
2- يطري : يمدح ، يلحي: يذم.
3- عدى الأولى: من العداء ، والثانية: من العدو أو الجري.
4- بإجمال: يأدب ، يقلى : يكره .

وعليك من حالاة واحــدة　　　فى العسر إمــا كنت واليـــــسر

لا تخلطنهم بغيــــــــرهم　　　من يخلط العقيـــان الصفر[1]

على حين يجعل حماد مقياس الإخـوة الصـادقة المواصـلة فى العســر، ويعـرض علينا صورة الإخاءالكـاذب الـذى لا يعـرف الأخ فيـه أخـاه إلا فى السرـاء أمـا فى الضراء فيزور عنه ازورارا .. كما نهاهم عن صحبة الحمقى لما تجر من بلاء كثـير وفى ذلك يقول ابو العتاهية:

إحــــــذر الأحمـــق أن تصـــحبه　　　إنــما الأحمــق كــالثوب الخَلِـق[2]

كلـما رقعتـــــه مــن جــانــــــب　　　زعزعته الـريح يومـا فـانخرق

أو كصــدع – فى زجــاج – فـاحش　　　هل ترى صدع الزجاج يلتصق

فـــإذا عاتبتـــه كــــى يرعـــوى　　　زاد شرا وتمــادى فى الحمـــــق

فالحياة فى العصر العباسى قد صبغت بالصبغة الجديدة حيـث نـال التجديـد والتطور مختلف مناحى الحياة، ولا غروا أن مس الأدب وطرق الشعر موضـوعات جديدة لم تك معروفة من قبل ... فقد تولدت – نتيجة لاختلاط العرب بـالعجم – عادات مستحدثة – وشاع كثير من الأغراض التـى لم تـك معروفـة مـن قبـل – أو كانت موجودة لكن لم ينتبه لها أحد فسـلط الشـعر الضـوء عليهـا فلفتـت الأنظـار واسترعت الانتباه .

(أ) وصف الأطلال:على اختلافها فالشاعر القـديم كـان يصـف الأطـلال ويبكى عليها وعلى أصحابها .. لكن الشاعر العباسى وقف يبكـى اطـلال القصـور التى كانت عامرة بأصحابها، يقول أبو بشير فى قصر خرب:

1العقيان : الذهب ، الصفر : النحاس

2 العقد الفريد : 6- 357 ، الخلق : البالى

ألا يا قصــر قصــر النوشــجانى   أرى بك بعد أهلك ما شجانى[1]

فلــو أعفــى الــبلاء ديــار قـــوم   لفضــل مــنهم وأعظـــم شــانى

لما كانــت تــرى بــك بينـــــات   تلــوح عليــك آثــــار الزمــان

وهذا الموضوع الجديد هو الذى ألهم البحترى فيما بعد سينيته المشهورة في إيوان كسرى، وقد دفع الحنين الذى صحب وصف الأطلال الشاعر العباسى فى بعض مدائحه إلى بث حنين مقابل لوطنه وبلده حين ينأى عنه وتظل روحه ملتصقة به، ولكن الجديد أنه أفرد لهذا الحنين قطعًا بديعة من مثل قول دعبل[2]:

ألم يأن للسفر الذين تحملــوا إلى   وطــن قبــل الممــات رجــوع[3]

فقلت ولم أملك ســوابق عــبرة   نطقن بما ضمت عليــه ضــلوع

تبين، فكم دار تفـــرق شملها   وشـــمل عــــاد وهـــو جميـــع

كذلك الليالى صرفهن كما ترى   لكــل أنــاس جدبــة وربيـــع[4]

(ب) الوصف: مُلِىء العصر العباسي بالمرائي الجديدة ، ومنها الورود ، لذا وصفت الورود الجديدة في العصر، فبعد أن كان الشاعر القديم يصف الحنظل والصبار والحنة لملازمتها له فهيء أمامه دائمًا لم يعرف غيرها، أما الشاعر الحديث فقد عمد إلى وصف الطبيعة الماثلة أمام عينه والتى يعمها البساتين والرياحين، حيث يصف افتتانه بها وهيامه بوجودها حوله:

1شجانى: احزننى
2اغانى (ساسى) 18 / 44
3يأن : يحق، تحملوا : ارتحلوا
4جدبة : المرة من الجدب والقحط

ثـلاث عيـون مـن النـرجس　　　عـلى قـائم أخضـر أملـس

يـذكرننى طيـب ريـا الحبيـب　　　فيمنعنـى لـذة المجلـس[1]

(ج) وصف الأمطار والسحاب : فالأمطار والسحاب هى التى تنبت الرياحين والورد ، وغيرها من المباهج المزروعة ـ ونجد الشاعر العباسى لا يصف تلك الأشياء وصفًا مجردًا بل يصفها مصبوغة ومقترنة بمشاعرهمواحاسيسهم حتى يحدثونها وكأنها أناس تحدث بينهم التجاوب المطلوب يقول مطيع ابن اياس مخاطبًا حى حلوان :

أسـعدانى يـا نخلتـى حلـوان　　　وابكيانى مـن ريـب هـذا الزمـان[2]

واعلـما أن ريبـه لم يـزل يفـرق　　　بيـن الإلـف والجيـران

ولعمـرى لـو ذقـتما ألم الفـراق　　　أبكـاكما الـذى أبكـانـى

أسعدانـى وأيقنـا أن نحسـا　　　سـوف يلقـاكما فتفترقانـى

كم رمتنـى صروف هـذى الليـالى　　　بفـراق الأحبـاب والخـلان

(د) وصف القصور فى حالة إعمارها وزهوها، وملئها بالترف فى الملبس ووصف ما حولها من البساتين وما يحيط بها من الظباء:

فيـا طيـب ذاك القصرـ ومنـزلا　　　بأفيح[3] سهل غير وعـر ولاضـنك

يغـرس كأبكـار الجـوارى وتربـة　　　كـأن ثراهـا مـاء ورد عـلى مسـك

وسرب من الغزلان يرتعن حولـه　　　كما استل منظوم من الدر من سلك

1 - الريا : الرائحة الجميلة

2- حلوان : من بلاد العراق فى طرفه الشمالى مما يلى ايران .. اسعدانى : اعينانى بالدموع

3- أفيح: أوسع، او لعله من فائحة الرائحة

(هـ) وقد يصف أحدهم مرضاً ما .. فيبلغ فى وصفه شأوا بعيدا ويستطرد فى وصف تفاصيل المرض وما أحدثه به من تغيرات ومضاعفات يقول عبدالصمد بن المعزل يصف حمى:

وبنت المنية تنتابني هدوا وتطرقني سُحْرَهْ[1]

كأنّ لها ضرما في الحشا وفي كل عضو لها جمرة

لها قدرةٌ في جسوم الأنام حباها بها الله ذو القدرة

وطورا ألقبها سخنة وطورا ألقبها فترة

وصرت إذا جعت يوما ظللت كأن على كبدي شفرة[2]

ويربو الطحال إذا ما شبعت فتعلو الترائب والصدره[3]

وأمسي كأنيَ من معدتي لبست الثياب على زكره[4]

إذا ما رأيت امرءاً مطلقاً له الأكل تخنقني العبرة

كأني في منزلي مخصباً ببلقعة جدبة قفرة[5]

وقد زخر الشعر العباسى بالمشاعر المتنوعة والأحاسيس الفياضة فها هو ذا الشاعر يتصور موته وحزن بنيته عليه، وجفاءها من الأهل والأقارب بعد مودتها، واستبعادها بعد قربها، ويصور اشفاقه عليها حتى من الدموع التى ستزرفها عند وفاته.

لولا البنيةُ لم أجزعْ من العـَدَمِ ولم أجب في الليالى حدسِ الظلمِ[1]

1- الهدو : الليل سحره : وقت السحر
2- الشفرة : حد السيف وجانب النصل
3- الصدرة : الصدر
4- الزكرة : زق الحل
5- البلقعة : الفلاة

وزادني رغبةً في العـيشِ معرفتـي   ذُلَّ اليتيمـةِ يجفوهـا ذوو الرحـــمِ

أَخْشَى فَظاظةَ عمٍ أو جَفـاءَ أَخٍ   وكنتُ أخشي عليها من أَذى الكِلَـمِ

إذا تـذكرت بنـى حـين تنـدبنى   جـرت لعـبرة بُنِّـى عبرتـى بـــدم

(ز) الشعر التعليمى: هو الشعر الذى يهدف الى ارسال معلومـة أو الإحاطـة بمعرفة من المعارف، ويعد إبَّان ابن عبدالحميد رائد هذا الفن كذلك نظم فيـه كثـير من الشعراء فى الأقسام المختلفة فى الفقه والتاريخ وغيرها ومن ذلك يقول الصاولى فى منظومته لكليلة ودمنة:

هـــذا كتـــابُ أدبٍ ومِحْنَـــهْ   وهو الذي يُـدْعَي كليلـة دِمْنَـهْ

فيـــه دلالاتٌ وفيـــه رُشْـــدُ   وهـــو كتـــابٌ وضـعتْهُ الهِنْـدُ

فوصــفوا آدابَ كــلِّ عــالَـــم   حكـــايةً عـــن ألسُـنِ البهـائمِ

فـــالحكماءُ يعرفـــونَ فَضْلَـــهُ   والسخفـــاءُ يشتهـــونَ هَزْلَـهُ

وهـــو عـــلى ذاك يُســيرُ الحفـظِ   لَذٌّ عـلى اللّســانِ عنـد اللّفْـظِ

ويقول آخر متحدثاً عن الورد:

خَجِلتْ خُدودُ الوردِ مِن تفضيله   خجـلاً تَورُّدُهـا عليـه شـاهدُ

لم يخجـل الـورد المـورّد لونـــه   إلا وناحِلُـــه الفضـــيلةَ عانـــدُ

للنرجس الفضلُ المبينُ وإن أبـى   آبٍ وحاد عـن الطريقـة حائـدُ

فصْـــلُ القضـــية أن هـــذا قائـــد   زهرَ الريـاض وأن هـذا طـاردُ

1- العدم هنا الموت، الحندس شدة الظلمة.

شـتَّان بـين اثنـين هـذا مُوعـدٌ بتسـلب الـدنيا وهـذا واعـدُ

وإذا احْتَفَظْتَ به فأمتَعُ صـاحبٍ بحياتـه لـو أن حيَّـاً خالـدُ

يحكـي مصـابيحَ السـماء وتـارةً يحكي مصابيح الوجوه تَراصَـدُ

يَنْهي النديم عن القبـيح بلحظِـه وعلى المدامـة والسـماع مُسـاعدُ

هذه النجـوم هـي انسـي ربتهـا بِحَيَا السحاب كما يُـربي الوالـدُ

فتأمـل الإِثنـين مَـنْ أدناهُمـا شَـبَهَاً بوالـده فـذاك الماجـدُ

فمن الواضح أن الشعر التعليمى كان له الدور الفعَّال فى تسـجيل المعـارف والعلوم المختلفة، فقد نظم الأصمعى فى التاريخ حيث حكى أخبار الملـوك والأمـم الخالية ونظم أحد الشيعين معدان الأعمى ــ فى أصناف الشيعة وعقائدهم، كـذلك نظم بشر بن المعتمر المعتزلى فى علم الكلام ، بـل نظـم فى وصـف الفيـل، وغرائـب الخلق بشكل عام .

فقد تناولوا كافة المشاعر الإنسانية بالوصف والتحليل والتنويه عليهـا فى مقطوعات منفصلة أو ضمن قصائد طوال .. وعلى الرغم من انتشار اللهو والـترف فى حياة الطبقة العليا من الحكام والأمراء وذويهم إلا أن معظم الشعب كـان يـرزخ تحت نير الفقر والعوز والحاجة ، وكان يغنى فقره ويصور حاله يقـول أبـى فرعـون الساسي .. مصورا حاله وحال عياله فى الشتاء القارص:

وصبـية مثـل صغـار الـذر سود الوجوه كسـواد القـدر

جـاءهم الـبرد وهـم بشـر بغـير قمـص وبغـير أزر

تراهـم بعد صلاة العصـر وبعضهم ملتـصق بصـدري

ناهيك عن ذيوع واشتهار النوادر والفكاهات بين الشعراء، فى مجالس الخلفاء كشعر بشار على لسان حمار فقد ذكر الرواة أنه مات له حمار، انتظر حتى اجتمع إليـه رفاقه ، فأظهر لهم أنه مغموم محزون، وألحوا عليه يريـدون أن يعرفـوا سـبب حزنـه وغمه فقال لهم: اننى رأيت حلمًا مزعجًا: رأيت حمارى فى النـوم فقلـت لـه ويلـك! مالك مت؟ قال: إنك ركبتنى يوم كذا فمررنا عـلى بـاب الأصـبهانى فرأيـت أتانـا (انثى الحمار) عند بابه ، فعشقتها فمت .. وزعم بشار انه انشده هذه المقطوعة:

سَـــــيِّدى مِلْبِعَنـــــاني نَحـــوَ بـــاب الأَصْـــبهاني

إنَّ بالبـــــابِ أتانًـــــا فَضَـــلَتْ كُـــلَّ أتـــانِ

تيَّمتنـــــي يَـــــومَ رُحْنـــا بثناياهـــــا الحِســـــانِ

تيَّمتنـــــــي بِبَنـــــانٍ وَبِـــدَلٍّ قـــد شـــجاني

وبِحُســـــــــنٍ ودلالٍ سَـــلَّ جِســـمي وبـــراني

ولهـــــا خَـــــدٌّ أســـيلٌ مِثـــلُ خَـــدِّ الشَّـــيفرانِ

فبهـــــا مِتُّولوعِشـــــــ ـــــتُ إذن طـــال هـــواني

فقال له أحد جلسائه : ما الشيفران ؟ قال : ما يدرينى هذا من غريب الحمـير ! فإذا لقيتم حمارا فسلوه !!.وكذلك كانـت اللحيـة فى طولهـا مثـار تنـدر وتضـاحك الشعراء، فقد كان البعض يطولها ويعرضها فيعلق عليها الشعراء يقول مـروان ابـن ابى حفصة فى لحية الشيخ رباح :

لَقَـدْ كَانَـتْ مَجَالِسُـنَا فسـاحاً فَضَـــيَّقَهَا بلحْيَتِـــهِ رَبـــاحُ

مبعثـــرةُ الأســـافلِ والأعـــالي لهـــا في كـــلَّ زاويـــةٍ جنـــاحُ

وهذا كله يدلل على قـدرة الشـعراء العباسـيين في تنـاول الكثـير مـن المعـاني المطروحة لديهم ببراعة واقتدار فى حسن عرض، وجودة تحليل.

وكان الخلفاء يكيلون العطايا والمنح لمادحيهم، فتفنن الشعراء فى الثناء عليهم والإطراء حتى إنهم كانوا يسوقون الحجة تلـو الحجـة ويـبررون أحقيـة العباسـيين بالخلافة، يقول مروان ابن أبي حفصة:

هل تطمسون من السماء نجومها　　بأكفكم أم تسترون هلالها

أم تجحدون مقالة من ربكم　　جبريل بلغها النبي فقالها

شهدت من الأنفال آخر آية　　بتراثهم فأردتم إيطالها

ثم ختم مروان هذه المدحة الجيدة بقوله:

ولقد حذوت لمن أطاع ومن عصى　　نعلاً ورثت النبي مثالها

يريد أنه احتذى بالنبي ﷺ في أفعاله والتـزم غرسـه ،حـذو النعـل بالنعـل . وورد هذا المعنى مرة أخرى في قوله:

أحيا لنا سنن النبي سميه　　قد الشراك به قرنت شراكا

فالشعر جمع رغبة الحكام والشعراء والمتلقين ،فالحكام أرادوا إصباغ الشرعية ، والشعراء أرادوا عطاياهم .. ويذكر أن المهدى أعطاه مائـة ألـف درهـم، وتلقـف المتلقون مبررات لاستيلاء العباسيين على السلطة.

يمدح مروان العباسيين قائلاً:

أيادى بنى العباس بيض سوابغ　　على كل قوم باديات عوائد

هم يعدلون السمك من قبة المهدي　　كما تعدل البيت الحرام القواعد

سواعد عز المسلمين وإنما　　تنوء بصولات الأكف السواعد

اللغويون والارتقاء بالشعر:

تضافرت عدة عوامل أثرت فى مسار الشعر شكلًا ومضمونًا واضـفت عليـه صبغة مغايرة للشعر فيما سبقه من عصور،وكان للغويين الـدور الأهـم فى الارتقـاء بالشعر فقد كانوا العين الناقدة ، والصيرفى الخبير الذى يميز جيد الكلام من رديئـه، ومحكمه من مفككه، فإذا ما أثنوا على شاعر ومدحوا قصيدته قربه الخليفة وأجزل له العطاء ... وإذا ما اغمط قدره وانتقدوا قصيدته طواه النسيان فيما يطوى، وأسدلت على أعماله ستائر الإهمال اما سبب مكانة اللغويين فى المجتمع العباسى انهم وضعوا مقاييس ثابتة يقيسوا عليها الاعمال الشعرية وهذه المقـاييس مسـتمدة مـن الكتـاب والسنة إضافة الى تقديمهم الشعر القديم والاسلامى حيـث جعلـوه القـدوة المثلى التـى يجـب ان تحتـذى ويسـير الشـاعر عـلى نهجهـا ويلتـزم طـرائقهم فى التـأليف ومنهجهم فى النظم ...

والسـبب فى ذلـك يرجـع لتقديسـهم للقـرآن الكـريم، ولغتـه الفصـحى ، وحرصهم على قدسيتها، ومكانتها فى العقول والقلوب ..

يقول د / شوقى ضيف : فإن خلفاء بنى العباس أظهروا محافظة شديدة عـلى لغة القرآن الكريم، وحثوا العلماء على مدارستها والتعمق فيها ورواية كل ما يتصـل بها من أنساب وأيام وأخبار وأشعار .. وقد جعلوا مقياس وظائفهم الكبيرة التفوق فيها ، فكانوا لا يستوزرون ولا يستكتبون إلا من حذقها وبرع فى أدائها .. وأخـذوا أبناءهم بتعلمها بل باتقانها ، فأحضروا لهـم كبـار اللغـويين ليحفظـوهم كثـيرا مـن نماذجها الشعرية ، وكى يقفوهم على صياغتها وأساليبها ، وألـف المفضـل الضـبى للمهدى كتاب المفضليات ، وهو لا يزال ناشئًا فى عهد أبيه ، زائغ مشهور .. وبذلك سرى فى العصر العباسى ذوق محافظ كان له أثره فى الشعراء ، إذ كانوا يمثلـون بـين أيدى الخلفاء مادحين لهم ، وكانوا يقيسون جودتهم بهذا الذوق ، فكان لابد لهـم أن

يتلاءموا معه حتى يظفروا بما يبتغون من جوائز كبيرة ، وكانت مجالس الخلفاء تكتظ باللغويين من مثل الكسائى والأصمعى ، فكان لابد للشعراء من بذل مجهود ليروقوهم حتى ينالوا استحسانهم ،فيكافئهم الخلفاء فيجزلوا لهم فى العطاء.

وقد أدى ذلك إلى الإرتقاء بالشعر ... لحرص الشعراء على نيل رضا اللغويين ومساندتهم عند الولاة وقد كان اللغويون يحرصون على اللغة ويعرضون النماذج الشعرية القديمة ويضعوها أمام الشعراء ولم يك اللغويون يعرضون الأشعار السهلة المألوفة بل كانوا يعرضون النماذج المليء بالحوشي ، والألفاظ الغريبة ووضعوها تحت اعين الشعراء الجدد، ليس هذا فحسب بل إنهم حددوا أقيسة اللغة فى الاشتقاق والنحو وموسيقى الشعر وعروضه يقولالجاحظ " لم أر غاية النحويين إلا كل شعر فيه إغراب ولم أر غاية رواة الأشعار إلا كل شعر فيه غريب أو معنى صعب يحتاج الى الاستخراج " [1] .

كذلك كان للغويين اليد الطولى في إحياء الغريب بوضعهأمام أعين الشعراء، مما ساهم فيإذابة غرابته وجعله مألوفا لدى الناظمين ، فأشاعوا اللغة صعبها قبل سهلها، وقد أدرك الشعراء تلك المكانة فعمدوا الى استرضاء النحاة، ونيل استحسانهم ، فقد روى عن مروان ابن أبى حفصة من انه لما نظم قصيدته : **(طرقتك زائرة فحى خيالها)** وهى إحدى روائعه فى المهدى ذهب الى حلقة يونس النحوى فقال له : قد قلت شعرًاأعرضه عليك فان كان جيدا أظهرته ، وان كان رديئا سترته وأنشده القصيدة ، فأعجب بها يونس وقال له إنها بريئة من العيوب [2]

حينئذ مضى فأنشدها المهدى، فزحف من صدر مصلاه حتى صار على البساط إعجابا بما سمع، ثم قال لمروان: كم هى؟ قال مروان: مائة بيت، فأمرله بمائة

1البيان والتبيين جـ 4 صـــ 24
2اغانى (طبع دار الكتب) 10 / 82

الف درهم ، فكانت أول مائة الف درهم أعطيت لشاعر فى أيام بنى العباس [1] ويسوق المرزبانى فى كتابه الموشح فصلًا طويلًا[2]، يصور فيه كيف كان الشعراء يعرضون أشعارهم على اللغويين ليجيزوها لهم ، فهم قضاة الشعر وصيارفته ، وفى ذلك يقوم الخليل بن أحمد لابن مناذر : " إنما أنتم – معشر الشعراء – تبع لى ، وإنا سكان السفينة إن قرظتكم ورضيت قولكم نفقتم وإلا كسدتم."[3]

فقد قويت العربية فى نفوس العرب حتى وإن أتوا بألفاظ فارسية أو غيرها فعلى الرغم من أن أبى نواس حفظ دواوين ستين امرأة فضلاً عن الرجال، وإنه نهل من ينابيع العربية إما من الأساتذة كخلف الأحمر وغيره أو من خلال شد الرحال إلى البادية حيث أقام بها عامًا كاملًا إلا انه كان يورد كثيراً من الألفاظ الغير عربية تظرفاً وتملحاً يقول:

والمهرجان المدار لوقته الكرار[4]

والنوكروز الكبار[5] وجشن جاهنبار[6]

وآيسال الوهار [7] وخره ايران شار[8]

وقد ترتب على أنَّ النحويين يتحيزون للقدامى، والتزام طريقهم، ومن شذا أو خالفهم رفضوه، حتى وإن أجاد عن النموذج القديم وقد أنشد اسحق الموصلى الأصمعى اللغوى بيتين من شعره دون أن يسمى قائلهما: فلما أظهر إعجابه بهما قال له إسحق: إنهما من نظمه، فبادره قائلاً: أفسدت الشعر، إن التوليد فيهما

1الاغانى 10 / 88
2الموشح صـ 358 ومابعدها
3الاغانى طبعة الساسى 17 / 16
4المهرجان : من أعياد الفرس
5النوكروز : عيد النيروز
6جشن : من أعياد الفرس ، جاهنبار : الدعوة عامة
7يسال : ابتداء الربيع ، الوهار: المشرق
8خره : موضع الشرب ، أوعيد ، ايران شار : ايران العزيزة

بيِّن[1] .. ويروى الرواة أن ابن مناذر كان يقول لأبـــى عبيدة: اتق الله واحكم بـين شعرى وشعر عدى بن زيد، ولا تقل ذاك جاهلى وهذا عباسى، وذاك قـديم وهـذا محدث، فتحكم بين العصـرين ولكن أحكم بين الشعرين، ودع العصبية[2] وكان ابن ابن الأعرابى يقول: إنما أشعار هؤلاء المحـدثين – مثـل أبـى نـواس وغـيره ـ مثـل الريحان يشم يوما ويذوى فيرمى به، وأشعار القدماء مثل المسك والعنبر كلما حركته ازداد طيباً.[3]

✍ **وكان المحدثون يخالفون النماذج القديمة غالبا لسبب من أسباب ثلاثة :**

أ – إما ضرورات رأها المحدثون فى الشـعر القـديم فقاسـوا عليهـا واسـتندوا عـلى وجودها عند القدامى لإيرادها فى أشعارهم .

ب – اشتقاقات وأبنية مستحدثة قاسوها على النماذج القديمة .

ج – لغات شاذة استعملها القـدامى فى أشـعارهم ورأى المحـدثون أنَّ مـن حقهـم مجاراتهم فى استعمالها .يقول بن قتيبة : وقد كان ابو نـواس يلحـن فى أشـياء مـن شعره لا أراه فيها إلا على حجة من الشعر المتقدم وعلى علة بينة من علل النحو، ما قوله:

فليـــــت مـــــا أنـــــت واط مـــــن الثـــــرى لى رمســــا[4]

أما تركه الهمز فى " واطىء " فحجته فيه أن أكثر العرب ترك الهمز وأن قريشًا تتركه وتبدل منه ، وأما نصبه " رمسا " فعلى التمييز ألا تراه قـال: (فليـت مـا أنـت واط من الثرى لى) فتم الكلام وصار جواب ليـت فى " لى " ثـم بـين مـن اى وجـه يكون ذلك فقال " رمسا " كما تقول فى الكلام : " ليت ثوبك هذا لى " ثـم تقـول "

1الاغانى دار الكتب 4 / 273
2الاغانى ساسى 17 / 12
3الموشح صـــ 246
4رمسا : قبرا

إزارا " لأن جواب ليت صار فى قولك " لى " وصـار الإزار تمييـزا (1)فقـد سـادت العربية ودان لها بالفضل الكثيرون بل إن الفارسيين أخـذوا فى اتقانهـا وحـذقها ... فها هو بشار الفارس يفـاخر بإتقانـه الفصـحى قـائلا : " ولـدت ههنـا فى البصرـة ونشأت فى حجور ثمانين شيخا من فصحاء بنى عقيل ، ما فيهم أحـد يعـرف كلمـة من الخطأ ، وإن دخلت على نسائهم فنساؤهم أفصـح مـنهم ، وأيفعـت فأبـديت (دخلت البادية) الى أن أدركت (بلغت الحلم) فمن أيـن يـأتى الخطـأ " (2) ولم تكـن المسألة مسألة خلو كلامه من الخطـأ ، إنـما كانـت – فى حقيقتهـا اكتسـاب السـليقة العربية، حتى غدا كأنه عربى أصيل ، مما جعل اللغويين يشيدون بـه طـويلاً(3) .وقـد كان للغويين طرائف شتى تروى في هذا الإطار ، منها مـا رواه أبـو الفـرج مـن انـه استمع إلى عقبة بن رؤية وهو ينشد عقبة ابن سلم والى البصرةأرجوزة يمدحه بهـا، لما فرغ منها قال له: هذا طراز لا تحسنه يا أبا معاذ ، فغضب بشار وقال له : ألى يقـال مثل هذا الكلام؟ انا والله ارجز منك ومن أبيك ومن جدك (يريد العجاج) ومضى الى منزله فألف أرجوزة بديعة، وغدا فأنشدها عقبة بن سلم وعنده عقبة بـن رؤيـة، وهى التى يستهلها بقوله:

يا طلـل الحـى بـذات الصـمد بالله خبر كيف كنـت بعـدى(4)

فطرب عقبة بن سلم، ومنحه مكافأة كبيرة، وانكسـر عقبة بن رؤية انكسـاراً شديداً(5).

✍ **ويروى أنه أنشد فى شعر الأعشى الكبير:**

وأنكرتنى وما كان الذى نكـرت من الحوادث إلا الشيب والصـلعا

1-الشعر والشعراء لابن قتيبة (طبع دار المعارف) ص 794
2-اغانى (طبع دار الكتب) 3 / 149
3-الأغانى 3 / 143 وما بعدها
4-ابن المعترض 202
5الأغانى 174/3 وانظر ابن المعتز ص 25 والموشح ص 366 .

فأنكره، وقال: هذا بيت مصنوع ما يشبه كلام الأعشى، ولم يلبث الـرواة أن تحققوا من قوله[1] .. وذكر الرواة أنه أنشد خلفاً الأحمر قصيدته فى سلم بن قتيبة:

بكــرا صــاحبى قبــل الهجــير إن ذاك النجـــاح فى التبكـــير

فلاحظ فيها إكثاره من الغريب، وسأله عن سبب ذلك، فقـال لـه: بلغنـى أن سلما يتباصر بالغريب، فأحببت أن أورد عليه ما لا يعرفه، وقال له خلف: لو قلت مكان (إن ذاك النجاح فى التبكير) بكرا فالنجـاح فى التبكـير كـان أحسـن ، فأجابـه بشار: "إننى بنيتها أعرابية وحشية فقلـت: (إن ذاك النجـاح) كـما يقـول الأعـراب البدويون ، ولو قلت (بكرا فالنجاح) كان هذا من كـــلام المولدين، ولا يشبه ذلك الكلام ولا يدخل فى معنى القصيدة، فقام خلف، فقبل بين عينيه[2]، وكان يطلق على بشار وغيره من المحدثين اسم المولدين وهم الذين أوجدوا لأنفسهم أسلوباً خاصـاً جمعوا فيه بين أصالة القديم، وطرافة الحديث ... فقـد اتسـم أسـلوبهم بالبعـد عـن الغريب الحوشى، الذى كان يشيع على ألسنة كثير مـن الشـعراء، واجتنـاب اللفـظ العامى والمبذل الذى يسود لغة العامة، فكان أسلوبهم وسط بين هـذا وذاك يفهمـه الحضـرى ويستحسنه البدوى؛ لما به من الرشاقة حينا والجزالة حينا آخر.

وقد كان من هؤلاء الشعراء النابهين بشار .. وقد كان من الشعراء مـن يـؤثر الجزالة والفخامة، قوة السبك ومتانة البناء مثل مسلم بن الوليد، ومـنهم مـن بـات يؤثر الليونة والسهولة كأبى العتاهية .. كما شاع على ألسنة المولدين طريقة بشار مـن التزام الجزالة والفخامة والرصـانة وممـن التـزم تلـك الطريقـة أبـو نـوا، أبـو العتاهية.. واكتملت تلك الرصانة وبلغت ذروتها عند شعر أبي تمام.

1الأغانى 3/ 143 .
2الأغانى 3 / 190 .

دور الخلفاء فى النهوض بالشعر

إذا كان اللغويون قد ساندوا الشعر وانطلقوا به من طور البـداوة والقـدم الى طور الحضر والحدوث؛ وذلك من خلال تشجيعهم الشعراء، فـإن الخلفـاء سـاهموا أيضا في النهوض بالشعر بما كانوا يرفعون منزلة الشعراء، فما كاد شـاعر ينبـغ حتـى يقربه الخليفة ويجعل لـه الكلمـة العليـا .. وذلـك يرجـع لعلمهـم بمكانـة الكلمـة ودورها وأهميتها، وأنها هى التى تخلد الانسان بعد وفاته حيث تشـيع حميـد صـفاته وجليل أفعاله.

وقد ادرك الشعراء حفاوة الملوك بمدحهم وتقديرهم لشعرهم، فطلبوا الكثير وأغدق عليهم العطاء حتى نافسوا الموسرين والأغنياء، بل والحكم أحيانـا فى رغـد العيش، وامتلاك الضيع والقصور، وبلغ من حب الخلفاء العباسيين للشـعراء أنَّ – المأمون يغض الطرف عن الخزاعى الشاعر الشيعى حين يغمزه فى شـعره ويسـىء الى ذكرى والده هارون الرشيدى إساءة بالغة، فقد هجى دعبل الخزاعى ابراهيم بن المهدى، فرفع ابراهيم أمره إلى المأمون، فقال له المأمو: لك أسـوة بـى فقـد هجـانى واحتملته وقال فى:

أيسومنى المأمون خطـة عـاجزه　　　أو مـا رأى بـالأمس رأس محمـد

أنى من القوم الذين سيـــوفهم　　　قتلت أخاك وشرفتـك بمقعـــد

فقال إبراهيم: زادك الله حلمًا يا أمير المؤمنين. وقد عظمت منزلـة الشـعراء فى العصر العباسى أنهم كانوا يفرطون فى الدال على الخلفـاء ويشـفعون فـيما لا ترجـى الشفاعة فيه، فيفكون رقاب العنـاة، ويجـبرون مـن المـوت ويـدخلون بـين الخليفـة وخاصته، وكتب الأدب ملىء باخبارهم .ومـع هـذا فقـد تباينـت مواقـف الخلفـاء العباسيين فهناك من شجع الشعر ومنهم من أهمله ...... لكـن الكثـرة الكـاثرة قـد

احتفت بالشعر، وقدرت دوره، ومن أكثر الخلفاء الذين احتفوا بالشعر إدراكا لدوره واحتراماً لمكانته.

وقد اشتهر الخليفة المهدى بالإغداق على الشعراء وغمرهم بكرمه، فشدت له الرحال رغبة فى عطاياه، وطمعاً فى نواله، فعلى الرغم من أنه كان مشغولًا بالقضاء على الزنادقة والمارقين على الإسلام إلا انه كان شغوفا بالشعر، محبا له منذ صغره فقد حفظ شعر ذى الرمة فى صباه حتى وضع له معلمه المفضل الضبى المفضليات ... من عيون مصادر الشعر الجاهلى وأكثرها توثيقًا .. وكان الشعراء يعرفون عنه ذلك فيشدون له الرحال من شتى البقاع؛ فقد أتاه ابن الخياط من مكة ، وسلم الخاسر من البصرة ، وأشجع السلمى وفد إليه من الحجاز ، ليس هذا فحسب بل حولت دار الخلافة إلى منتدى كبير يحضره الشعراء البغداديون والوافدون، فقد لقيهم بشار بن برد، أبو العتاهية، ويقول أبو العتاهية:

أَتَتهُ الخِلافَةُ مُنقادَةً   إِلَيهِ تُجَرِّرُ أَذيالَهَا

وَلَم تَكُ تَصلُحُ إِلّا لَهُ   وَلَم يَكُ يَصلُحُ إِلّا لَهَا

وَلَو رامَها أَحَدٌ غَيرُهُ   لَزُلزِلَتِ الأَرضُ زِلزالَهَا

وَإِنَّ الخَليفَةَ مِن بَغضِ لا   إِلَيهِ لَيُبغِضُ مَن قالَهَا

وما يكاد ينتهى أبو العتاهية من إنشاد هذه الأبيات حتى يقف بشار فى صفوف الشعراء إعجاباً بما يسمع من منافسه الرقيق، فإذا أرد أن يتبين أثر تلك الروائع فى نفس المهدى، همس فى آذان من حوله من زملائه قائلاً: ويحكم ... انظروا: هل طار الخليفة عن سريره؟

وقد كان لبشار عند الخليفة المهدى منزلة كبرى طالما بعد عن غزلـه الفـاحش لإن الخليفة المهدى كان رجل دين وتقوى وحـزم، وكـان يستنشـد بشـارًا قصـيدته الرائعة التى مدح بها عمر بن هبيرة والتى منها:

وجيش كجنح الليل يزحف بالحصى … وبالشـوك والخطـى حمـر ثعالبـه

غـدونا لـه والشـمس في خـدر أمهـا … تطالعنـا والطـل لم يجـر ذائبـه

بضرب يذوق الموت من ذواق طعمـه … وتدرك من نجـى الفـرار مثالبـه

كأنـه مثـار النقـع فـوق رؤسـنا … واسـيافنا ليـل تهـاوى كواكبـه

بعثنـا لهـم مـوت الفجـاءة إننـا … بنو المـوت خفـاق علينـا سـبائبه

فيطرب الخليفة من هذا الوصف الذى لا يبدعه ذو عينين يرى بهـما، فكيـف والواصف بشار. أما إذا دعا بشار الى الرذيلة فى شـعره وتغـزل غـزلًا فاحشًـا مثـل قوله:

لا يؤيـسنك مـن مخـدرةٍ … قَـوْلٌ تُغَلِّظُـهُ وَإِنْ جَرَحَـا

عسـر النسـاء إلى ميـاسرةٍ … والصعبُ يسهل بعد ما جمحـا

فإن المهدى يزجره أعنف الزجر ويضيق به وبمجلسه فلا يجـد بشـار وسـيلة أهدى من أن يتوب توبة قد ينقضها فى يومه، وقد يبيت ليلة على نقضها عـلى إنـه لا ينسى على الحالتين أن يتظاهر بطاعة الخليفة بهجر الغزل فى مثل قوله:

إن الخليفـة قـد أبـى … وإذا أبـى شـيئا أبيتـه

ونهـانى الملـك الهـمام … عـن النسـيب ومـا عصـيته

وكان الخليفة المهدى ذواقة للشعر يعرف جيده من رديئه بحكم ثقافته الواسعة، ولذلك كان يجلس إلى الشعراء فى أيام معلومة يعرضون عليه نتاجهم، وينشدونه مدائحهم ،ثم يجزيهم على ذلك الجزاء الأوفى، ولا سيما أولئك الشعراء الذين يضمنون مدائحهم معانى تستهويه وتستخفه، كقولهم أنه"لم يولد إلا للخلافة"، وهو مفطور على البذل والإعطاء وهو بالغ السماحة مع الذين يقدحون له في العلويين أو يلعنون بنى أمية، يقول مروان بن أبى حفصة مادحا إياه ومعرضا بالعلويين:[1]

يا ابن الذى ورث النبى محمد دون الأقارب من بنى الأعمام

أنى يكون وليس ذاك بكائن لبنى البنات وراثة الأعمام

فيحقق مروان بذلك لبني العباس -عم النبي - أقصى ما كانوا يطمحون إليه من سند نظري شرعي لخلافتهم ، وقد سار فى مساره غير واحد من الشعراء منهم بشار، وكان المهدي محبًا للغناء شغوفًا به حتى قيل إنه اشترى جاريته جارية بن النفيس بسبعة عشر الف دينار .... وهارون الرشيد هو الأخر كان شديد الحب للشعر والشعراء، وكان أحب شىء فى نفسه مجالستهم ، ومجالسه معهم وكان يسألهم عما يستغلق عليه معرفته وذلك كسؤاله أهل مجلسه مرة عن الصدر لقوله:

.... ومن يسأل الصعلوك أين مذاهبه

فلم يعرفه أحد، وكان الاصمعى مريضا فأرسل اليه إسحق الموصلى وبعث معه ألف دينار، فأرسل أن هذا عجز بيت لأبى النشاش، وصدره:

وسائلة أين الرحيل وسائل ومن يسأل الصعلوك أين مذاهبه

من قصيدته:

1تاريخ الشعر العربي حتى أخر القرن الثالث الهجري د نجيب محمد البهبيتىصـ 474دار الفكر .ب. ت

إذا المرء يسرح سـواما ولم يـرح ســواما ولم تعطف عليه أقاربـه.

وكان كريمًا معطاءً مما رغب الشعراء في مدحه والثناء عليه يقـولمروان بـن أبي حفص:

وسـدت بهـارون الثغـور فأحكمـت بـه مـن أمـور المسـلمين المرائـر

ومـا أنفـك معقـودًا بنصـر لـواؤه لـه عسـكر عنـه تشـظى العسـاكر

وكل ملـوك الـروم أعطـاه جزيـة عـلى الرغم قسـرًا عـن يـد وهـو صـاغر

لقد ترك الصفصاف هـارون صفصـفا كـأن لم يدمنـه مـن النـاس حـاضر

أناخ عـلى الصفصـاف حتـى اسـتباحه فكـــابره فيهـــا ألـــجْ مــــكابر[1]

وكان هارون الرشيد من أكثر الخلفاء بحثًا فى الشعر ، سأل أهل مجلسه مـرة عن معنى قول الشاعر:

قتلوا ابن عفان الخليفـة محرمـا ودعـــا فلـــم أر مثلـــه مخـــذولا

فقد احتضن مروان ابن أبى حفصـة ليشـفى صـدره بالنيـل مـن بنـى أميـة، وجالس أبا العتاهية طويلًا ليسمع وعظه ، واصغى بكل قلبه إلى شـعره، فـإذا فـرغ منه أحضر أبا نواس ليعبر له عن بهجة النفوس وأنس المجالس.

والرشيد من الخلفاء الذين تعاطوا نظم الشعر فى أوقات فراغه، حـين تنفعـل نفسه بحب جارية من جواريه، أو حين يحزن على فقد الأثيرة منهن عنده، وتروى له الكتب قوله فى جواريه الأثيرات الثلاث: سحر وضياء وخنث

ملك الثلاث الآنسـات عنـاني وحللـن مـن قلبـي بكـل مكـان

مـالي تطـاوعني البريـة كلّهـا وأطـــيعهنّ وهــــنّ في عصـــياني

1الصفصاف : كورة من ثغور المصيصة

مــا ذاك إلا أن ســلطان الهــوى وبــه قويـــــن أعـــزّ مـن سـلطاني

وكذا قد كان من الخلفاء من كان ينظم الشعر بنفسه إضافة إلى أنه كان يشجع الشعراءعلى قرضه، والخليفة المأمون أيضاً كان له أثره القـوى فى تشـجيع الشـعراء، والنهضة بالشـعر والإحتفـاء بـه فى العصــر العباسـى يرجـع إلي تشـجيعه للعلـماء والمترجمين، لأن طبعه كان ينزع به الى العلوم والجـدل، ولا أدل عـلى ذلـك مـن أنـه قرب إليه علماء الكلام، والفلسفة والمنطق، وشـاركهم فى دراسـة العلـوم العقليـة، وكان شاعرً، فظهر فى شعره أثر هذه الدراسات العقلية، والعلوم المترجمة الى العربية يقول فى وصف الشطرنج:

أرض مربّعـــة حمــــراء منـــأدم ما بين إلفـين موصـوفين بـالكرم

تـــذاكرا الحـــرب فاحتـــالا لهـــا من غير أن يسعيا فيها بسـفك دم

هذا يغير على هذا وذاك على فأنظر هــذا يغـير وعـين الحـرب لم تـنم

الى الخيـــل قـــد جاشـــت بمعركـــة في عسكرين بـلا طبـل ولا علـم

ولم يكن المأمون وحده هو الخليفة الذى ينظم الشـعر، فقـد كـان فى العصــر العباسى خلفاء كثيرون ينظمون الشعر، وكان بعضهم يـنظم للغـزل والغنـاء ففـى البداية أحجم المأمون عـن الانخـراط فى الملـذات لكـن طبيعـة العصــر وتكـاتف الأجواء المحيطة دفعته لمـلء قصره بـما لـذ وطـاب مـن المـأكولات والمسـموعات والمرئيات ، .فنرى تشجيع الخلفاء العباسيين لقول الشعر إضافة إلي مجالسـهم التـى تعج بالشعراء والأدباء، لما يعرفونه من أهمية الكلمـة السيارة وكـانوا يثيبـون عـلى الكلام الجميـل ، ويـتقن الشـعراء فى إبـداعهم اسـتجلابا لـرضى الخلفـاء وبالتـالى لعطاياهم ... استوى فى ذلـك العـرب وغـيرهم حيـث ان الوصـل بالخليفـة سـببا لاستجلاب الترف والرفاهية إذ يغدق الخلفاء على المبدعين سواء أكان المبدعون من

أصل عربى أو غير عربى . وقـد اشـتهر أن كثـيرا مـن الخلفـاء لم يكونـوا لأمهـات عربيات ، فالمنصور امه حبشية ، والهادى والرشـيد أمهـما الخيـزران، والمـأمون أمـه مراجل فارسية ، وكـذلك أم المعتصـم مـاردة، وكانـت أم الواثـق روميـة وتسـمى قراطيس. وقد احتفى الخلفاء بالشعر والشعراء إذ يضفى علـيهم جليـل الصـفات، وينثر حولهم الهيبة، ويبعد عنهم شـبهة اغتصـاب الخلافـة. ويمـلا الآفـاق فـوقهم بحسن الثناء.

أثر الثقافات المختلفة على الأدب

انتقلت الحضارة والثقافة من الأمم المختلفة الى الأمة العربية فى العصر العباسى عن إحدى طريقين: أما الترجمة التى كانت مزدهرة ويشجع عليها الولاة والحكام ويجزلون فى العطاء، أو عن طريق الاختلاط والامتزاج مع أصحاب الحضارات الأخرى، فكثير من الدول التى فتحها المسلمون كانت تسود فيها ثقافات مختلفة وآراء متنوعة، وحينما أسلم أصحابها نقلوا للاسلام تلك الثقافات بيسر وسهولة.

فقد فتح الاسكندر الأكبر مصر وليبيا والشام وخرسان وأفغانستان ... وشطرا من بلاد الهند وقد عنى بنشر ثقافته الإغريقية وكانت تلك الدول لها حضارات متعددة ، فنتج عن امتزاج حضارة الشرق والإغريق الحضارة الهيلينية بها روح الشرق ومعارفه المتنوعة وأساطيره المختلفة أونقل كل ذلك الى اللغة العربية وأضفى عليه العربى الكثير من معارفه، فأضفى علي تلك الثقافات الصبغة العربية، وصارت عربية لأن الشعوب نفسها أسلمت وتعلمت العربية عن حب فنقلت إليهاالثقافات والمعارف من ثقافة هندية نقلت عن طريق الفرس وما يعرفونه من ثقافة هندية قديمة ... أو نقلت عن طريق من دخل من الهنود الإسلام وامتزجوا بعرب العراق. والثقافة الفارسية كانت الأبعد أثراً نتيجة لكثرة وعمق مؤثريها فى الثقافة العربية. أما الثقافة اليونانية فنقلت عن طريق الترجمة أو الرقيق والإماء أو عن طريق ما تناثر منها من الثقافة الهيلينية وتداخلت كلمات منها فى المطعم والملبس وأسماء الأطعمة والأشربة.

وقد غلب على العصر العباسى الصبغة العقلية المفكرة فقد افتتح له أبواب المحاورات والمناظرات من خلال إطلاعه على الفكر الرومانى، والفارسى

واليونانى، والهندى، إما عن طريـق إسـلام الشـعوب أصـحاب البلـدان المفتوحـة أو عن طريق الكتب التى انتشـرت فى الأروقة والمكتبات الخاصة والعامة مما شـجع الشعراء وغيرهم على البحث والتنقيب بل دعوا الى السؤال والتخلص مـن الجهـل وعدم المعرفة يقول بشار:

شفاء العمى طول السـؤال وإنـما　　　دوام العمى طول السكوت على الجهل

فكـــن سـائلا عـما عنـاك فـإنما　　　دعيـت أخـا عقـل لـتبحث بالعقـل

وبذلك يكون بشار قد دعـا إلي السـؤال والبحـث والتنقيـب عـن المعرفـة لا السكون والسكوت والرسو في ميناء الجهـل، وهـذه دعـوة للـتعلم والحـض عـلى التحصيل، لبيان فائدة السؤال إذ به تنقشع غيمة الجهل

بات من البديهي أن يتأثر الشعر بالحيـاة العقليـة فى العصـر العبـاس، ونالـه التفكير العقلى المتفتح المنتظم بشكل كبـير، فـإذا مـا تـأثر الشـاعر بالأفكـار الهنديـة أو اليونانية أو غيرهما نجد ذلك ظهر جليًا واضحًا فى شعره ...

يقول ابن قتيبة إن الثقافة الهندية تظهر فى قول أبى نواس فى الخمر:

تُخِـــيْرت والنجـــوم وقـــف　　　لم يـــتمكن بهـــا المـــدار

يريد أن الخمر تخيرت حين خلق الله الفلك، وأصحاب الحساب يذكرون أن الله تعالى حين خلق النجوم جعلها مجتمعة واقفة، فى برج ثم سيرها من هناك ، وأنها لا تزال جارية حتى تجتمع فى ذلك البرج الذى ابتدأها فيه، وإذا عـادت اليـه قامـت القيامة وبطل العالم، والهند تقول إنها فى زمان نـوح اجتمعـت فى الحـوت إلا يسـيراً منها فهلك الخلق بالطوفان وبقى منهم بقدر مـا بقـى منهـا خـارج بطـن الحـوت[1] ويذكر ابن قتيبة قول أبى نواس في بعض المغنين هاجياً:

- 1الشعر والشعراء صـ 774

قـل لـزهير اذا حـدا رشـدا　　أقلـل أو أكثـر فأنـت مهـذار

سخنت من شدة البـرودة حتـى　　صرت عنـدى كأنـك النـار

لا يعجب السامعون مـن صـفتى　　كـذلك الـثلج بـارد حـا ر

ويعلق بقوله: "هذا الشعر يدل على نظر أبى نواس فى علم الطبائع، لأن الهند تزعم أن الشىء إذا أفرط فى البرد عاد حاًّراً مؤذياً، ووجـدت فى بعـض كتـبهم : لا ينبغى للعاقل أن يغتر باحتمال السلطان وامساكه، فإنه إما شرس الطبع بمنزله الحيـة إن وطئت فلم تلسع لم يغتر بهـا فيعـاد لوطئهـا، أو سـمح الطبـع بمنزلـة الصـندل الأبيض البارد إن أفرط فى حكه عاد حارا مؤذياً".[1]

وأغلب الظن أن ابن قتيبة يريد ببعض كتبهم كتاب كليلة ودمنة الذى ترجمـه الفرس عن الهندية، ثم نقله ابن المقفع الى العربية وخلفه أبَّان بن عبدالحميد، فنظمـه شعرًا بكل ما فيه من قصص وحكم، وكان أثره عميقًا فـيما صـاغه العباسـيون مـن حكم وأمثال، ونرى "ابن عبدربه فى العقد الفريد" يتمثـل بحكمـة منـه هـى: "إن الحازم يكره القتال ما وجد بدا منه، لأن النفقة فيه من النفس والنفقـة فى غـيره مـن المال، ولاحظ أن أبا تمام نقل هذا المعنى إلى شعره فقال:

كـم بـين قـوم إنـما نفقـاتهم　　مـال وقـوم ينفقـون نفوسًـا

وقد أثرت اللغة الفارسية التأثير الأكبر فى نفوس الشعراء وذلـك يرجـع إلى إنهم إما من أصل فارسى – كأبى نواس – نشأ فى كنف الثقافة الفارسـية فحـذقوها وألموا بما جاء فيها، أو لأنهم طالعوها ووجـدوا إنهـا بلغـت شـأوا بعيـدًا فى الإلمـام بالعربية وإتقانها مثل العتابى الذى عكف على كنف الفرس، وحينما سئله أحدهم لما تعكف على كتب العجم؟ أجاب وهل المعانى والبلاغة إلا فى كتـب العجـم، اللغـة

1- العقد الفريد (طبع لجنة التأليف والترجمة).

لنا والمعانى لهم، كـذلك تـأثر الكتـاب بكتـابى ابـن المقفـع الأدب الكبـير والادب الصغير، وقد تناثرت الحكمة الفارسية فى كتب الأدب وتواترت على ألسن الشعراء متناولين المعانى بالشـرح والفكر بالإيضاح يقول بشار:

إذا بلـغ الـرأى المشـورة فاسـتعن بـرأى نصـيح أو نصـيحة حـازم

ولا تجعل الشورى عليك غضاضـة مكـان الخـوافى نـافع للقـوادم [1]

وإذا كانت الثقافة اليونانية قد غلب عليها النظرة الفلسفية، والتفكير العقـلى، والرؤية المنطقية، فقد تأثر بذلك الشعراء، وحاولوا استنباط ما دق مـن المعـانى وما خفى من الشعور والحس العميق الدفين أو السطحي الظـاهر واسـتكناه ذلـك كله بقدرة فنية عالية.

وقد تأثر أبو العتاهية بمراثى الإسكندر المقدونى التى ترجمت مـن اليونانيـة، فنجد هذا التأثير جليًا واضحًا عندما نقلها إلى مراثيه فى صديقه على بن ثابـت، مـن ذلك أن أحدهم وقف عند رأسه، وقال: سكنت حركة الملك فى لذاتـه وقـد حركنـا اليوم فى سكونه جزعًا لفقده، فأخذ هذا المعنى أبو العتاهية قائلاً:

يـا علــى بـن ثابـت بـان منــى صـاحب جـل فقـده يـوم بنتـا

قد لعمـرى حكيـت لى غصـص المـوت وحركتنـى لهـا وسـكنتا

وقال فيلسوف آخر: "الاسكندر كان أمس أنطق منه اليوم، وهو اليوم أوعظ منه أمس " فتمثله أبو العتاهية فى مرثية أخرى لصديقه على هذا النمط:

بكيتــك يا علــى بـدمع عينـــى فـما أغنـى البكـاء عليـك شـيا

كفى حزنك بدفنـــك ثـم أنـــى نفضت تراب قـبرك عـن يـديا

1-القوادم: الريش الطويل فى جناح الطائر.

وكانت فـى حياتـــك لى عظـات   وأنت اليوم أوعـظ منـك حيـا

وقد ساهم الفكر الاعتزالى فى تغيير العقل العربى وتطوير رؤيته وفكـره فقـد نال كثير من المعتزلة علمًا وفيًرا، واسـتوعبوا الكثـير ممـا نقـل عـن الهنـود والفـرس واليونان ، فظهر ذلك جليًا واضحًا فى مناقشاتهم، والحماس للدفاع   عن أرائهم ، وقد ظهر ذلك فى شعر كثير من الشعراء الذين تأثروا بالفكر الاعتزالى .. كبشار بـن برد، الذى استقى الفكر المعتزلى من واصل بن عطاء زعيم المعتزلة.

أنماط التجديد الشعري

ا- التجديد فى الموضوعات القديمة

استتبع هذا التقـدم الفكـري والحضرـي إعـادة النظـر فى الأغـراض القديمـة وتجديدها، وإضفاء الصبغة العصـرية بما امتازت من الرؤية العميقـة، والاستقصـاء للمعانى وتشعيبها ومن الموضوعات المتجددة الدلالة:

فن الوصف .... وقدعمد الشاعر العباسيإلى الاسـتمرار فى الوصـف؛ ولكـن التجديد أصاب هذا الغرض فقد أبقى البعض على وصف الراحلة والوقـوف عـلى الديار الداثرة، لكن ذلك أخذ عند الشاعر معنى آخر فقد رمزت وصف الرحلة الى وصف رحلته الشخصية فى الحياة، أما وصف الديار الداثرة فقد رمـزت إلى المـوت الملاحق للانسان فى كل حله وترحاله وحبهم الداثر يقول مسلم بن الوليد:

هَـلّا بَكـَيـتَ ظَعائِنـاً وَحُمـــولا   تَـرَكَ الفُــــؤادَ فِـراقُهُم مَخبـولا

فـإِذا زَجَـــرتُ القَلـبَ زادَ وَجيبُـهُ   وَإِذا حَبَسـتُ الـدَمعَ فـاضَ هُمـولا[1]

وَإِذا كَتَمتُ جَوى الأَسى بَعثَ الهَوى   نَفَسـاً يَكـونُ عَـلى الضَـميرِ دَلـيلا[2]

واهـــاً لِأَيـــّامِ الصِبـا وَزَمانِــهِ   لَـو كـــانَ أَسـعَفَ بِالمُقـامِ قَلـيلا

1واضح ان مسلم يخاطب نفسه كأنه يخاطب غيره ، والظغائن : النساء فى الهوادج . والحمول : ما يحملنه معهن
2جوى الاسى : ناره وحرقته

وإن كان الوصف غرض قديم معروف منذ الشعر الجاهلى إلا أن مجالاته تعددت فى العصر العباسى ... ولتعدد المرائى تعددت الأغراض، وكلها اتسمت بالدقة والعمق والتحليل والبراعة إضافة إلى ميلهم للاستقصاء والإحاطة بجوانب الموصوف والإلمام بها فى دقة وحصر ...ولم يصف الشاعر العباسى المرائى وصفًا مجردًا بل قرنوا الوصف بمشاعرهم وأحاسيسهم وانعكاس المرائى على نفوسهم، وبذلك خطا هذا الفن خطوات سريعة مختلفة عنه فى العصور السابقة.

وفن الوصف قد تعددت أغراضه وفنونه فى العصر العباسى منه:-

1 – **وصف الآثار** : حيث كان العصر العباسى مسبوقًا بعدة عصور، وكان لكل عصر منها حضارته وأمجاده ... منها ما بقى ... ومنها ما اندثر وصار أثرا بعد عين فإذا ما مر به الشاعر نجد أنه يقف أمامه متأملا تلك الأطلال الدارسة وينطلق لسانه واصفًا لها مستقصيا كل جزء فيها مثل وصف البحترى لإيوان كسرى يقول :

لَو تَراهُ عَلِمتَ أَنَّ اللَيالي ... جَعَلَت فيهِ مَأتَمًا بَعدَ عُرسِ

وَهوَ يُنبيكَ عَن عَجائِبِ قَومٍ ... لايُشابُ البَيانُ فيهِم بِلَبسِ

فهذا الإيوان الذى كان حافلًا بمظاهر النعيم والترف أصبح قبرًا يشيع فى النفس الخوف والرعب وهو مع ذلك ما زال رمزا لحضارة الفرس العريقة، وواضح أن البحترى عكس لنا فى هذه الأبيات ما يعانيه من أسى ولوعة وحرقة لما آل إليه القصر من خراب وتدمير.

كذلك وصف المعارك الحربية التى خاضها المسلمون ضد الفرس وكيف نالوا منهم وألحقوا بهم الضرر البالغ، والخسائر المتلاحقة.

ففى وصفه لمعركة أنطاكية، تأكـد لـك إلى أى مـدى تطـور فـن الوصـف فى العصر العباسى، فلقد أظهر البحترى براعة منقطعة النظير فى وصـفه لهـذه اللوحـة الكائنة على جدارالايوان، يقول:

وَإِذا مـا رَأَيتَ صـــورَةَ أَنطـــا كِيَّةَ اِرتَعــتَ بَيــنَ رومٍ وَفـــُرسِ

وَالمَنايــا مَواثـــــِلٌ وَأَنوشِــــر انَ يُزجى الصُـفوفَ تَحتَ الـدِرَفسِ

في اخضِرارٍ مِنَ اللِباسِ عَلى أَصــ ـــفَرَ يَختـــالُ في صَبيـــــغَةِ وَرسِ

وَعِــراكُ الرِجــالِ بَيــنَ يَدَيـــهِ في خُفـوتٍ مِـنهُم وَإِغـماضِ جَـرسِ

مِن مُشيحٍ يَــهوى بِعـامِلِ رُمـحٍ وَمُليـــحٍ مِــنَ السِنـــــانِ بِــتُرسِ

تَصِفُ العَيـنُ أَنَّهُم جِــدُّ أَحيـــا ءَ لَهُــم بَينَــهُم إِشـــــارَةُ خُـــرسِ

يَغتَلـــي فيـــهِم ارتِيابــي حَتّى تَتَقـــرّاهُمُ يـــَدايَ بِلَمــــــسِ

لإن البحترى قد عاش المعركة بكل مشاعره وأحاسيسه ،رأيناه وقـد وصـف المشهد وصفاً دقيقاً، فالمعركة بين الفرس والروم حامية الوطيس، مـن رآهـا أصـابه الرعب والفزع ، فها هو ذا كسرى هاجم بجمـوع جيشـه تحـت الرايـة الفارسـية ، يطحن جنود الروم طحنا ، ويسقيهم كئووس الهلاك والفناء، ويحرص البحترى على أن يصف ملابس جنود الفرس المختلفة الألوان ليرمز بذلك إلى عزهم وشجاعتهم، ويبعث الحياة والحركة فى وصفه ، فالقائـد يتحـرك فى كـل مكـان ، والجنـود رهـن إشارته، التحموا مع عدوهم فى معركة رهيبة، لا تسـمع فيهـا إلا – أصـواتاً خافتـة مبهمة ، هذا يرمى برمحه، وذاك يضـرب بسيفه، يرعـب مـن يـراه ، ويفـرض عليـه تساؤلات، ويوقعه فى حيرة، أتلك صورة فنان! أم حقيقة لا خيال! العين تشهد إنهم جد أحياء وأن المعركة حقيقية، ولا يزال البحترى أسير هذا الصرـاع النفسـى حتـى يقترب منها ويلمسها بيديه فيدرك أخيرًا أنه أمام لوحة فنان أجـاد نحتهـا وأبـدع فى

رسمها وتصويرها، أجمل ما يكون التصوير والإبداع المصور الخالق لرائع المعاني بكل تفاصيلها.

2 – **وصف الطبيعة الحية** : كان العصر العباسى يتسم بالمدنية والتحضر ولجمال الطبيعة حولهم فتن الخلفاء والولاة بالجمال فأبدعوا فى إجادة تشييد القصور، والدور، والطرقات ، فنجد الشاعر العباسى يستوقفه هذا كله فحين يصف الطبيعة يستطرف كل أبعادها وجمالها وأجزائها ؛ فلا يقف عند حد كما فعل الشعراء القدامى من مجرد الوصف العام من خلال أغراضهم المألوفة وإنما أفردوا لها القصائد ... وكان الوصف مقترنا بذواتهم متصلا بمشاعرهم يقول أبو تمام:

رَقَّت حَواشي الدَهرُ فَهيَ تَمَر ... مَرُوَغَدا الثَرى في حَليِهِ يَتَكَسَّرُ

نَزَلَت مُقَدِّمَةُ المَصيفِ حَميدَةً ... وَيَدُ الشِتاءِ جَديدَةٌ لا تُكفَرُ

مَطَرٌ يَذوبُ الصَحوُ مِنهُ وَبَعدَهُ ... صَحوٌ يَكادُ مِنَ النَضارَةِ يُمطِرُ

غَيثانِ: فَلاَنواءُ غَيثٌ ظاهِرٌلَكَ ... وَجهُهُ وَالصَحوُ غَيثٌ مُضمَرُ

يا صاحِبَيَّ تَقَصَّيا نَظَرَيكُما ... تَرَيا وُجوهَ الأَرضِ كَيفَ تَصَوَّرُ

تَرَيا نَهاراً مُشمِساً قَد شابَهُ ... زَهرُ الرُبا فَكَأَنَّما هُوَ مُقمِرُ

دُنيا مَعاشٌ لِلوَرى حَتّى إِذا ... جُلِيَ الرَبيعُ فَإِنَّما هِيَ مَنظَرُ

صُنعُ الَّذي لَولا بَدائِعُ صُنعِهِا ... عادَ أَصفَرَ بَعدَ إِذ هُوَ أَخضَرُ

ويقول البحترى متغنيا بنفسيته المشرقة التى تحاكى الطبيعة حوله:

أَتاكَ الرَبيعُ الطَلقُ يَختالُ ضاحِكاً ... مِنَ الحُسنِ حَتى كادَ أَن يَتَكَلَّما

وَقَد نَبَّهَ النَيروزُ في غَلَسِ الدُجى ... أَوائِلَ وَردٍ كُنَّ بِالأَمسِ نُوَّما

يُفَتِّقُهـا بـردُ النـدى فَكَأَنَّـهُ — يَبُثُّ حَـديثاً كـانَ أَمسِ مُكَـتَّما

وَمِـن شَـجَرٍ رَدَّ الرَبيـعُ لِباسُـهُ — عَلَيهِ كَـما نَشَّـرتَ وَشـياً مُنَمـنَما

أَحَـلَّ فَأَبـدى لِلعُيـونِ بَشاشَـةً — وَكانَ قَذىً لِلعَينِ إِذ كـانَ مُحـرَما

وَرَقَّ نَسيمُ الـريحِ حَتّـى حَسِبتَـهُ — يَجـيءُ بِأَنفـاسِ الأَحِبَّـةِ نُعَّـما

والبحترى يشدو بالطبيعة ويتغنى بها حتى فى أيام الشتاء الممطرة، وها هـو ذا يصف مطرا ، فيشبه المطر بالخير، ويجعل من صوت الريـاح العاتيـة وهـى تصـطدم بشجر الأثل لحنا رخاءًا ويجعل من الرياح والأمطـار أشخاصًـا يعتـذرون للريـاض والأشجار لتأخرهم عن سقوط الأمطار، وعظم الروض وقدمـه، فجعـل الأمطـار تحج إليه وتعتبر لتؤدى فرضًا عليها، وقد أدته، فاخضـر الشاطىء، وزدان بالأزهـار والورود، وأصبح نسيج وحده، واتخذ له شكلًا خاصًا كأنه هـلال أو سـوار ويجلي ذلك كله في أسلوب رقيق واصفاً باقة النرجس:

بَيضـاءُ إنْ لَبِسَـتْ بيَاضـاً خِلتَهـا — كالياسـمينِ منضـداً في مجلـسِ

وإذا بَـدَتْ في حُمْـرة، فكأنّهـا — وردٌ من الـداريّ حسـناً مكـنس

وإذا بَـدَتْ في حُفـرة، فكأنّهـا — نِسـرِينُ بُسـتانٍ كَـريمِ المَغـرِسِ

وإذا بَدَتْ في خُضـرَةٍ في صُـفرَة، — فكأنّهـا للحُسـنِ باقَـةُ نَـرجِسِ

وقد بلغ أبو تمام بالوصف مبلغًا كبيرًا، وله فيه القصائد الروائع ويعـد أبـو تمام النموذج لالتقاءالحضارة اليونانية الفارسية بالحضـارة الإسـلامية، وانفعـل بهـا واستجاب لطبيعة عصره من التغنى بهذا الجمال الماثل أمام عينه يقـول متحـدثاً عـن زينة الأرض:

تبرجـت بعـد حيـاء وخفـر — تـبرج أنثـى تصـدت للـذكر

وقد تحدث أيضاً ابن الرومى عن الورد ... والمعروف ابـن الرومـى متشـائمًا بطبعه ... يقول متحدًثا عن فضل النرجس على الورد – وكان يقلب الكلمات فقلب " اقبال " على " لا بقاء " فتشائم وفضل النرجس:

خَجِلتْ خُدودُ الـوردِ مِـن تفضـيله — خجـلاً تَورُّدُهـا عليـه شـاهدُ

للنرجس الفضلُ المبـينُ وإن أبيـآبٍ — وحـاد عـن الطريقـة حائـدُ

فصْـلُ القضيـة أن هـذا قائـد — زهـرَ الريـاض وأن هـذا طـاردُ

شتَّـان بـين اثنـين هـذا — مُوعدٌ يتسلب الدنيا وهذا واعـدُ

وإذا احْتَفَظتَ به فأمتـعُ صاحـبٍ — بحياتـه لـو أن حيَّـاً خالـدُ

3 –وصف المعارك الحربية

وصف الشعراءفي العصر العباسي ، كل ما يحيط بهم من أحداث وكل ما تـراه عيونهم من مواقف، ولا سيما فى المواقع الحربية يصف الشاعر كل ما تقع عليه عيناه مما جعل أشعارهم تسجيلات تاريخية حيث يسجل الشاعر ما تراه أعينهم .وفي هذا الصدد يقول د شوقي ضيف:– وكان الرشيد والمأمون والمعتصم يقودون بأنفسـهم الجيوش التى كانت تمحق البيزنطيين محقًا ، فتغنى الشعراء بانتصاراتهم غناء يكسب الفرحة فى كل نفس ، لعل من أروعه غناء أشجع شاعر البرامكة بفتح الرشيد لهرقلة فى آسيا الصغرى واكتساحه لجيش نقفور امبراطور بيزنطة وأكثر منه روعة غناء أبى تمام بفتح المعتصم لأنقرة، وحرقه لعمورية فى بائيتـه المشـهورة، وهـى أقـرب إلى أن تكون ملحمة أقـرب منهـا الى أن تكـون قصـيدة، وتكـتظ كتـب الأدب ودواويـن الشعراء بتصويرهم لبسالة جميـع القـواد، لا الـذين اسـهموا فى حـروب البيـزنطين فحسب، بل أيضاً فى حروب الـترك وبابـك الخرمـى وغـيره مـن الثـائرين فى شرق الدولة ، ولم يكتف الشعراءبهذا التصوير، فقد عنوا بتسجيل كل ما يسـتطيعون مـن

تفاصيل عن المعارك الحربية ، وبذلك لم تعد قصائدهم مديحا فحسب بـل أصـبحت أيضا تاريخًا ، وهو تاريخ كتب شعًرا، تاريخ أبطالنا وأمجادهم الحربية ، وكان هـؤلاء الأبطال ومن ورائهم الخلفاء يرصدون الجوائز الضخمة للشعراء كى يرسموا هـذه البطولات، ورسموها حقاً رسماً باهراً سنرى مقتطفات منه فى تضـاعيف تـراجمهم، ويكفى أن نسوق قطعة من تصوير على بن جبلـة لبطولـة أبـى دلـف العجـلى قائـد المأمون المشهور، إذ يقول من قصيدة طويلة يصـف فيهـا بعـض وقائعـه[1] المنايـا فى مقائبه والعطايا فى ذرا حجره:[2]

وزحـــــوف في صـــــواهله — كصـــياح الحشـــر في أَمَـــرِهْ[3]

قُدْتَـــه والمـــوتُ مُكـــتمِنٌ — في مذاكيـــــه ومُشـــــتجره[4]

فرمـــت جيولـــه منـــه يـــدا — طــوت المنشــوور مــن بطــره[5]

زرتـــه والخيـــل عابســـة — تحمــــل البــؤس إلى عقـــره[6]

فأبحـــت الخيـــل عقوتـــه — وقربــت الطــير مــن جــزره[7]

صــــاغك الله أبـــا دلـــفٍ — صـــيغة في الخلـــق في خـــيره

كـــل مـــن في الأرض مـــن — عــرب بــين باديــه إلى حضرــه

مســــتعير منــــك مَكرُمـــةً — يكتســـيها يـــوم مُفْتخـــرِه

1- طبقات الشعراء لابن المعتز صـ 175 والاغانى (طبعة الساسى) 18 / 103
2- المقائب : جماعات الخيل ، ذرا الحجر فناؤها
3- زحوف : صفة مبالغة من الزحف ، يريد الجيش والامر : الكثرة
4- المذاكى : الخيل ، والمشتجر : القنا والرماح
5- جيلوه : من ثوار اذربيجان ، البطر : الطغيان بالنعمة
6-العقر : محلة القوم
7-العقرة : ساحة الدار ، والقرى : الضيافة ، والجرز : ما يذبح

الفخـر:

فاخر الشاعر العباسى بنفسه وفعاله وقومه، ومن ينتسب إلـيهم ولكنـه قلـل من التعصب والفخر القبلى، وإن كان البعض منه لا زال موجوداً يقول د / شـوقى ضيف: وعلى هذا النحو أصـبح العقـل العربـى فى العصــر العباسـى الأول عقـلًا متفلسفًا كما أصبح عقلاً علميًا، لا من حيث فهمه وفقهه بعلوم الأوائل بل أيضاً من حيث اسهامه فيها واضـافاته الجديـدة حتـى ليضـيف علومًـا لأول مـرة فى تـاريخ الحضارة الإنسانية على نحو ما أضاف الخوارزمى علم الجبر ، وكان هذا العقل قـد أظهر نضجه العلمى وأحكامه لوضع العلوم منذ القرن الثانى ، ممـا نـراه متجليـا فى العلوم اللغوية، والدينية، ومباحث التاريخ وعلم الكلام .

يقول عوف بن محلم الخزاعى:

وانى لذو حلم على أن سورتى إذا قــوم حميــت بهــم عــرضى

وإنى لأجزى بالكرامـة أهلهـا وبالحق حقدا فى الشدائد والخفـض

وهى أبيات تعلى من شأن المروءة والكبرياء ويقول بكر ابن النطـاح موضـحًا خصوصية ما امتازوا به عن سائر الناس:

ومن يفتقر من يعـش بحسـامه ومن يفتقر من سائر الناس يسأل

وإنا لنلهو بالسيوف كـما لهـت فتـاة بعقـد أو سحــاب قرنفـل

فالفخر قديم ولكن الصور التى صب فيها الفخر اتسـمت بالجـدة والحداثـة، لاختلاف العقلية العباسية عن سابقتها إضافة للتحضر المجتمعي.

الرثـــاء: ملىء العصـر العباسى بالأبطال فى السلم والحرب ففـى السـلم كثر الجُوَّاد ، ومن يبذلون للناس ويعطونهم فانطلقت الألسـن تمجـد صـنيعهم ....

وفى الحرب كثر الأبطال وأصحاب الشجاعة والبسالة فإذا ما مات هؤلاء أو اولئك انطلقت الألسن ترثيهم حـر الرثـاء وتبـين مقـدار الفجيعـة بفقـدهم والألم لمـوتهم كالمراثى التى كانت فى البرامكة حين نكبهم الرشيد يقول الشاعر:

حوت أنجم الجدوى وشلت يد الندى وغاضت بحار الجـود بعـد البرامـك

هوت أنجـــم كانـت لابنـاء برمـك بهـا يعـرف الحـادى طريـق المالـك

وإذا ما كان المرثى بطلاً مغواراً ... فتكون مرثيته بمثابة دفعـة تـدفع الأحيـاء للاستشهاد تحت ظلال السيوف مثل مراثى ابوتمـام بـن محمـد بـن حميـد الطوسـى الطائي، فإنه أوقع ببابك وجنوده لعهد المـأمون وقـائع ملأتـه هـو وعسـكره فزعـاً ورعباً، ولكن حدث فى آخر وقعة أن اندفع ابن حميـد فى ضـيق حـرج ، والتـف بـه جنود بابك، فظل قائمًا يدافعهم ويقاومهم لا يتزحزح عن موضعه ، حتى إذا أُحـيط به لم يستسلم ولم يلق السلاح، بل قاتل حتى قتل عزيزًا كريمًا، وحزنت الأمـة حزنًـا عميقًا لموته، وانبرى أبو تمام يرثيه مراثى رائعـة تصـور جَلَـده فى القتـال وصـبره فى النضال حتى الموت الزؤام، على نحـو مـا يلقانـا فى مرثيتـه العينيـة، التـى اسـتهلها استهلالاً بديعاً بقوله:[1]

أصم بك الناعى وإن كـان أسـمعا وأصبح مغنى الجود بعدك بلقعـا[2]

وفيها يقول:

فَتًى كُلَّما ارتادَ الشُّجَاعُ مِنَ الرَّدَى مفراً غداةَ المأزقِ ارتادَ مصرعا[3]

فإنْ ترمَ عنْ عمرٍ تدانى به المديف خَانَكَ حتَّى لم يَجِدْ فيكَ مَنْزَعَا[4]

1الديوان (طبعة بيروت) صـ 335
2المغنى : المنزل ... البلقع : الحالى
3ارتاد : طلب ، الردى : الموت
4المنزع : مكان نزع السهام من القوس والتشبيه واضح

فَمَا كُنْتَ إلاّ السَّيفَ لاقَى ضَرِيبَةً   فَقَطَّعَها ثُمَّ انثَنَى فتَقَطَّعَا![1]

ومن الأبطال الذين أبكاهم الشعراء منصور بن زياد ، وقد أبلى لعهد الرشيد فى القضاءعلى ثورة بالقيروان، ووافاه القدر فرثاه عبد الله بن أيوب التيمى بقصيدة بديعة يقول فى تضاعيفها.[2]

أَمّا القُبُورُ فَإِنَّهُنَّ أَوانِسٌ   بجُوارِ قَبرِكَ وَالدِيارُ قُبورُ

والناس مأتمهم عليه واحد   فى كل دار رنة وزفير

عجبا لأربع أذرع فى خمسة   فى جوفها جبل أشم كبير

ولعل بطلا لم تذرف دموع الشعراء عليه كما ذرفت على يزيد بن مزيد الذى فتك بخوارج الموصل فتكة لم تقم لهم بعدها قائمة، وفى تأبينه يقول منصور النمرى[3].

وإن تك أفنته الليالى وأوشكت   فإن له ذكرا سيفنى اللياليا

وأبرز ما تتسم به هذه الأشعار هو دقة التفكير وبعد الخيال، ونلقى ذلك دائماً فى تأبيناتهم، إذ كانوا يتنافسون فى استنباط المعانى النادرة، ومن طريف ذلك قول مسلم بن الوليد فى رثاء شخص وقد استحضرمعانى جديدة منها.[4]

أرادوا ليخفو قبره عن عدوه   فطيب تراب القبر دل على القبر

1-الضريبة : الرجل المضروب بالسيف
2-ديوان الحماسة بشرح المرزوقى (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) صـــ 950 .
3-العقد الفريد 3 / 287
4-الديوان صـــ 320

وقد ارتبط الرثاء بظاهرتين:

1 – **التعـزى بـالأمم السـابقة** وأن الأحيـاء حـتما سيصـيروا أمواتـا وأنـه لا بقـاء ولا ديمومة لأحد يقول بن المنذر فى تأبين عبدالمجيد الثقفى:

كـل حـي لاقـي الحـمام فمـودي ... مـا لحـي مؤمـل مـن خلـود

لا تهاب المنـون شـيئاً ولا ترعـي ... عـلى والـد ولا مولـود

يقدح الدهر في شـماريخ رضـوى ... ويحـط الصـخور مـن هبـود

ولقـد تـترك الحـوادث والأيـام ... وهيـاً في الصـخرة الجلمـود

يفعـل الله مـا يشـاء فيمضـى ... مـا لفعـل الإلـه مـن مـردود

فكأنـا للمـوت ركـب محثـون ... سُراع لمنهـل مـورود

2 – **التفجع وشدة الحزن** : على المتوفى سواء أكان صـديق أو ابـن أو زوجـة ويبـين لوعـة الفـراق وعظـم المصـاب بـل ويتمنـى الشـاعر لـو بـدلت الأمـاكن والمصائروالحتوف فيكون هو المُرْثى والمرثي راث .يقول بشار :

أشرب على تلـف الأحبـة إننـا ... جـزر المنيـة ظـاعنين وخفضـا[1]

ويـلى عليـه وويلتـى مـن بينـه ... كان المحب وكنت حبـا فانقضـى

قد ذقـت إلْفتـه وذقـتُ فراقَـه ... فوجدت ذا عسلا وذا جمر الغضـا[2]

1- جزر : جمع جزور وهو البعير الذبيح ، ظاعنين : سائرين ، خفضا : جمع خافض وهو المقيم .

2-الغضا : من شجر البادية

يقول العتبى فى ابن اختطفه الموت فى ريعان شبابه:

وقاسمني دهري بني بشطره ... فلما تقضى شطره عاث فى شطرى[1]

ألا ليت أمى لم تلدنى وليتنى ... سبقتك إذ كنا إلى غاية نجرى

وكنت به أُكَنَى فأصبحت كلما ... كنيت به فاضت دموعى على نحرى

وقد يرثى الشاعر زوجه ويوضح كيف حزن وتفجع لفقدها ويُتِم طفله الصغير وفقدحنان أمه : يقول مصورًا المشاعر الإنسانية الفياضة في صورة لافتة .

ألا من رأى الطفل المفارق أمّه ... بعيد الكرى عيناه تنسكبان[2]

رأى كلّ أمّ و ابنها، غير أمّه ... يبيتان تحت الليل ينتحيان

و بات وحيدا في الفراش تجنّه ... بلابل قلب دائم الخفقان [3]

فلا تلحياني إن بكيت فإنّما ... أداوي بهذا الدمع ما تريان[4]

فهبني عزمت الصبر عنها لأنني ... جليد، فمن بالصبر لابن ثمان

ضعيف القوى لا يطلب الأجر حسبة ... ولا يتأسي بالناس في الحدثان [5]

و يضاف إلى ما سبق من مراثي ذكرهم الطير والحيوانات ورثائهم له ، كقول أحدهم يرثى شاته ...

عين أبكى لعنزتنا السوداء ... كالعرس الأدماء يوم الجلاء

1يريد ان الدهر قاسمه بنيه إذ أخذ نصفهم وأبقى له نصفا ثم عاد يعيث فى نصفه ونصيبه .
2الكرى : النوم ، تبتدران : تسحان وتنهمران بالدموع
3تجنه : تلفه وتشتمل عليه
4لا تلحياني : لا تلومانى
5حسبه الأجر : احتساب الثواب عند الله بالصبر على نزول الموت ، الحدثان : نوائب الدهر

العتاب والاعتذار

قد يعتذر الشاعر العباسى برقيق القول، ولطيف الحديث ؛ليستل سخيمة المعتَذر إليه يقول أبو دلف معاتبًا :

ومن لى بالعين التى كنت مرة إلى بها من سلف الدهر تنظر

ويقول آخر معتذرا للفضل بن الربيع وقد سخط عليه سخطًا شديدًا :

إن كان جرمي قد أحاط بحرمتي	**فأحط بجرمي عفوك المأمولا**
فكم ارتجيتك في التي لا يرتجى	**في مثلها أحد فنلت السولا**
وضللت عنك فلم أجد لي مذهباً	**ووجدت حلمك لي عليك دليلًا**
هبني أسأت وما أقر كي	**يزداد عفوك بعد طولك طولا**
فالعفو أجمل والتفضل بامرئٍ	**لم يعدم الراجون منه جميلا**

الغـزل:-

عاش المجتمع العباسى حياة خاصة حيث كثر الاختلاط بين الرجال والنساء،وكثرت الجوارى والقيان فأدى ذلك إلى وجود الغزل وبكثرة فالجارية تريد أن تشتهر فتعشق الشاعر ، وهو يريد أن يشيع شعره فينظم فى الجارية ، مع وجود بيئة تميل إلى البعد عن الدين والغرق فى الملذات والشهوات فشجع ذلك على وجود شيئين ... إما غزل إباحى .... يستبيح فيه الشاعر كل ما يريد قوله بالغلاميات وكثير من الشعراء سار على هذا النهج استهتارا ومجونا .

يقول:

اخلَــــع عَــــــذارَكَ في الهَـــــوى وَاشرَب مُعَتَّقَــــــةَ الـــــدِنانِ

وَصِـــــلِ القَبـــــيحَ مُجـــــاهِراً فَــــالعَيشُ في وَصـــلِ القِيـــانِ

لا يَلهِيَنَّـــــــكَ غَــــــيرُ مـــــا تَهـــوى فَـــإِنَّ العُمـــرَ فـــانِ

ورغم ذلك فإن هذا لا ينفى وجود نوع من الغزل الراق أو الحب الافلاطـونى البرىء العفيف الغير مرتبط بمادة أو جسد ... يقول بشار بن برد :

دعـــا بفـــراق مـــن تهـــوى أبـــان ففـاض الـدمع واحـترق الجنـان

كـــأن شرارة وقعـــت بقلبـــــى لهـا فى مقلتـى ودمـى اسـتنان [1]

إذا انشـــدت أو نســـمت عليهـــا ريـاح الصـيف هـاج لهـا دخـان

كذلك تحدث عن هذا الحب أبو نواس ومسلم بن الوليد ... يقول أبو نواس:

كـــأن ثيابـــه اطلعـــــــــ ـــــن مـــن أزراره قمـــــرا

يزيـــــدك وجهـــــه حســــنا إذا مـــا زدتـــه نظـــــرا

بعـــــين خـــــالط التفتـــــ ـــــير مــن أجفانهــا الحــوار

وخـــــد ســـــابرى لـــــو تصـــوب مـــاؤه قطـــــرا

وبهذا كلـه يكـون الغـزل مـن الأغـراض التـى اسـتمرت عـلى مـر العصـور ...تعددت طرائقه وتنوعت سبل اتيانه وهو مـا حـدث فى العصرـ العباسـى الأول فمن الشعراء من التزم العفة والرقى فى الأداء والتعبـير ، ومـنهم مـن انصرـف الى الشراب واللذة والطرب عاثين مـع أهـل العبـث مـن الجـوارى والغلـمان والقيـان

1استتنان : جرى شديد

والغلاميات ، فكان الأول أرباب الغزل العاطفى بينما كـان الأُخـر عصـبة ماجنـة تقطف اللذة وتتبع الشهوات فى كل طريق .

التجديد فى الألفاظ والأساليب الشعرية

اختلفت الحياة فى العصر العباسى تبدل الشظف ترفًا، والفقر غنـى ، والبـداوة حضارة .. وقد اكتسى كل شىء بالترف أمام الشاعر حيث أحاطت البهجة والمناظر الخلابة بالشعراء أينما توجهوا فسارت الألفاظ نحو الرقة واتجهـت التعـابير الى دقـة النسج ، وبراعة التصوير ، ودماثة التعبير ، كما سـادت الزخـارف والزينـة التعـابير المختلفة ، بل الموسيقى الشعرية أيضا طالتها عصى التغيـير فصـارت الأوزان ذات إيقاع عالى يحرك الوجدان ويهز المشاعر ويؤثر فى الأحاسيس ... ونسـتطيع ان نشـير الى بعض سمات الأساليب والألفاظ الشعرية فى العصر العباسى وقد تجلى ذلك في .

1- **التحديث فى المعانى القديمة** : تصرف العباسيون الجدد فى المعانى القديمـة، لكنهم تصرفوا فيها بناء عـلى البيئـة المحيطـة وتفكـيرهم ، وثقـافتهم، فـزادوا وانتقصـوا فيهـا بنـاء عـلى رؤيـتهم إضـافة إلى التوكيـد والتحليـل والدقـة والاسـتدراك فلبسـت لبـاس الجـدة والطرافـة فسـبق الجـدد الأقـدمون فعندما قال النابغة :

فإنك كالليـل الـذى هـو مـدركى   وإن خلت أن المنأى عنك واسـع

رأينا رفض الشاعر العباسى هذا المعنى باعتبار أن الليل والنهار يتساويان فـيما يدركان وكأنه ينبغى للشاعر أن يأتى بشىء لا قسيم له فيه حتى يكون معناه متفـرداً فقال:

فأنـــت كالـــدهر مبثوثـــا حبائلـــه   والدهر لا ملجأ منـه ولا مهـرب

ولـو ملكـت عنـان الـريح أسـوقها   فى كل ناحيـة مـا فاتـك الطلـب

2 -**ابتكار المعانى ودقتها** : ابتكارات العباسيين تفوق الحصر نتيجة للحضارة المحيطة لهم، والثقافة المتواجدة حولهم فعمدوا الى الإحصاء، والاستقصاء إضافة إلى جديد المعانى وطريفها ... يقول أبو تمام :

تكـــاد عطايـــاه يجنجنونهـــا إذا لم يعوذهـــا بنغمـــة طالـــب

ويقول بشار :

يـــا فـــؤادى أذنـــى لـــبعض الحـــى عاشـــقة والأذن تعشـــق قبـــل العـــين

قـــالوا بمـــن لا تـــرى تهـــذى قلت الأذن كالعين توفى القلب مـــا كـــان

3 – **سهولة الألفاظ ورقتها** : رقت الأساليب وسهلت الألفاظ نتيجة لسهولة الحياة، ويسرها إضافة إلى أن الشاعر يخاطب جمهورًا هو مزيج من العرب والعجم القريبى العهد بالعربية، فلابد أن يسهل لفظه ليفهمه المتلقين وليس المقصود بالسهولة الإبتزال أو الركاكة وإنما هى سهولة نشأت من تأثر الشاعر بيئته المحيطة، لكنه كان متمكنًا من لغته وأحاط بثقافة عصره، وتشبع بالجو المحيط به المائل إلى البساطة والوضوح يقول إبراهيم الصولى مادحاً الفضل بن سهل:

لفضـــل بـــن ســـهل يـــد تقـــاصر عنهـــا المثـــل

فباطنهـــا للنـــدى وظاهـــرها للقبـــل

ونائلهـــا للغنـــى وســـطوتها للأجـــل

ولعل هذه الرقة التى جرت على نهج المطبوعين هى التى جعلت الراوية المشهور أبا عبيد يقول : " **ما حفظت شعرًا لمحدث إلا قول أبى نواس :**

كــأن ثيــــابه أطـــلــــع ن مــــن أزراره قمـــرا

يزيـــدك وجهـــه حســـناً إذا مـا زدتـه نظـــرا

بعـــين خـــالط التفـتيـــر مــن أجفانهـا الحــورا

وخـــد ســـابري لـــو تصـوب مـاؤه قطًـرا

يقول أبو نواس متظرفاً:

أَتـــاني عَنــكِ سَـــبُّكِ لي فَسُـــبّي أَلَيسَ جَرى بِفيكِ اِسمي فَحَسبي

وَقــولي مـا بَــدا لَــكِ أَن تَقــولي فَمـــا ذا كُـــلُّهُ إِلّا لِحُبّـــي

وتتفق شطور كل دور فى قافية واحدة ما عدا الشطر الأخير فإنه يستقل بقافية مغايرة، وفى الوقت نفسه يتحد فيها مع الشطور الأخيرة فى الأدوار المختلفة، ومن أجل ذلك يسمى عمود المسمط فهو قطبه الذى يدور عليه وانما تسمى مسمطًا من السمط ، وهو قلادة تنظم فيها عدة سلوك تجتمع عند لؤلؤة أو جوهرة كبيرة وكذلك كل دور فى المسمط تجمع مع الأدوارالأخرى فى قافية الشطر الأخير، **ومن أمثلة المسمط المربع خمرية لأبي نواس يقول:**

ســــــلاف دن كشـــمس دجـــن

كـــدمع جفـــن كخمـــر عـــدن

طبـــيخ ســـمس كلـــــون ورس

ربيـــب فـــرس حليـــف ســـجن

يـــا مـــن لحـــاني   عـــلى زمـــاني

اللهـــو شـــاني   فـــلا تلمنـــي

فشـطورها عـلى تفعيلـة واحـدة وشـاعت المسـمطات المخمسـة، فـالأوزان والقوافى، قد لحقها التجديد فى العصر العباسى ، شأن العناصر الأخرى التى تأثرت بالحضارة الجديدة. **ويتحدث النواسي عن نفسه مخاطبًا يحى بن خالد البرمكى:**

كم مـن حـديث مُعجـب لى عنـدكا   لـو قـد نبـذت بـه إليـك لسرـك

انـى انـا الرجـل الحكيـم بطبعـه   ويزيد فى علمى حكايـة مـن حكـى

أتتبـع الظرفـاء أكتـب عنهـم   كيما أحـدث مـن لقيـت فيضـحكا

فالألفـاظ كـما نـرى سـهلة رقيقـة .. وفى الوقـت ذاتـه بعيـدة عـن الإبتـذال أو الركاكة .

4 – **استقصاء المعانى وتعليلها** : عمد الشعراء العباسيون الى الإلمام بكل ما يتصل بالمعنى واستيفاء أجزائه والإشارة الى كـل مـا يتصـل بـه مـن عنـاصر ، فطالت قصائدهم وذلك يرجع للثقافة، والحيـاة الجديـدة التـى وجـد الشـاعر العباسى نفسه، **فيها يقول إسحاق ابن ابراهيم الموصلى:**

أخاف عليه العين مـن طـول وصـلها   فأهجرها الشهرين خوفـا مـن الهجـر

ومـا كـان هجـراني لهـا مـن مـلامة   ولكنـي أملـت عاقبـة الصـبر

أفكـر في قلبـي بـأي عقـوبة   أعاقبـه فـيكم لترضـوا فـما أدري

سوى هجركم والهجر فيـه دمـاره   فعاقبتـه فـيكم مـن الهجـر بـالهجر

فكنت كمن خاف النـدى أن يبـله   فعـاذ مـن الميـزاب والقطـر بـالبحر

أ – **التعابير الأعجمية :** زينت الأبيات الشعرية كثير من الألفاظ الأعجمية ... اما أعجمية صرفه بقيت على عجمتها – أو عربت وهذا يرجع لأن بعض الشعراء لم يكونوا عربا خلصا وهذا يرجع لتظرفهم أو بدافع الشعوبية .

ب – **تعبيرات علمية :** ظهرت التعبيرات العلمية في الشعر نتيجة للنهضة العلمية والتطور فى المعارف فتسللت كثير من الألفاظ العلمية إلى الأبيات الشعرية، وظهرت جلية فى أبياتهم كألفاظ المتناهى والتجزر والمعاد و**ظهر ذلك جلياً عند أبى نواس يقول :**

صاغهم ذو الجلال من جوهر المجد   وصاغ الأنام من عرضه

ويقول:

وذات خد مورد   قوهية المتجر

تأمل العين منها   محاسنا ليس تنفد

فبعضها قد تناهى   وبعضها يتولد

والحسن في كل عضو   منها معاد مردد

ويقول أيضاً:

يا عاقد القلب مني   هلا تذكرت حلا

تركت قلبي قليلاً   من القليل أقلا

يكاد لا يتجزأ   أقل في اللفظ من لا

يقال إن النظام سمع منه هذه الأبيات **فقال له:** "أنـت أشـعر النـاس فى هـذا المعنى والجزء الذى لا يتجزأ – منذ دهرنا الأطول نخـوض فيـه مـا خـرج لنـا فيـه من القو ل ما جمعت أنت فى بيت واحد ومن ذلك:

كمـــن الشـــنان فيـــه لنـــا ككمـــون النـــار فى حجـــره

ونظرية الكمون إحدى النظريات التى تحاور فيها النظام مع بعض معاصريـه طويلا، إذ كان يرى أن الله ﷻ خلق الموجودات دفعة واحدة ، ثم اكمـن بعضـها فى بعض على نحو ما أكمن فى آدم ابناءه ، ومما كان يحاوره فيه أبو نـواس فكـرة صـدق الوعد والوعيد على الله وهى إحـدى الأفكـار الأساسـية فى عقيـدة المعتزلـة ، وقـد جعلتهم يرفضون فكرة العفو التى قال بها المرجئة والتى تذهب الى أن الله مـن حقـه أن يترك وعيده لمن أجرم وارتكب الكبائر ، فيسدل عليه أستار عفوه .ويقول النقـاد إن أبا تمام أفرط فى استخدام البديع حتى أفسد ثلث شعره

يقول:

هب من له شىء يريـد حجابـه ما بال لا شـىء عليـه حجـاب

وكلمة " لا شىء " اصطلاح المتفلسفة وتعنى العدم . ويقول أبو نواس:

وقد خفيت من لطفهـا فكأنهـا بقايا يقـين كـاد يذهبـه الشـك

وهو متأثر بمذهب المتكلمين ومصطلحاتهم وتجريداتهم يقول واصفًا الخمـر على إنها خفية لطيفة لا تتكشف وقد أطلق عليها جوهر الكل:

توهمتهـــا فى كأســـها فكأنـــما توهمت شيئا لـيس يـدرك بالعقـل

وصفراء أبقى الدهر مكنون روحها وقد مات من مخبورها جوهر الكل

فما يرتقـــى التكييـف منها إلى مدى تحـــد بـــه إلا ومـــن قبـــله قبـــل

5 – تزيين الكلام وتجميل الصياغة : كثـرت الحـلى اللفظيـة فى شـعر الشـاعر العباسى وعمد الى تجميل صياغته وتمليها، وقد شاع فى البديع بأجزائه المتعـددة مـن رد العجز على الصدر، والطبـاق، الجنـاس، حسـن التقسـيم، وغيرهـا مـن أقسـام البديع، ومن الشعراء الذين استعملوا قلب المحسنات: بشار، مسلم، العتابى وكـان استخدامهم مقتصدًا فيه أما أبو تمام فقـد أسرف فى اسـتخدامه وزاد زيـادة مفرطـة يقول:

تـدبير معتصـم، بـالله منـتقم ... لله مرتقــب، فى الله مرتغــب

ويقول:

المـوت بـين الخلـق مشـترك ... لا سـوق يبقـى ولا ملـك

مـا ضر أصـحاب القليـل ومـا ... أغنى عـن الأمـلاك مـا ملكـوا

يقول بشار:

وغـادة سـوداء براقـة ... كالمـاء فى طيـب وفى لـين

كأنهـا صـيغت عـن ناهـا ... مـن عنـبر بالمسـك معجـون

ويقول بشار:

أبيت أرمـد مـا لم أكتحـل بكـم ... وفي اكتحـال بكـم شـافٍ مـن الرمـد

رقت لكم كبدى حتى لو أنكـم ... تهونـأن لا أريـد العـيش لم أرد

كَأَنَّ قَلبِي إِذَا ذِكْـرَاكُم عَرَضَـتْ ... من سحر هاروت أو ماروت في عقـد[1]

ما هبت الريح من تلقاء أرضكم ... أَلاَّ وَجـدْتُ لَهَـا بَـرْداً عـلى الْكَبِـدِ

يروق قلبـي وتـزدادين لي غلظـاً ... مـا ذاك فـيما أرجـي منـك بالسـدد[1]

---

1 -العقد: ما بنفثه الساحر بزمزمته لغرض السحر

تحرَّجِي بِالْهوى إِنْ كُنْـتِ مُؤْمِنـةً   بـــالله أن تقـــتلي نفســاً بـــلا قـــود [2]

وبذلك يكون الشعر العباسي، قد كثرت فيـه الحـلى اللفظيـة، وشـاع البـديع شيوعًا ملحوظًا، ازدانت به عوالم الصياغة الأدبية الشاعرة .

التجديد فى الأوزان والقوافى

كان للغزل الذى شاع فى العصــر العباسـى لفضـل السـبق فى تجديـد الأوزان والقوافى حيث كثر الغناء للأبيات الغزلية، وعلم النـاظمون ذلـك ورغبـوا فيـه لمـا يوفره من شيوع أشعارهم واستشهارها، ويجليه من عطايـا الخلفـاء ومـنحهم، لـذا عدلوا عن الأوزان الخفيفة البسيطة وطوروا القديم حتى توصل الوليد بن يزيـد الى المجتث ونظم فيه مقطوعات، وذلك لأن الشـاعر إذا مـا اضـطر الى الـوزن القـديم أدخل عليه كثير من الزحافات والعلل للتقطيع الـذى يحدثـه فيـه ليصـلح للغنـاء، واللغة بذلك قد اتسمت بالرقة والسهولة، ومضـى الشـعراء ينتظمـون فى المجـزوء والخفيف، أما الأوزان الطويلة فقد خصت بالشـعر الرسـمى مـن نحـو المـديح، و الرثاء، ومن الشـعراء الـذين استعملوا المجـزء سـواء أكـان فى الخفيـف أو البسيط الكامل أو الرمل أو الهزج مطيع بن أياس يقول:

ويـــــلى لمـــــن جفـــــانى   وحبـــــه قـــــد برانـــــى

وطيفـــــــه يلقـــــــانى   وشخصـــــه غـــــير دانـــــى

أغـــــر كالبـــــدر تعشـــــى   بحســـــنه العينـــــان

وانتشر وزنا المضارع والمقتضب أما المضارع مفـاعيلن مفـاع لاتـن مفـاعلين ودائماً تحذف هذه التفعيلة الأخيرة ومنها قول أبي العتاهية:

1-السدد: السداد والصواب
2-السدد: السداد والصواب

أيـــا عتـــب مـــا يضــــرك أن تطلقـــــــى صـــــــفادى

وأما المقتضب فأجزاءه مفعولات مستفعلن مستفعلن وتحـذف منـه التفعيلـة الأخيرة أيضا يقول أبو نواس:

حامـــــل الهـــــوى تعـــــب يســــــــــتخفه الطــــــــــرب

إن بكـــــــى يحـــــــق لـــــــه لـــــــيس مــــــا بــــــه لعـــــب

وقد شاع المقتضـب وأكثـر الشـعراء الـنظم فى أطـاره بيـنما أهمـل المضـارع، وتوصل الشاعر العباسى الى الخبب والمتدارك وقيـل إن الخليـل لم يسـجله فى عروضه انما سجله تلميذه الأخفش وهو لم يسمه لكن نظم فى إطاره.

أبكيـــت عـــلى طلـــل طربـــا فشـــجاك وأحزنـــك الطلـــل

وبلا جدال قد نفع الخليل الشعر ، إذ أوجد أوزانـا جديـدة مسـتخدمًا فكـرة التباديل والتوافيق الرياضية فى وضع عروض الشعر، فأوزانه تدور فى خمـس دوائـر أو أجزاء مكونة من الأسباب والأوتاد ... فأحصـى الأوزان المسـتخدمة وتوصـل من خلالها الى أوزان أخرى مهملة . وبذلك يكون قـد ظهـرت أشـكال جديـدة فى الوزن مثل المسمطات ... وهى قصائد تتألف من أدوار، وكل دور يتركب من أربعة أشطر أو أكثر ويعد هذا كنوع من التجديد في الأوزان والقوافي في الشعر في العصر العباسي.

النثر الفنى

صاحب فكرة تطور الشعر فى العصر العباسى تطور النثر واختلاف مشاربه وتنوع موضوعاته وتعدد مجالاته ...

فإن كان أدئه اللسان كان خطبه ...وإن كان أدائه القلم كان كتابة ... وكلا النوعين طالته يد التطور والتجديد نتيجة للتعبيرات التى توالت على الحياة فى العصر العباسى ، فقد دخل كثير من العلوم والألفاظ والمعارف اليونانية والفارسية والهندية وغيرها إلى العقل والفكر العربى ... وكل هذا كان من خلال عدة طرق منها : النقل والترجمة ... تلك الطريقة التى أولاها العباسيون عنايتهم الخاصة وتوسعوا فيها وأجزلوا فيها العطاء كذلك فعل وزرائهم كآل برمك ... أو انتقال الشعوب الى الإسلام ... من خلال اعتناقهم إياه أو معاشرتهم ومخالطتهم للمسلمين ونقلوا معهم الى العربية علومهم ومعارفهم وأفكارهم ، وكانوا متقدمين فى النواحى الفلسفية والطبية – كما أشرت سلفا ... فضمت معارفهم إلى العربية التى شملتها واستوعبتها، بل وطور أصحابها تلك المعارف وسهلوها، وهناك طرق أخرى كنشاط الأفراد فكثير من الأجناس الأخرى اهتموا بالعربية وحرصوا على التبادل الثقافى المشترك يأخذوا منها معارفها إضافة إلى ما يمتلكوه من علوم وأفكار وآراء كابن المقفع .. أل نوبخت وغيرهما .

والملاحظ أن هذه العلوم والمعارف استوعبتها العربية بترحاب واقتدار ... ليس هذا فحسب ... بل ذابت فى العربية فصارت علومًا عربيَّة خالصة، وكأنها لم تنتقل من خلال أقلام وعقول غيرها ، وبذلك تعددت مجالات النثر وتوسعت شعبه فصار فيها النثر التاريخى والنثر العلمى ، والنثر الفلسفى ليس هو المترجم فقط أو المنقول من اللغات الأخرى .. بل أيضا تفتحت الأذهان العربية نتيجة

للعناية بالعلم والعلماء، فوضعت العلوم الشرعية واللغوية ، وصار الأمـر فى تطـور حتى استطاع العرب وضع مؤلفات فى الكيمياء والرياضة الطبيعية ، وكما أفاضوا فى المجال العلمى أدلوا بدلوهم فى المجال الفلسفى – وخاصة المتكلمين فقـد اسـتطاع المعتزلون أن يوصفوا معارفهم وأفكارهم فى مؤلفات قيمـة تعكـس مـدى التطـور العقلى والإزدهار الفكرى الذى وصلوا إليـه فقـد ألـف الشهرسـتانى كتابـه الملـل والنحل يعرض لمذاهب المعتزلـة المختلفـة ومـا يقولونـه فى الأجسـام والأعـراض والجواهر والحركة والسكون والكمون والتولد والطفرة والوجود والعـدم والـروح والنفس والعقل وإدراك الحـواس والكـم والكيـف والألـوان والخـير والشر، وفى بعض الروايات أنَّ رجلا دخل على الحسن البصرى فقـال لـه يـا إمـام الـدين لقـد ظهرت فى زماننا جماعة يكفرون أصحاب الكبائر ، والكبيرة عندهم كفر، خـرج بـه عن الملة.

وكـل ذلـك كـان لـه آثـار بعيـدة فى النثـر العربـى، لا مـن حيـث الألفـاظ والمصطلحات الجديدة فحسب ، بل أيضا من حيث ذخائر الفكر الفلسفى اليونـانى والعربى التى التقت فى أوعيته وأوانيه والتى جعلته يعرف صورا من تحليل الأفكار وتركيبها لا عهـد لـه بهـا ، كـما جعلتـه يعـرف القيـاس النطقـى الصـحيح وطـرق الاستدلال والتعليل ودقائق المعانى ، وفـرق مـا بـين السـبب والمسـبب ، ومـا بـين الجنس والنوع ، والفصل والخاصة، وما بين الحجـة والشـبهه ، والممكـن والمحـال، والمعقول والموهوم، والبرهان الجلى والبرهان الخفى ، مما جعل الفكر العربى يتحول الى ما يشبه كنزًا سائلًا بما لايحصى ولا يستقصى من الخـواطر والمعـانى – عـلى حـد قول د/ شوقى ضيف .

وقد نقلت الى العربية العديد من العلوم والمعارف فقد عمد العرب الى أخذ مـا برع فيه الفرس واليونان والرومـانومن الهنـد واليهـود أيضـا وينقلوهـا الى العربيـة كأخذهم الرسائل عنهم ثم طورها العرب ونقحوهـا حتـى صـارت علومًـا عربيـةً

خالصةً نتيجة لتعهدها بالتطوير والتحديث كل تلك العلوم كانت تؤخذ بادىء ذى بدء على أساس الاهتمام بالدين والذب عنه، ولا سيما المتكلمين الذين كانوا يحرضون على الإقناع والزام الآخر بالحجة والزامه الإقرار بالإقناع وقد عرف عن المتكلمين سعة اطلاعهم، وغزارة ثقافتهم ومعارفهم .

وقد سأل سائل معتزلى كبير هو عمرو بن عبيد عن البلاغة وقطبها الذى تدور عليه .. ويجيبه بأنها : تخير اللفظ فى حسن الافهام وتزيين المعانى بالالفاظ المستحسنة فى الآذان المقبولة عند الأذهان[1]، ويظل السؤال دائرًا طوال العصر وتتعدد إجابات المعتزلة عليه من مثل قول العتابى لسائل سأله عن البليغ والبلاغة فقال له[2]"كل من أفهمك حاجته من غير إعادة ولا حبسه ولا استغاثة فهو بليغ ، فان أردت اللسان الذى يروق الألسنة ويفوق كل خطيب فإظهار ما غمض من الحق، وتصوير الباطل فى صورة الحق ، فقال له السائل : قد عرفت الإعادة والحبسة ، فما الاستعانة ؟ قال : أما تراه إذا تحدث قال عند مقاطع كلامه : يا هناه، ويا هذا، ويا هيه، واسمع منى ، واستمع الىَّ ، وافهم عنى ، أو لست تفهم؟ أو لست تعقل؟ فهذا كله وما أشبهه عى وفساد "ومع التطور العصرى لم يزاد على البلاغة شىء بل دارت فى هذا الفلك وصار ذلك هو الأساس الذى يشيد فوقه أى سرح بلاغى مخاطبة ... او كتابة... وتمثل صحيفة بشر بن المعتمر فى البلاغة الأساس الأول لعماد هذا العلم حيث أوضحت الصحيفة الأصول البلاغية العامة يقول د/ شوقى ضيف عارضا لتلك الصحف وهو يستهلها بأن الأديب سواء أكان خطيبا أو كاتبًا أو شاعرًا ينبغى أن يلاحظ نفسه فلا يقدم على الكلام إلا إذا كان مستعدًا متهيئا تمام التهيؤ، فارغ البال ناشطًا له تمام النشاط ، وينصحه باختيار ألفاظه وتفصيلها على المعانى بحيث تكون بقدرها

1-البيان والتبين 1 / 114

2-البيان والتبيين 1/ 113

لا فاضلة عنها ولا مقصرة، كما ينصحه بأن تخلو ألفاظه من كـل غريـب وكـل تعقيد، وأن تؤدى دلالتها أداءً واضحًا مهما كانت دقيقـة عسـيرة وأن تـتلائم معهـا بحيث تؤديها أداء تامًا يحيط بدقائقها إن كانت من الدلالات الغامضة ، وفى الوقـت نفسه تلقى عليها كل ما يمكن من أضواء تكشفها من جميـع أطرافهـا ، مـع تـذليلها وتيسيرها وعرضها فى لغة متوسطة بين لغة العامة المبتذلة ، ولغة الأعـراب الخشـنة المملوء بالغريب .

وينصـح مـن لا تـواتيهم طبـائعهم بالوصـف الحسـن للألفـاظ ووضـعها فى مواضعها الصـحيحة دون نبـو او شـذوذ أن يكفـوا أنفسـهم عـن صـناعة البيـان، والكلام البليغ ، وأولى منهم بهذا الكف والهجران لتلك الصناعة من تقعد طبائعهم مهما أجهدوا أنفسهم عن الإتيان بشىء من الكلام له روعة أو ما يشـبه الروعـة ولا يكفى للبليغ أن يلائم بين كلامه ومعانيه أو بعبـارة أخـرى بـين كلامـه والموضـوع الذى يتحدث عنه ، بل لابد له من ضميمة ثانية هـى احسـانه الملائمـة بـين كلامـه والمستمعين وأحوالهم النفسية والعقلية ، بحيث يجدون فى كلامـه اللـذة والإمتـاع ، ومن هنا يطلب إلى المتكلم إذا خاطب أوساط الناس أن لايرتفع عـن مـداركهم بـما يورد عليهم من اصطلاحات المتكلمين ، حتى لا تنقطع الصلة بينه وبينهم ، امـا إذا خاطب المتكلمين فلا بأس من إيراده لهذه المصطلحات التـى يفهمونهـا فهـما حسـنًا والتى قد يجدون فيها شيئا من الإمتاع.

أنواع الفنـــون النثريــة:-

1 – الخطب والمواعظ:

أ – **الخطابة السياسية:** كانت الظروف السياسية هى المحرك الأساسى لتطور الفنون الأدبية فقد ازدهرت الخطابة السياسية نتيجة للخلاف السياسـى الحـاد بـين العباسيين والعلويين .... حيث لبس الأول عباءة العلـويين فى البدايـة وعمـدوا الى

الدعوى للعلويين لكى يقوضوا حكم الأمويين ، وحينما انهـار بنيـانهم كشـفوا عـن أنفسهم وظهر جليًا أنهم كانوا يريدون الخلافة من البداية وأن عمدوا الى اظهار غير ذلك فى البدء ثم أخذوا العلويين بيد صارمة حتـى اسـتطاعوا إخمـاد ثـورتهم ولجـأ العلويون الى التقية خوفا من بطش العباسيين وشـدة فـتكهم وإظهـارهم الصر_امة والشدة فى مواجهة المناوئيين ودلهم على غيرهم من أنهـم رحـم رسـول الله وأقاربـه وأنهم أبناء أعمامه والأعمام يلغوا أبناء البنت مـن المـيراث ... وبالتـالى مـن الخلافـة يقول السفاح فى خطبته بالكوفة حين بويع بالخلافة " إنـما يريـد الله ليـذهب عـنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا " وما يلبث أن يعـرض للسـبيئة مـن الشـيعة الغالية قائلا : " وزعمت السبيئة الضلال أنَّ غيرنـا أحـق بالرياسـة والخلافـة منـا ، فشاهت وجوهها ، بم ولم أيها الناس ، وبنا هدى الله الناس بعد ضلالتهم وبصر_هم بعد جهالتهم وأنقذهم بعد هلكتهم .. وجمع الفرقة حتى عاد النـاس بعـد العـداوة أهل تعاطف وبر " .. ويتحدث عن الأمويين وظلمهم للرعية وكيـف تـداركها الله بهم ورد عليها حقوقها المسلوبة .. وخطب عمه داود بن على بنفس اللحن ، ويشـيد الجاحظ ببيانه وفصاحته قائلاً إنه كـان أنطـق النـاس وأجـودهم ارتجـالا واقتضـابا للقول .

وله كلام كثير معروف محفوظ " ويروى من ذلك خطبته فى أهل مكة حين ولاها ابن أخيه – وهى تمضى على النمط: –

" شكراً شكراً .. أما والله ما خرجنا لنحتقر فيكم نهرا ولا لنبنى قصر_ا ، أظـن عدو الله أن لن نظفر به اذ أُرخى له فى ذمامه ، حتى عثر فى فضل خطامه ، فالآن عاد الأمر فى نصابه ، وطلعت الشمس من مطلعها ، والآن أخذ القوس باريها ، وعادت النبل الى النزعـة [1]، ورجـع الحـق الى مسـتقره فى أهـل بيـت نبـيكم : أهـل الرأفـة والرحمة."

1النوعة : الرماة

ويلاحظ ان الخلفاء فى البداية كانوا مفوهين خطاباء لا يشق لهم غبار ليس هـم فقط بل هم والخارجين عليهم من العلويين ، فقد كان الخليفة يتبارى مـع معارضـه ويقارعه الحجة بالحجة كما حدث مع أبي جعفر المنصور حيث أعلن محمـد بـن عبـد الله بن الحسن العلونى الملقب بالنفس الذكية ... الثورة عليه فتقارعا بالبنان وبالبيان يقول محمد بن عبد الله " إن أحق الناس بالقيام فى هذا الدين أبناء المهاجرين الأولين والأنصار المواسين ، اللهم إنهم قد أحلوا حرامك وحرمـوا حلالـك وعملـوا بغـير كتابك وغيروا عهد نبيك ﷺ وآمنوا من أخفت وأخافوا من أمنت فأحصهم عـدداً واقتلهم بدداً ولاتبق على الارض منهم أحدا"[1].

ويلاحظ على الخطبة السياسية:

1 . الضعف والبعد عن الإثارة والتشويق كما كانت فى العصر الأموى .

2 . القيـود السياسـية وكبـت الحريـات وتكمـيم الأفـواه حالـت دون انتشـار وازدهار الخطابة السياسية، وذلك لإنها تزدهر فى ظـل الحريـة والأمـان فى التعبير عن الرأى .

3 . الإقتصاد في أدائها فلا يلجئون إليه إلا لحاجة ملحة ، إضافة لوجود خطب للعناصر المناوئة- العلويين – يسيطر عليها الغضب والحماس والإنفعال

ب – **الخطابة الحفلية :** كما انزوت الخطابة السياسية كـذلك خفتـت الخطابـة الحفلية، فبعد أن كان الخليفة يلتقى بالوفود ويتبادل معهم الخطابة مما جعل الخطباء يهتمون بخطبهم ويتقنونها لأنهم يلتقون الخلفاء مباشرة فيتبادلون معهم الخطـب .. نجد أن العباسيين لم يحرصوا على ذلك ووضـعت الفـوارق والحـدود بـين الخليفـة والرعية ولم يعد الخليفة يلتقى الناس ويسمح لهم المثول بين يديـه .. فاقتصرـ الأمـر على التعزية والتهنئة ، يقول ابن عقبة مهنئا المهدى بالخلافـة معزيـا لـه فى وفـاة أبيـه

1بددا : متفرقين

المنصور " آجر الله أمير المؤمنين على أمير المؤمنين قبله ، وبارك لأمير المؤمنين فيما خلفه له أمير المؤمنين بعده ، فما مصيبة أعظم من فقد أمير المرمنين ، ولا عقبى أفضل من وراثة مقام أمير المؤمنين ، فاقبل يا أمير المؤمنين من الله أفضل العطية ، واحتسب عنده أعظم الرزية،

كذلك خطبة يوسف بن القاسم بن صبيح الكاتب وهو يأخذ البيعة للرشيدى وسط جمع من الأمراء والوزراء " إنَّ الله بمنه ولطفه منَّ عليكم معاشر أهل بيت نبيه ، بيت الخلافة ومعدن الرسالة ، وإياكم أهل الطاعة من أنصار الدولة وأعوان الدعوة من نعمه التى لا تحصى بالعدد ، ولا تنقضى مدى الأبد وأياديه التامة أن جمع أُلفتكم وأعلى أمركم ، وشد عضدكم ، وأوهن عدوكم ، وأظهر كلمة الحق وكنتم أولى بها وأهلها ، فأعزكم الله وكان الله قويًا عزيًزا ، فكنتم أنصار دين الله المرتضىـ والذابين بسيفه المنتضى عن أهل بيت ﷺ ، وبكم استنقذهم من أيدى الظلمة أئمة الجور والناقضين عهد الله والسافكين الدم الحرام والآكلين الفيئ والمستأثرين به " ... وما دون ذلك كان قليل وليس ذا بال فلم يهتم بأمرها .

جـ - الخطابة الدينية : اذا كانت الخطابة السياسية والحفلية قد خفت أوارها فإن الخطابة الدينية ظلت على ازدهارها وتأججها فى خطب الوعاظ والنساك المنتشرين فى مساجد بغداد والبصرة والكوفة ، وكانوا يدخلون على الخلفاء ويوعظونهم ويرشدونهم الى تقوى الله ويخوفونهم من عذابه كما فعل عمرو بن عبيد حين دخل على المنصور فقال له عظنى فقال " إنَّ الله أعطاك الدنيا بأسرها فاستر نفسك ببعضها، واذكر ليل تمخض عن يوم لا ليل بعده ، فوجم أبو جعفر من قوله، فقال له الربيع[1]: يا عمرو غممت أمير المؤمنين .. فقال عمرو : إنَّ هذا صحبك عشرين سنة لم ير لك عليه أن ينصحك يومًا واحدًا ، وما عمل وراءه بابك بشىء

1حاجب المنصور

من كتاب الله ولا سنة نبيه قال ابو جعفر : فما اصنع ؟ قد قلت لك : خاتمي في يدك فتعال وأصحابك[1] فاكفنه ، قال عمرو: ادعنا بعدلك تسخ أنفسنا بعونك، ببابك ألف مظلمة اردد منها شيئا نعلم إنك صادق."

كذلك وعظ صالح بن عبدالجليل الناسك المُفَوَّه المهدى حتى يبكيه وقد استأذنه يوماً فى الكلام فأذن له .. فقال: " كان أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: من حجب الله عنه العلم عذبه على الجهل، وأشد منه عذابًا من أقبل إليه العلم وأدبر عنه ومن أهدى الله إليه علمًا فلم يعمل به، فقد رغب عن هدية الله وقصر بها، فاقبل ما أهدى الله إليك من ألسنتنا قبول تحقيق وعمل ، لاقبول سمعة ورياء فإنه لا يعدمك منا إعلان لما تجهل أو موطأة على ما تعلم أو تذكير من غفلة، فقد وطن الله نبيه على نزولها تعزية عما فات وتحصينا من التمادى ودلالة على المخرج فقال: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة الأعراف: الآية 200]

فأطلع الله على قلبك بما ينوره من إيثار الحق ومنابذة الأهواء، ولا حول ولا قوة إلا بالله" وقد أورد الجاحظ فى البيان والتبيين ... الخطب التى تضمنت الشعر والنقد، ومن ذلك ما يذكر من أنه مات ابن لعبيد الله بن الحسن قاضى البصرة ، فعزاه صالح المرى ، فقال : " ان كانت مصيبتك فى ابنك أحدثت لك عظة فى نفسك ، فنعم المصيبة مصيبتك ، وإن لم تكن أحدثت لك عظة فى نفسك فمصيبتك فى نفسك أعظم من مصيبتك فى ابنك[2]" وعزى رجلا فى أخيه قائلًا " إن تكن مصيبتك فى أخيك أحدثت لك خشية فنعم المصيبة مصيبتك ، وان تكن مصيبتك بأخيك أحدثت له جزعًا فبئس المصيبة مصيبتك [3] ويذكر الجاحظ إنه كان كثيرًا ما يردد فى مجلسه: "أعوذ بك من الخسف والمسخ ، والرجفة، والزلزلة، والصاعقة، والريح المهلكة ، وأعوذ بك من جهد البلاء ومن شماتة الأعداء." وكان

1يريد أصحابه من المعتزلة الناسكين
2-البيان والتبيين 2 / 82
3-البيان والتبيين 3 / 171

يقول: "أعوذ بك من التعب والتعذر والخيبة وسوء المنقلب، اللهم إنى أسألك خصب الرحل[1]، وصلاح الأهل."[2]

وروى الجاحظ من بعض وعظه فى كتابه الحيوان قوله: تغدو الطير خماصًا وتروح شباعاً، واثقة بأن لها فى كل غدوة رزقًا لايفوتها، والذى نفسى بيده ان لو غدوتم على أسواقكم على مثل إخلاصها لرحتم وبطونكم أبطن من بطون الحوامل.[3]"

ويلاحظ على الخطابة الدينية إنها كانت مزدهرة فى بداية العصر العباسى حين كان الخليفة يلقى الخطبة بنفسه ... لكن بعد ذلك طلب الخلفاء من العلماء ورجال الدين إعداد الخطبة، كما فعل الرشيد حين طلب من الأحمصى أن يعد لابنه الأمين خطبه يخطب بها يوم الجمعة ثم صار هذا نهجا فصار الولاة يخطبون بكلام غيرهم، وقد كان الخطيب يضمن القصص والشعر فى خطبته بل كان أحيانا يميل إلى السجع كما كان يفعل الفضل بن عيسى الرقاش يقول عنه الجاحظ "أنه كان سجَّاعًا فى قصه" .

د – **المناظرات :** هى عبارة عن حوار بين طرفين من أصحاب الفكر المختلفين كل يؤيد وجهة نظره بالحجة والدليل والبرهان، ويحاول ان يغلب الطرف الآخر ويلزمه الإقرار بالخطأ .... أو يكشف خطأه أمام الناس .. وهى تحاكى فى عصرنا الحديث الحوارات التى تقام بين أصحاب الفكر المتباين.

وقد نشطت المناظرات فى العصر العباسى نتيجة للرقى العقلى ولنشاط أصحاب الأفكار والأراء المختلفة من المتكلمين والمعتزلين والخوارج إضافة إلى أصحاب الملل السماوية والنحل المختلفة .. كالمانوية والمجوسية والدياصنية ..

1-الرحل هنا: المسكن والبيت
2-البيان والتبيين 3 / 288
3-الحيوان 7 / 62

وقد كان للمناظرات شأن عظيم فى البيئة العباسية، التى اشتهرت بالنظرة الثابتة والعلم الفياض، والرؤى العقلية النيرة نتيجة لتفتحهم على الأمم السابقة واطلاعهم على المعارف المترجمة والأفكار المنقولة من أصحابها سواء أكانوا يونانيون أو هنود أو فرس، وكما بلغت المناظرات شأنا بعيدًا فى التقديس كذلك كان للمتناظرين أهمية عظمى فى تثبيت الدين فى العقول والقلوب ومناوئة الملاحدة والمعاندين وأخذ المتكلمون على عاتقهم مهمة المناظرة لإبراز بديع خلق الله واتقان صنعه.

يقول الجاحظ: لولا مكان المتكلمين لهلكت العوام من جميع الأمم، ولولا مكان المعتزلة لهلكت العوام من جميع النحل، فإن لم أقل ولولا أصحاب ابراهيم (النظام) وإبراهيم لهلكت العوام من المعتزلة، فإنى أقول إنه قد أنهج لهم سبلا وفتق لهم أمورًا واختصر لهم أبوابا ظهرت فيها المنفعة وشملتهم بها النعمة [1]" .. وتعد فرقة المعتزلة وأصحابها من أهم المناظرين وقد أورد د/ شوقى ضيف مناظرة أبو الهذيل العلاف يقول مناظرًا يوما أحد اليهود حين ورد البصرة وتعرض لمتكلميها فسألوه: وقال له: أسألك أم تسألنى؟ فقال: اتعترف بأن موسى نبى صادق أم تنكر ذلك فتخالف صاحبك، فقال له أبو الهذيل: أن كان موسى الذى تسألنى عنه هو الذى بشر بنبيى عليه السلام وشهد بنبوته وصدقه فهو نبى صادق، وان كان غير من وصفت فذلك شيطان لا أعترف بنبوته ، فورد على اليهودى ما لم يكن فى حسبانه ، ولم يلبث ان سأل ابا الهذيل : أتقول إن التوراة حق؟ قال: هذه المسألة تجرى مجرى الأولى، لإن كانت هذه التوراة التى تسألنى عنها هى التى تتضمن الشارة بنبى عليه السلام فتلك حق ، وإن لم تكن كذلك فليست بحق ولا أقر بها ، فبهت اليهودى وأفحم ولم يدر ما يقول ... وناظر يومًا مجوسيًا فسأله ما تقول فى النار ؟ قال : بنت الله ، قال فالبقر ؟ قال : ملائكة الله قص أجنحتها وحطها على الأرض يحرث عليها ، قال:

1-الحيوان 4 / 206

فالماء ؟ قال : نور الله ، قال أبو الهذيل فما الجوع والعطش؟ قال: فقر الشيطان وفاقته ، قال أبو الهذيل : فمن يحمل الأرض؟ قال : بهمن الملك .. حينئذ قال أبو الهـذيل : فما فى الدنيا شر من المجوس أخذوا ملائكة الله فذبحوها، ثم غسـلوها بنـور الله ثـم شووها ببنت الله، ثم دفعوها الى فقر الشيطان وفاقته، ثم سلخوها عـلى رأس بهمـن الملك أعز ملائكة الله، فانقطع المجوسى وخجل ممـا لزمـه .. وقـال لـه المعـذل بـن غيلان يوما إنَّ فى نفسى شيئاً من القول بالاستطاعة وأن الانسان حر حريـة مطلقـة فى أعماله فبين لى ما يـذهب الريـب عنـى، فقـال لـه: خبرنـى عـن قـول الله تعـالى: ﴿.....وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ [سورة التوبة: الآية 42] هل يخلو من أن يكون أكذبهم لانهم مسـتطيعون الخروج وهم تاركون له، فلاستطاعه الخـروج فـيهم وليسـوا يخرجـون قـال (إنهـم لكاذبون) أى هم يستطيعون الخروج وهم يكـذبون فيقولـون لسـنا نسـتطيع، ولـو استطعنا لخرجنا، فأكذبهم الله على هذا الوجه أو يكون على وجه آخر يقـول: (أنهـم الكاذبون) أى إن أعطيتهم الاستطاعة لم يخرجـوا، فتكـون معهـم الاسـتطاعة عـلى الخروج ولا يخرجون، ولا يعقل للآية معنى ثالث غـير الـوجهين اللـذين وصـفنا ، وبذلك أقام الحجة القاطعة على الاستطاعة من لفظ القرآن الكريم حيي يـنقض مـا يستشهد به أصحاب الجبر وتعطيل إرادة الانسان وحريتـه مـن بعـض آيـه التـى لا تعطيهم الدلالة البينة الملزمة ، وكان يتعمق ببعض مناظراته فى مسائل فلسفية كقوله إن حركات أهل الجنة والنار لا تبقى بل تتقلب إلى سكون دائم، تجتمـع فيـه اللذات لأهل الجنة ويجتمع فيه العذاب لأهل النار.

✍ **ومن خلال ما سبق نلاحظ أن المناظرات فى العصر العباسى:**

1- انها وليدة العقل المتفتح الذى لمَّ بكثير من المعارف والعلوم التى وفـدت اليـه من الأمم الاخرى .

2- أنها وجدت لتخدم الدين وتقف حجرعثرة فى وجه المشككين المضللين.

3- انها تعكس الذهنية المسيطرة والتى غذت بمختلف المعارف والفنون.

4- بدت البلاغة الكلامية مصاحبة للحجة العقلية في جو مليء بالجدل والفكر ، يشهد للعقلية العربية بتنظيم الفكر وعرضه في حسن القول.

5- تعد الخطبة تأريخ لتلك الفترة إذ يثبت فيها ما يتصدر المشهد من أحداث، وما يمور في الأجواء من معنيات كانت محط اهتمام الخاصة ومتابعة العامة.

6- تعلم النشء الجديد من تلك الخطب سوء الحية أو المسجلة في ثنايا الكتب فتوارثت الثقافة ونهج التفكير وطريقة الأداء.

الكتابة الفنية فى العصر العباسى

الرسائل الديوانية :

الكتابة الفنية أو الإنشائية أو الأدبية هى التى تصدر من كاتب بلغ شـأنا كبـيرًا فى الفصاحة والبلاغة وحسن البيان فى موضوع ما سياسى أو فقهى أو معيشـى مـن قبل أحد الكبار .. الوالى .. أو الأمير .. أو صاحب الديوان .

✍ **عوامل ازدهار الكتابة الفنية :**

1 - ازدهرت الكتابة الفنية فى العصر العباسى ازدهارا ملحوظًا ولا سيما فى عصر المأمون .. وكان ازدهارها نتيجة لتشجيع الخلفاء والـولاة للكتبـة وتقليـدهم المناصبالرفيعة وتقريبهم من ذوى الشأن .

2 - عمق ثقافة الكُتَّاب وسعتها ورحابة معارفهم التياكتسبوها إما :

أ – من خلال اطلاعهم على التراث العربى القديم فقد سئل ابن المقفع مـن الـذى مكنك من البلاغة ؟ فقال حفظ كلام الاصلاح وقصد على بن ابـى طالـب، فقد أخذ الكتاب أنفسهم بالاطلاع والإلمام بالأقوال العربية الصحيحة عنـد الحاجة شعراً ونثراً بل بأيام العرب ليستشهد بها عند الحاجة.

ب – اطلاعهم على آداب الأمم الأخرى ولا سيما الأدب الفارسى الـذى شـكل العمادالأساسـى لـدى متعلمـى الكتابـة ، حتـى إن الجهشـيارى عـرض لبعضرسائل الإسكندر وبعض وصـايا الهنـد وحكمهـم فى كتابـة " الـوزراء والكتاب " بل انه عرض فيه لدواوين الفرس ونظمها المختلف .

جـ – حفظ القرآن الكريم والإهتداء بنظمـه فى الكتابـة ومحاولـة السـير عـلى نهجـه ايجازاً واطناباً .... فصلاً ووصلاً ... بل وفى حسن المقاطع وقرب المآخذ.

3- التنافس الشديد بين الكُتَّاب جعلهم يسارعون فى اكتساب المعارف المختلفة والإلمام بشتى الفنون ليحوز قصب السبق فيقلد ما رفع من المناصب كل هذه العوامل وغيرها أدت الى ازدهار الكتابة وعلو شأنها وقد أثرت الكتابة فى الحياة العقلية وجعلت كثيرين يعملون على اتقانها .

✍ **أثر ازدهار الكتابة على الأدب:**

1- ازدهر المجال الأدبى وتعددت روافده وتنوعت اتجاهاته بتنوع الكتاب حيث يعد المكتوب قطعةأدبية وتشريع فقهى ... وبه ومضات توحى بمعرفة كاتبه بعلوم الكيمياء والطب والنجوم بل والفلسفة أيضًا .

2- ما ورد من الكتابات العباسية تبين رجاحة العقل العربى وقدرته على إذابة الفنون والمعارف الواردة فى القوام العربى ويستخرج منه خليطًا يُمْهَر بأنه نتاج عربى خالص لا شائبة به من خلط، أو احتمال وجود دخيل

3- تدافع النشء الجديد على العلوم والمعارف المختلفة يستوعبونها استيعابا لكى يتولوا شأن الكتابة لما للكتُّاَب من مكانة رفيعة فى الدولة يقول الجاحظ " إنهم ليقفون على الألفاظ المتخيرة والمعانى المنتخبة، وعلى المخارج السهلة، والديباجة الكريمة، وعلى الطبع المتمكن وعلى السبك الجيد، وعلى كل كلام له ماء ورونق وعلى المعانى التى إذا صارت فى الصدور عمرتها وأصلحتها من الفساد القديم وفتحت للسان باب البلاغة ودلت الأقلام على مدافن الألفاظ وإشارت إلى حسان المعانى[1]."

1البيان والتبيين 4 / 24

خصائص الكتابة فى العصر العباسى

تمتاز الكتابة الفنية فى هذا العصر بعـدة مميـزات فى الأسـلوب واللفـظ والمعنـى والخيال، ومن أبرز هذه المميزات:

1 - اختراع المقدمات فى صدر الرسائل التى تجرى أساليبها على سنن الإطناب

2 - التفنن فى استهلال الرسائل بمحاكاتها لما كان يستهل به رسـول الله ﷺ كتبـه فى اقتباس منها أو تصديرها بالتحميدات لله تعالى ، من الأُول كتاباتهم : مـن عبد الله فلان أمير المؤمنين إلى فلان ومن قبله من المسلمين ، سلام عليك اما بعد .. فانى احمد اليك الله الذى لا اله الا هو الخ ، وزادهـا هـارون الرشـيد بعد الحمد : الصلاة على النبى

3 - التأنق فى الالفاظ ، وحسن انتقائها وتخيرها والبعد بها عن الحوشية والغرابة ، مما ادى الى سهولة العبارة وجمالها

4 - مراعاة المقام فى اختيار الايجـاز ، او ايثـار الاطنـاب ، وكـان بعـض الكتـاب يحرص فى اسلوبه كتابة الرسائل فى هذا العهد ، ويروى عن جعفـر البرمكـى انه كان يقول لكُتابه : " ان استطعتم أن تجعلوا كتبكم كلها توقيعات فـافعلوا "

5 - اللجوء إلى المناهج العلمية كالمنطق والفلسفة طلبًا للإقناع بالأدلة والبراهين .

6 - امتاز أسلوبها بالتجديد والتهذيب ، واستعمال المحسنات البديعيـة والإكثـار من ألوانها ، مع وضوح العبارة ، وحسن الإشارة ، وجودة الوصف ، وجمـال السبك ، وقوة الأداء، والتذرع فى تخير الأسـاليب فى جزالـة حينـا ، وعذوبـة حينا آخر .

7- اقتبس الكُتَّاب من الكتابة الفارسية أروع ما راقهم منها: من تهويل فى الخطاب، وتعديد للألقاب وشدة تلاؤم الخيالات وابتداعها ، وتلاحم المعانى واختراعها .

8- كان كتاب الرسائل يكثرون من التهذيب والتنقيح والتجويد وتوخى الصحة والسلامة خوفًا من النقد الذى قوى فى هذا العصر ، وقد كان الكتاب يفرقون بين أسلوب واسلوب وعبارة ، ويضعون الفروق بين التراكيب والصيغ ، ويطالبون سواهم بها ، ويحرصون هم عليها ، ويعيبون على من خالفها ، يروى أن عاملاً للسيدة زبيدة على بعض ضياعها كتب إليها فى رسالة " آدام كرمتك " فلما قرأت الكتاب وقعت على ظهره :" أصلح خطأك " وإلا صرفناك عن عملك " فأعاد الإمعان فى أسلوبه فلم يهتد إلى خطئه فعرضه على صديق له فقال : إنما كرهت قولك فى صدر الرسالة " وأدام كرامتك " لأن كرامة النساء دفنهن ، فغير ذلك الدعاء وأعاد عليها الكتاب ، فوقعت على ظهره : " أحسنت ولا تعد "

موضوعات الكتابة:-

تنوعت موضوعات الكتابة نتيجة لتنوع الكُتَّاب فقد قربهم الولاة والحكام و منهم فى دواوين الخلافة، ومن أظهر مهارة سرعان ما يرقى إلى رياسة الديوان الذى يعمل فيه .. وقد تقبل عليه الدنيا فيصبح رئيسًا لمجموعة من الدواوين، وقد يصبح وزيرا للخليفة يسوس الدولة ويدبر أمورها وشئونها، فإن لم يصبح وزيرًا أصبح واليًا لإقليم من الأقاليم مثل الحسن بن البحباح البلخى الذى كتب للمهدى والهادى والبرامكة، وقد ولى مصر فى عصر الهادى والأمين، ومثل الحسن بن رجاء كاتب المأمون الذى ولى فارس، ومثل عمر بن مهران كاتب الخيزران أم الرشيد وقد ولاه مصر فى بعض السنين، وكثير من الولاة والقواد كانوا يحسنون الكتابة الى أبعد

غاية مثل جعفر بن محمد بن الاشعت، وآل خراسان وابنـه عبـد الله بـن طـاهر والى مصر والشام والجزيرة ، ثم والى خراسـان ومثـل أبـى دلـف العجـلى قائـد المـأمون المشهور .

ومن موضوعات الكتابة؛ موضوع الخراج وما يخص أهل الذمة، إذ يرسل لهم المكاتبات بها ما يريد الحاكم بثه فى نفوس النـاس وإشـاعته بـين شـعبه ... كـذلك تناولت الأعمال الديوانية وتنظيم الدواوين واختصاصـاتها ، واسـتعملها أصـحاب المذاهب المختلفة يشرحوا مبادئهم من خلال الصحف والمكاتبـات التـى يتبادلونهـا ويوجهونهـا إلى منـاصريهم لتوصـليها للنـاس أو لاسـتقطاب جماعـات أخـرى ... إضافة الى ما يصدره الكاتب من وصايا وحكم ونصائح للكتاب الجدد أو لغيرهم .

أهم الكتاب وطبقاتهم

اشتهر عدة كتاب بالكتابة منهم عـمارة بـن حمـزه كاتـب السـفاح والمنصـور، وكان فصيحًا بلغ شأوا بعيـدًا فى البلاغـة والكـرم وكـان تيهـاً ... واشـتهر بـذلك وضرب به المثل حتى قيل "أتيه من عماره "وله رسالة هامـة لقبـت بالماهانيـه وفيهـا توصية لعامل أن يأخذ برأى عيسى بن ماهان وفيها يقول أمير المؤمنين لا ينكر قرب الطاعة من المعصية قرب بعض الأمور من بعض ، لسرعة تقلب القلوب واختلاف الحالات عند ميل الهوى ولا ينكر جرى المقادير بغيب ذلك عن العباد واسـتئثار الله بعلم ما لم يأتهم إلابغته .. بل قد علم أمير المـؤمنين أن أقوامـاً فى قلـوبهم ضـغائن ، دونها الغدر، يظهر أسراراهم ويخرج ضغائنهم ، ثم يبلغ بغضه مـنهم مـا لم يكـن فى عنده عزيزا ، ولم يكن بهم امتناع .. غير إنه قد أنكر أن تعجل إلى ابـن ماهـان – وإن كان محلاً بارزاً – بأمر دون مؤامرته (مشاورته) ويكره لك العجلة فإنهـا موكـل بهـا الندم وإنه كان يقال: أصاب متأمل أو كاد وقالت العـرب: فإمـا تـرين أمـرًا رشـدًا فتبين ثم ارعو أو أقدم وأحام ، ولحق ما امر الله عز وجل به من التبين ومـا حـذر أن

يصاب قوم بجهالة وما خوف على ذلك من الندامة ، فليس يبرح المرء بخير ما فـرغ لقول الله عز وجل واتعظ واستيقظ."

ووضح حرص عـمارة عـلى التمثـل بكـلام العـرب واسـتعارةألفاظ القـرآن ومعانيه ، فقد حل فى آخر كلامه قوله جـل شـأنه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ﴾ [سورة الحُجُرات: الآية 6]

كذلك اشتهر مسعده بن سعد بن وصول كاتب المنصور وقيل إنه أحد ملوك جرجان ويقال إن المنصور قال يوما لكتابـه اكتبـوا لى فى تعظـيم الإسـلام واختـاره وأوضحه وأناره وأعزه وأنافه (أعلاه) وشرفه وأكمله وتممه وفضله وأعـزه ورفعـه وجعله دينه الذى أحبه واجتباه (اختاره) واستخلصه وارتضاه واختاره واصـطفاه، وجعله الدين الذى تعتد به ملائكته وأرسل بالدعاء إليه أنبياء وهـدى لـه مـن أراد إكرامه وإسعاده من خلقه قال جل مـن قائـل: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ ....﴾ [سورة آل عمران: الآية 19] وقال جـل وعـلا: ﴿ وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ ...﴾ [سورة آل عمران: الآيـة 85]وقال: ﴿....ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ ....﴾ [سورة الحج: الآيـة 78] فهذا الإسلام والدخول فيه والعلـم بـه وأداء شرائعـه والقيام بمفروضاته وصلت ملائكتـه ورسـله إلى رضـوان الله ورحمتـه، وجـواره فى جنته، وبه تحرزوا من غضبه وعقوبته، وأمنوا نكال عذابه وسطوته."

فقال المنصور: حسبك يا مسعدة ، اجعل هذا صدر الكتاب إلى أهل الجزيـرة بالإعذار والإنذار .

ويفهم من ذلك أنه إلى جانب التحميد قد أسجع سجعًا له دلالته الفنيـة وان الكاتب يريد أن يأسر الأسماع بجمال الجرس والأداء .

وكذلك أبو عبيد الله معاوية بن عبيد الله بن جيار كان كاتبًا فى عصرـ المهـدى وقد تقلد عدة مناصب وكتب المنصور إليه حين أنفذه الى الرى ليكتـب لـه ويصـدر

عن رأيه ومشورته ، ولما ولى الخلافة استوزره وفوض اليه الدواوين ، حتى اذا كانت سنة 163 هـ صرفه عن وزارته واكتفى به على ديوان الرسائل وما زال يليه حتى سنة 167 ، ثم صرفه المهدى عنه أيضا ، ولم يلبث أن توفى سنة 170 هـ وكان غزير العلم جذاب الحديث بارعًا فى القول ومن طريف ما رواه له الجاحظ قوله: "التماس السلامة بالسكوت أولى من التماس الحظ بالكلام ، وقمع نخوة الشرف أشد من قمع بطر الغنى ، والصبر على حقوق النعمة أصعب من الصبر على ألم الحاجة "

وذلك الفقر قاهر لعز الصبر، كما أنَّ عز الغنى مانع من الانصاف إلا لمن كان فى غريزته فضل كرم وفى أعراقه مناسبة لعلو الهمة [1].

يحى البرمكى:

فى عصر الرشيد .. بلغ شأنًا بعيدًا فى الكتابة وذلك لجمعه بين ثقافة العرب وثقافة الفرس، وهو ذو باع فى الكتابة حتى إن المهدى كان قلده الكتابة منذ جعله ولى عهده والقيام على نفقته وتدبير أمر الجيوش التى كان يقودها الرشيدضد الروم، وحسن أثره عنده الى أقصى غاية حتى إذا ولى الخلافة قلده أمور الرعية وسلمه خاتم الخلافة يأمر وينهى كما يشاء ويستعمل على الولايات والأعمال ويعزل كما يريد ، ولم يلبث الرشيد أن ولى ابنه جعفرا على المغرب كله من الأنبار الى أفريقية، وولى ابنه الفضل على المشرق كله من النهروان الى أقصى بلاد الترك، وقد نهض البرامكة بالشئون الإدارية والثقافية إلى أن نكبهم الرشيد فى سنة 187 للهجرة إذ أمر بقتل جعفر وحبس أبيه وأخيه الفضل حتى ماتا فى الحبس.

وكان يحى عالمًا محبًا للعلم والعلماء يحيط نفسه بهم، لذا كان مجلسه أشبه بندوة علمية أدبية وكان كلامه دررًا قيمة يقول : " البلاغة أن تكلم كل قوم بما يفهمون " وقوله لجعفر ابنه :" يا بنى انتق من كل علم شيئا فإنه من جهل شيئا عاداه، وانا

1-الجهشيارى صـ 156

أكره أن تكون عدوا لشيء من الأدب" وقوله: " الناس يكتبون أحسن ما يسمعون ويحفظون أحسن ما يكتبون ، ويتحدثون بأحسن ما يحفظون " وقوله " العجب للسلطان كيف يحسن ، ولو أساء كل الإساءة لوجد من يزكيه ويشهد بإنه محسن " وقوله : " لست ترى أحدًا تكبر فى إمارة إلا وقد دل على إن الذى نال فوق قدره ، ولست ترى أحدا تواضع فى إماره إلاوهو فى نفسه أكبر مما نال فى سلطانه " وكتب الى الرشيد لما نكبه وسجنه رسالة بليغة وفيها يقول:[1]

" من شخص أسلمته ذنوبه وأوثقته عيوبه ، وخذله شقيقه ، ورفضه صديقه ، ومال به الزمان، ونزل به الحدثان [2] ، فحل فى الضيق بعد السعة وعالج البؤس بعد الدعة ، وافترش السخط بعد الرضا، واكتحل السهاد بعد الهجود[3]، ساعته شهر، وليلته دهر، قد عاين الموت، وشارف الفوت، جزعًا لموجدتك يا أمير المؤمنين وأسفًا على ما فات من قربك."

وكان هناك من يبهر فى الرسائل والتوقيعات وهم أهل الخبرة وقد يعترضون عليها ويلغونها كما حدث لكتابات ابن الزيات ... وقد استوزره المعتصم ـ كما جاء فى الأغانى ـ وعين المعتصم عبد الله بن الحسن الاصبهانى على ديوان الرسائل وعندما كتب ـ ابن الزيات رسالة إلى قائد المعتصم وواليه على أرمينية خالد بن يزيد بن مزيد كتب: "إن المعتصم أمير المؤمنين ينفخ منك فى غير فحم ، ويخاطب امرءًا غير ذى فهم."

فقال محمد بن عبدالملك الزيات: هذا كلام ساقط سخيف جعل أمير المؤمنين ينفخ بالزق كأنه حداد .. وأبطل الكتاب .. ثم كتب محمد بن عبدالملك الى عبد الله بن طاهر: " وانت تجرى أمرك على الأرجح فالأربح ، والأرجح فالأرجح، لا

1العقد الفريد 5 / 68 وغرر الخصائص الواضحة للوطوط (طبعة بولاق سنة 1284 هـ) صـ 406 وجمهرة رسائل العرب 3 / 221 .
2الحدثان : نوازل الدهر ونوائبه
3الهجود : النوم

تسعى بنقصان، ولا تميل برجحان " فقال عبد الله الأصبهانى: الحمد لله! قـد أظهـر من سخافة اللفظ ما دل على رجوعه الى صناعته من التجارة[1]، بـذكره ربـح السـلع ورجحان الميزان ونقصان الكيل والخسـران من رأس المال، فضحك المعتصم وقال: ما أسرع ما انتصف الأصبهانى من محمد ، وحقدها عليه ابـن الزيـات حتـى نكبـه: "فالرسالة كانت ذو أهمية عظمى لذا كانوا يهتمون بأمرها ويراجعونهـا الفنيـة بعـد الأخرى، فيضموا إليها كل جيد وينحوا ما كان دون المستوى.

وقد حصـر البعض الكتاب فى العصـر العباسى فى عدة طبقات منها:

الطبقة الأولى: وهى التى أدركت الدولتين الأموية والعباسية وهى طبقة عبد الله بن المقفع ويحى زياد الحارثى ، وعارة بن حمزة ، ممن كتبوا للمنصور .

الطبقة الثانية: وهى طبقة ابى عبيـد الله معاويـة ويعقـوب بـن داوود، وزيـرى المهدى، ويحى بن برمـك، ويوسـف بـن القاسـم ، ممـن كتبـوا للمهـدى، والهـادى والرشيد .

الطبقة الثالثة : طبقة جعفر بن يحـى، وأخيـه الفضـل، واسـماعيل بـن صـبيح، والفضل بن سهل، والحسن بن سهل وأحمد بن يوسف، وعمرو بن مسعدة، وأحمـد بن أبى خالد الأحول ممن كتبوا للرشيد، والأمين والمأمون.

الطبقة الرابعة: وهى التـى ربـت فى عصـــر المـأمون وقـرأت كتـب اليونـان، والفرس، والهند، وإليها انتهت البلاغة وفتحت أبواب البديع، وتفوق أعلامها على فحـــول الشـــعراء العباســيين فى عظمـــة الجـــاه والرياســـة مثـــل: الجـــاحظ، محمد بن عبد الملك الزيـات، ابـراهيم بـن العباسـى الصـولى، وسـعيد بـن حبيـد، والحسن بن وهب، وسليمان بن وهب، وسواهم ممن كتبوا للخلفاء بعد المأمون.

1-يشير الى حرفة أبيه إذ كان تاجراً بالكرخ

ويقسم بعض النقاد الكتاب فى عصر نفوذ الخلفاء العباسيين إلى طبقتين فقط:

الطبقة الأولى: رئيسها عبد الله بن المقفع، وطريقته تنويع العبارة والمزاوجة بين الكلمات، وتخير السهولة، والعناية بالمعنى والزهد فى السجع.

الطبقة الثانية: رئيسها الجاحظ، وطريقته أشبه بالأولى فى سهولة العبارة وجزالتها، وتمتاز بتقطيع الجملة إلى فقرات كثيرة مقفاة أو مرسلة، وزيادة الاطناب فى الألفاظ والاستطراد، ومزج الجد بالهزل، وتحليل المعنى واستقصائه، وتحكيم العقل والمنطق والاعتراض بالجمل الدعائية.

فن التوقيعات:

التوقيع: هو عبارة عن كلمة او عبارة موجزة يكتبها الخليفة أو الأمير أو الوالى بادياً رأيه فى أمر من الأمور التى وردت اليه من .... شكوى أو طلب أو رجاء.

وهو موجود منذ صدر الإسلام ،وقد ورد بعض التوقيعات عن الخلفاء الراشدين وخلفاء بنى أمية لكنها ازدهرت ازدهارا بينا فى العصر العباسى حتى إن الناشئة والمتأدبين كانوا يعكفون على دراستها واستبيان بلاغتها وإجادتها وكانوا يشترون هذه التوقيعات ليطلعوا عليها وقد يبلغ التوقيع نحو عشرين درهم فيبذلها المتأدب حبًا وكرامَة فى العلم .

شكل التوقيعات:

اختلفت التوقيعات باختلاف الرسالة والموقع عليها فقد تكون بيتاً شعرياً ... أو حديثًا شريفًا .. أو آية قرآنية كما يرتآه ولى الأمر، وقد بلغ جعفر ابن يحى البرمكى شأناً بعيداً فى إجادة التوقيع حتى قيل: " كان جعفر بن يحى يوقع فى القصص بين يدى الرشيد ويرمى القصة الى صاحبها، فكانت توقيعاته يتنافس البلغاء فى تحصيلها

للوقوف على ما فيها منأساليب البلاغة وفنونها، حتى قيل إنها كانت تباع كل قصة منها بدينار[1]" ومما رواه له الجهشيارى من توقيعاته[2] توقيعه على رقعة لمحبوس متظلم من حبسه: " العدوان أوبقه، والتوبة تطلقه"، وتوقيعه على كتاب لعلى بن عيسى بن ماهان يعتذر فيه عن أشياء بلغته عنه : حبب إلينا الوفاء الذى أبغضته، وبغض الغدر الذى أحببته، فما جزاء الأيام أن تحسن ظنك بها وقد رأيت غدراتها ووقعاتها عيانًا واخباراً" واشتهر الفضل بن سهل ذو الرياستين بتوقيعاته البليغة المحكمة، فمن ذلك توقيعه على قصة مظلوم " كفى بالله للمظلوم ناصراً.[3]"

وتوقيعه على كتاب لتميم بن خزيمة بن خازم: "الأمور بتمامها والأعمال بخواتيمها، والصنائع باستدامتها، وإلى الغاية جرى الجواد، فهناك كشفت الخبرة قناع الشك فحمد السابق وذم الساقط[4] وقد شيع عن الشكاوى والمظلمات اسم القصص لإنها كانت تحكى قصة المظلوم وسبب شكواه كذلك شبهوها برقاع الثياب فسموها الرقاع.

وقد كانت هناك أسباب ساعدت على ظهور التوقيعات وجعلت لها خصائص فنية مميزة.

ومن أبرز أسباب ازدهار التوقيعات:

1- تنوع شئون الدولة العباسية ، وكثرة مطالب الناس فكانت التوقيعات نوعًا من الاستجابة البليغة لتلك المطلب
2- ما عرف عن الخلفاء والوزراء العباسيين من تمكن فى اللغة ، ودقة فى التفكير ، والقدرة على الايجاز .

1-مقدمة ابن خلدون صـ 173.
2-الجهشيارى صـــ 205.
3-الجهشيارى صـــ 205.
4-الجهشيارى صـــ 307.

3 – طبيعة المواقف التى تتطلب حسمًا سريعًا لها .عبارة مكثفة ومعنى لا لبس فيه .

4 – التأثر بالثقافة الأجنبية الى جانب الأصالة فى فن الإيجاز الذى ظهر فى الحكم والأمثال العربية .

الخصائص الفنية التى غلبت على التوقيعات فى العصر العباسى :

1. روعة الايجاز
2. قوة التعبير
3. جمال التصوير
4. عمق الفكرة والتركيز عليها .
5. قوة التأثير
6. لطف الإشارة وروعتها
7. إحكام الصياغة وبراعة الموسيقى .
8. تنوع أسلوبها بين الخبر والإنشاء.

فمن الأساليب الخبرية: "قد كثر شاكوك ، وقل شاكروك " وغرضه البلاغى التهديد، ومن الأساليب الإنشائية: داو جرحك لا يتسع "أمر وغرضه البلاغى التحذير.

ومن التوقيعات التى اشتهرت وتداولتها كتب الأدب:

1. توقيع السفاح فى كتاب لأبى جعفر، وهو يحارب ابن هبيرة بواسطة "إن حلمك أفسد علمك، وتراخيك أثر فى طاعتك فخذ لى منك، ولك من نفسك."
2. وتوقيعه أيضاً فى كتاب جماعة من بطانته يشكون احتباس أرزاقهم: "من صبر فى الشدة شارك فى النعمة."

3. وتوقيع المنصور لوالى مصر حين كتب يذكر نقصان النيل: "طهر عسكرك من الفساد يسلمك النيل القياد."

4. وتوقيعه أيضاً على شكوى لأهل الكوفة من عاملهم: "كما تكونون يؤمر عليكم."

5. وتوقيع المهدى فى قصة رجل حبس فى دم: "ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب".

6. توقيع الرشيد على رسالة لوالى خراسان: "داوى جرحك لا يتسع".

7- وتوقيع الرشيد أيضاً فى نكبة جعفر البرمكى: "انبتته الطاعة وحصدته المعصية."

8- توقيع المأمون فى قصة متظلم من أحمد بن هشام اكفنى هذا الرجل وإلا كفيتك أمرك.

وقال عمرو بن مسعدة: كتبن كتاباً إلى عامل فأطلته، فأخذه المأمون من يدى وكتب: قد كثر شاكوك وقل شاكروك، فإما اعتدلت، وإما اعتزلت وينسب هذا التوقيع لجعفر البرمكى أيضاً.

الرسائل الاخوانية:

وهى رسائل تداولها الناس فيما بينهم لشرح موقف .. او عتاب أو بتهنئة أو تعازى وهى غالبًا كانت بين الأدباء أو تصدر عن أحد الأدباء يقول د / شوقى ضيف : وهذه الرسائل الاخوانية التى كانوا يصوؤون بها مشاعرهم وعواطفهم من ثناء او هجاء أو استمناح او استعطاف او عتاب أو عزاء او تهنئة أو تعازى دفعهم تفننهم فى بعضها الى ان يتحولوا بها الى ما يشبه الرسائل الأدبية الخالصة ، وهى التى تتناول خصال النفس الإنسانية وتصور أهواءها واخلاقها وتوضح لها طريقها الى الخير ، وحتى لا تسقط فى مهاوى الشر ، ومن خير ما يصور ذلك رسالة

يحى بن زياد التى رد بها على رسالة لابـن المقفـع طلـب اليـه فيهـا ان تنعقـد بيـنهما اسباب الاخوة والوداد ، وهو يستهلها على هذه الشاكلة (1) **موجهاً كلامه لابنه :ـ**

" أما بعد فإنا لما رأينا موضع الإخاء ممن يحتمله فى تأنيسه من الوحشة وتقريبه لذى البعدة ومشاركته بين ذوى الأرحام فى القربة لم نرض بمعرفة عينه دون معرفـة نسبته ، فنسبنا الإخاء فوجدناه فى نسبته لا يستحق اسـم الاخـاء إلا بالوفـاء ، فلـما انتقلنا عنه الى الوفاء فنسبناه انتسب لنا الى البر ، فوجدناه محتويا على الكرم والنجـدة والصدق والحياء والنجابة والزكانة 2 وسائر ما لا يأتى عليه العدد من المحامـد ، ثـم انحدرنا فيما اصعدنا فيه من هذا النسب ، فعدنا الى الاخاء ، فوجدناه لايقوم بـه الا من هذه الخصال كلها اخلاقه ، ولما استوجب الاخاء مسالك المحمدة كلها رأينـا أن نتخير له المواضع فى صواب التروى واحكـام التقـدير ، وعلمنـا ان الاحتبـاس بـه أحسن من الندم بعد بذله واستوجب – اذ كان جماع المحامد – ان نتخير لـه محاملـه التى يحمل عليها ، وكان الناس فيما احتسـبنا بـه عـنهم مـن الإخـاء عـلى صـنفين ، فصنف عذرونا بالتحبس للخير إذ كان التخير من شأنهم، وصنف هـم ذوو سرعـة إلى الإخاء، وسرعة فى الإنتهاء، فقدموا اللائمة، واستعجلوا بالمودة ، وتركـوا بـاب التروية، واستحلوا عاجل المحبة، ولهو عن آجل الثقة ، فكانوا بـذلك اهـل لائمـة، ولم يجد المعذرون (3) إلا الصبر على تلك والاستعمال للرأى والاستعداد بالعـذر عنـد الحاجة.

1جمهرة رسائل العرب 3 / 67
2الزكانة : صدق الحس
3المعذر : من له عذر

أسباب الرسائل الاخوانية:

ساعدت كثير من الأسباب على تقديم الرسائل الإخوانية فى العصر العباسى:-

1 – العقلية العربية التى تطورت من خلال الالمام بمختلف الثقافات فى العصر العباسى نتج عنها كثير من الكتاب النابهين الذين عنوا بتدبيج كتاباتهم وأصقالها وتجديدها ... فتبوأت مكانة متميزة .

2 – خلو النثر من القيود الشعرية – الوزن والقافية – جعل كثير من الأدباء بل والشعراء ايضا يستخدمونه فى الأغراض الشعرية كأبى العتاهية .

3 – انتشار الدواوين وتنوع اغراضها جعل الأديب يأخذ نفسه بالحزم على تطويع لغته وانماء ثقافته لتغطية مختلف الجوانب النثرية ليحوز رضا أولى الأمر – رؤساء الدواوين – الخلفاء وهم غالبا من الأدباء المجودين .

أغراض الرسائل:-

1 – رسالة التعزية وذلك عند فقد عزيز يرسل أحد الأصدقاء يواسى أهل الفقيد كما فعل ابراهيم بن ابى يحيى حين عزى المهدى فى وفاة ابنته التى جزع عليها شديدا فيقول " أما بعد فإن أحق من عرف حق الله عليه فيما أخذ منه من عظم حق الله عليه فيما أبقى له ، وأعلم ان الماضى قبلك هو الباقى لك ، وان الباقى بعدك هو المأجور فيك ، وان اجر الصابرين فيما يصابون به اعظم من النعمة عليهم فيما يعافون منه "

2 – رسالة فى العتاب حينما تقع الفرقة بين الاصدقاء قد يلجأ احدهما الى ارسال رسالة لصديقه يرفق بها قلبه ويسل بها سخيمة نفسه قد تكون الرسالة رقيقة وقد تكون حادة لكنها فى كل الاحوال تبقى على الود وتحاول اعادة الأمور الى نصابها بين الاصدقاء كتب يوسف بن صبح الى محمد بن زياد الحارثى قائلا : "

حفظ الله وحاطـك ، رأيتـك – أكرمـك الله – فى خرجتـك هـذه رغبـت عـن مواصلتنا بكتبك ، وابلاغنا خبرك ، وقطعتنا قطع ذى السلوة او أخى الملـة [1] حتى كأنك كنت الى مفارقتنا مشتاقا ، والى البعد منا تواقا ، فوقع بعدك بحيـث تحب من جهتين : احداهما حلاوة الولاية ، والأخرى لذة الراحة منا ، فإن يكن ذلك كما رجيناه قاطعناك مجملين ، او لبسناك على يقين ، وما ادرى ما أقـول فى اختيارك ترك الكتب المحدثة عن العتب بالاسرار المفهومة ، حتى كأنها محادثـة الحضور ، عـلى تنـائى الـدور ، والقلـوب بهـا مشـاهدة ، وان كانـت الأبـدان متباعدة، ولئن كذب فيك الرجاء ، لقديم عز الوفاء ، وقد اصبتك مـن مـرارة العتاب بما لا تقيم بعده على قطيعة ولا جفاء، ولا تتوهمن أنى أردت ، أعانتـك باعتابى، ولا أن أزرى عليك بكتـابى ، فـإن وصـلت فمشـكور، وإن قطعـت فمعذور، والسلام .

3 – رسالة فى الاستعطاف وهى تصـدر لأُولى الامـر – ممـن دونهـم غالبـا – وقـد اشتهر هذا النوع من الرسائل لكثرة الموقعين بين الأحباب الناشدين للبغضـاء بين الاصحاب فتتبدل الأحوال ويحل الجفاء محل الود والصفاء فيلجأ الى تلـك الرسائل ابراهيم ابن سيابه الى يحى ابن خالد البرمكى حـين وقـع بيـنهما خلافـا فأرسل رسالة تضمنت حسن الكلام، وجميل الاسـتعطاف ،إضـافة الى اقـتران الشعر الجميل بالنثر المسجوع فأحدث نغما ووقفا متميزا لها " للاصيد[2] الجواد، الجواد، الوارى الزناد[3]، الماجد الاجـداد ، الـوزير الفاضـل الاشـم[4] البـاذل، اللباب الحلاحل[5]، من المستكين المستجير، البـائس الضريـر فـانى احمـد الله ذا العزة القدير، إليك والى الصغير والكبير، بالرحمة العامة والبركة التامة، أما بعد

1الملة : الملال
2الأصيد : السيد الرافع رأسه أنفة وشمما
3وارى الزناد : اصله مخرج النار منه ، وهو كناية عن مضاء العزيمة .
4الاشم : المملوء أنفة
5الحلاحل : السيد الشجاع ذو المروءة

فاغنم واسلم ، واعلم ان كنت تعلم ، انه من يرحم يرحم، ومن يحرم يحرم ، ومن يحسن يغنم ، ومن يصنع المعروف لا يعدم[1]، وقد سبق الى ، تغضبك على، واطراحك لى ، وغفلتك عنى، بما لا اقوم، له ولا أقعد ، ولا انتبه ولا أرقد ، فلست بحى صحيح، ولا بميت مستريح فررت بعد الله منك اليك، وتحملت بك عليك، **ولذلك قلت**:-

أسرعت بي حثا اليك خطائي فأناخت بمذهب ذي رجاء

راغب راهب اليك يرجى منك عفوا عنه وفضل عطاء

ولعمري ما من أصر ومن تاب مقراً من ذنبه بسواء

فإن – رأيت – اراك الله ما تحب ، وأبقاك فى خير – أن لا تزهد فيما ترى من تضرعى، وتخشعى، وتذللى، وتضعفى ، فإن ذلك ليس منى بنحيزة، ولكنه تذلل، وتخشع، وتضرع من غير ضارع[2] ولا مهين ولا خاشع لمن لا يستحق ذلك الا لمن التضرع له عز ورفعة وشرف" وقد عفا عنه يحى لحسن قوله وجميل رسالته .

4 – رسالة هجاء: قد تستخدم الرسائل لهجاء شخص ما وهى بذلك قاسمت الشعر بل قد شاعت كشيوع الشعر ولا سيما اذ صدرت من شاعر حيث يغلب حسه الشعرى ذوقه، قد يزينها ببعض الابيات الشعرية فتعلق فى الأذهان، وترددها الألسن، كما حدث مع رسالة ابي العتاهية حين هم الفضل بن معن بن زائدة، حين أرسل الأول له يسترفده فرده ردا غير جميل فكتب له هذه الرسالة هاجيًا قائلاً: "أما بعد فانى توسلت اليك فى طلب نائلك[3] باسباب الامل وذرائع الحمد فرارًا من الفقر ورجاء للغنى، فازددت بهما بعدا مما فيه تقربت ،

1لا يعدم : يريد لا يعدم المكافأة
2ضارع : ذليل
3النائل : الرفد والعطاء

وقربا مما فيه تبعدت، وقد قسمت اللائمـة[1] بينـى وبينـك، لأنـى أخطـأت فى سؤالك وأخطأت فى منعى، أمرت باليأس من أهل البخـل فسـألتهم، ونهيـت عن منع أهل الرغبة، فمنعتهم، وفى ذلك أقول:

فَرَرْتُ مِنَ الفَقْرِ الذي هُوَ مُدْرِكي ... إلى بُخْلِ محظـورِ النَّـوال منـوعِ

فَأَعْقَبَني الحِرمـانُ غِـبَّ مَطـامِعي ... كـذلكَ مَـن تلْقـاهُ غَـيرُ قَنـوعِ

وغـيرُ بـديعٍ منـعُ البُخْـلِ مـا لـهُ ... كما بَذْلُ أَهْلِ الفَضْلِ غَيرُ بَـديعِ

أذا أنتَ كشَّفتَ الرجالَ وجـدتهم ... لأعراضهـمْ من حافظٍ ومُضـيع

5- رسالة طلب الزيارةقـد يطلـب أحـدهم زيـارة شـخص فيبعـث لـه برسـالة يستزوره ويدعوه للقياه ويغريه بـأن سـيعد لـه شراب وقيـان ومسـامره كـما أرسل الحسن بن سهل لبعض أصـدقائه كـى يصـطبح معـه[2] فى يـوم دجـن غامت فيه السماء ولم تمطر[3]: "أما ترى تكافؤ الطمـع واليـأس فى يومنـا هـذا بقرب المطر وبعده كأنه قول كثير:

وإنّي – وتهيـامي بعـزّة بعـد مـا ... تخلّيــت فـــيما بيننــا وتخلّــت

لكــالمرتجي ظــلّ الغمامــة كلّــما ... تبوّأ منها للمقيل اضـمحلّت[4]

وما أصبحت أُمنى الا فى لقائك، فليـت حجـاب النـأى هتـك بينـى وبينـك ورفعتى هذه وقد دارت زجاجات أوقعت بعقلى ولم تتحيفه، وبعثت نشاط حركتـى للكتاب، فرأيك فى أمطارى سرورا بسار خـيرك، إذ حرمـت السـرور بمطـر هـذا اليوم، موفقاً إن شاء الله.

1اللائمة : اللوم
2- يصطبح: من الصبوح وهو الشرب فى الصباح.
3- زهر الآداب 2 / 146.
4- المقيل: النوم وقت القيلولة بعد ارتفاع الضحى.

6 – رسائل التهانى: فقد هنوا بكل شيء هنأوا بالخلافة أو الوزارة أو أى وظيفة يحصل عليها المهنأ، أو بالزواج والإنجاب أو بالحج وقد يهنئون بالظفر بالأعداء كما هنأ ابراهيم ابن المهدى المعتصم بخروجه عن أرض الروم بعد فتح عموريه فأرسل كاتبا " الحمد لله الذى تمم لأمير المؤمنين غزوته ، فأذل بها رقاب المشركين وشفى بها صدور قوم مؤمنين، ثم سهل الله له الأوبة سالماً غانماً ... وليهنئه ما كتب الله له مما احصاه فلا ينساه، ليقفه به موقفا يرضاه، فإنه يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [سورة التوبة: الآية 111]فطوى الله لأمير المؤمنين نازح البعد برا وبحرا ، ووقاه وصب السفر سهلا ووعرا ، وحاطه بحراسته كلئا، ودافع عنه بحفظه راعياً، حتى يؤديه الى المحل من داره، والوطن من قراره، وجزاه عن الإسلام خاصة ورعيته كافة."

7 – رسائل فى وصف الطبيعة: إذا كان وصف الطبيعة قد أفاض فيه كثير من الشعراء فإن النثر أيضاً قد خاض فيه ووصف الكتاب الطبيعة من حولهم .. مثلما وصف جبل بن يزيد نزول المطر عقب سنة مجدبة عانى الناس فيها من هلاك الضرع والزرع فقال: "عادت لنا من الله عائدة رحمة بولى[1] مطر انزله الله باحسن ما رأينا من المطر، وابلا جودا[2]، ولا يفتر غزيره، ولا يرعوى جوده الا الى ديمه[3] عن ديمة، يتراخى إليها يسيرا ريثما تعود ، فأقامت علينا سماؤه مستهلة[4].

1ولى المطر : الذى يسقط دفعة بعد دفعة
2الجود : المطر الغزير
3الديمة : المطر المنهمر بدون برق ولا رعد
4مستهلة : منصبة

بذلك الى غروب الشمس، ثم انقطع مطرها بسكون من الريح وفتور من القر[1] وفض من الله عظيم ينشر به رحمته ، ويبسط به رزقه ، فأسبغ النعمة، وأوسع البركة، واوثق[2] بحمد الله معارف الخصب، والله محمود على آلائه[3] مشكور على بلائه[4] وما انزل من سقياه ورحمته بعد الذى اقبلت به السنة البرية[5]، والقحط وعدم الأمطار، وشدة ما بلغ الناس من القنوط[6] وسوء الظنون."

8 – رسائل فى تمجيد أشعارهم .. وقد يضعون أشعارهم ويتحدثون عن جمالها وحسن نظمها ، كما أرسل الحسن بن وهب رسالة لأبى تمام يتحدث فيها عن روعة شعره وجودته فقال: "أنت – حفظك الله – تحتذى من البيان فى النظام، مثل ما يقصد بحر من الدرر فى الإفهام، والفضل بك – أعزك الله – اذ كنت تأتى به فى غاية الاقتدار، على غاية الاقتصار، فى منظوم الأشعار، فتحل متعقدة، وتربط متشردة ، وتنظم أشطاره، وتجلو أنواره.

9- الرسائل الطريفة ... قد يعرض لأحدهما فيرسل رسالة يغلب عليه الظرف وخفة الظل ويعتذر للمرسل اليه على سبيل التفكه والملامة كما حدث عندما أراد البرمكى ختان أحد أولاده .. فأهديت له الهدايا الثمينة وبعث له بفاخر الاشياء فلم يجد أحداً الاشخاص ما يهاديه فأ رسل اليه وعاءان أحدهما ملىء بالملح والآخر ملىء بنبات السعد ذو الرائحة الزكية وكتب اليه رسالة فكهه يعتذر من الإملاق وكيف ان أرسل له أول ما يبتدر من الطعام وهو الملح وآخر ما يلمس بعد الطعام وهو الطيب وليغفر له فى تقصيره عما بينهما فقال: "لو تمت الارادة لأسعفت العادة ولو ساعدت القدرة على بلوغ النعمة لتقدمت السابقين إلى خدمتك وأتعبت المجتهدين في كرامتك لكن قعدت بي

1-القر : البرد
2-اوثق هنا : أنبت وأعشب
3-الآلآء : النعم
4-البلاء هنا : الاحسان
5-البرية : المجدبة
6-القنوط : اليأس

القدرة عن مساواة أهل النعمة وقصـرت بي الجـدة عـن مباهـاة أهـل المكنـة، وخشيت أن تطوى صحيفة البر وليس لي فيهـا ذكـر، فأنفـذت المفتـح بيمنـه وبركته وهو الملح والمختتم بطيبه ونظافته وهو السعد باسطاً يد المعذرة وصابراً على ألم التقصير متجرعاً غصص الاقتصار على اليسير والقائم بعذري في ذلك

9- "لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَـرَجٌ إِذَا نَصَحُوا للهَّ وَرَسُولِهِ ۚ مَـا عَـلَى الْمُحْسِـنِينَ مِـن سَـبِيلٍ ۚ وَاللهُّ غَفُـورٌ رَّحِـيمٌ))

والمهدى ضارع في الامتنان عليه بقبول ومعذرته والاحسـان إليـه بـالاعراض عن جرائته " وعرضت الهدية على يحى، فلما قرأ الرقعة أمر أن يفـرغ الإنـاءان ويملأ أحدهما دنانير والآخر دراهم، إعجابا بتلطف صاحبها وبلاغته وحسـن بيانه.

فكتابة الرسائل كانت مشهورة بين الأدباء ولتعددها صارت مـادة أدبيـة ثريـة تعكس تفكير وعقـل كُتَابهـا، ومـدى ثقـافتهم وسـعة اسـتيعابهم للتقـدم العلمـى والأدبى فى العصر العباسى.

ظاهرة الزهد

أسبابها ومظاهرها:-

كان العصر العباسى عصراً ملىء بالحركة والتغيرات المختلفة فى شتى الأصعدة سواء فى الجانب السياسى أو الاجتماعى أو الفكرى وقد تضافرت عدة عوامل ساعدت على وجود ظواهر اجتماعية منوَّعة انعكس وجودها على الأدب وعلى أغراضه المتعددة ... وقد كانت هناك عوامل ساعدت على وجود ظاهرة الزهد بشكل جلى فى العصر العباسى.[1]

1 – الحياة السياسية :

اتسمت الحياة السياسية فى العصر العباسى بالتذبذب وعدم الاستقرار وتشعب الاهواء والإنتماءات السياسية واستغل أصحاب الأهواء كل الظواهر القلقة التى وجدت آنذاك ومنها اسم الشعوبية تلك الحركة التى تظهر الصراع المتأصل بين الفرس والعرب وتربص الفرس بالعرب ومحاولة النيل منهم حتى انهم استغلوا ما بين الأمين والمأمون، وكان المأمون يركن الى قوة الفرس ... ممثلة فى الفضل بن سهل الفارسى، بينما ارتكن الأمين الي القوة العربية وسانده الفضل بن الربيع العربى وانتقل التنافس من الأخوين إلى الفضلين ونُصر الأول وعد هذا الانتصار انتصارا للفرس على العرب ولم يعد المُلك العربى ثانية، وقد تكالب الشعراء على مديح الفضلين وأجزل الفاضلان للمادحين العطاء لإدراكهما أهمية الكلمة السيارة وآثرها فى تخليد ذكر الانسان .

1- من الممكن تعريف الزهد بانه نزعه روحية ينسلخ الانسان بها عن الدنيا – عندما يسيطر عليه العالم الدنيوى بطلباته واحتياجاته فيتطلع الى عالم الروح بمثالياته وسموه .

2 – الثورات المتعددة : -

وتعد الشعوبية وراء تلك الثورات أيضا فبعد مقتل أبى مسلم تعددت الثورات التى اشعلها الفرس أو ساعدت على إذكائها فقد ظهرت " ثورة سيناد" وهو مجوسى من خراسان خرج ليطالب بدم أبى موسى وإطاعة كثير من أهل خراسان و " الراوندية " وهى جماعة من اتباع أبى مسلم قالت بان الروح التى كانت فى عيسى بن مريم صارت فى على بن ابى طالب ثم فى الأئمة واحدا بعد واحد وزعموا أنهم آلهة فاستباحوا الحرمات .

3 – بث روح الفرقة والتشجيع على الزهد : -

وقد كانت الشعوبية وراء ذلك ايضا فلم يك ولاء الفارسى للعرب ولاءً خالصًا وانما كانوا يتقون وكلما احسوا بالوهن العربى او وجود خلافا بين العرب استغلوا ذلك أحسن استغلال بالاضافة إلى إنهم زكوا روح الزهد فى النفوس وزخرفوه لكى يصرفوا الهمم عن اللاحق بهم فى سلم العلى ولكى يلجأ الزهاد ومن نهج نهجهم الى الدعة والسكينة .

4 – نشأة الفرق الإسلامية وتشعبها :

فالخلاف بين على ومعاوية وانقسام المسلمين جزئين حزب مع على وحزب مع معاوية ونشوء الخوارج ثم تجدد الخلاف بين الشيعة والأمويين أثر مصرع الحسين ومأساة كربلاء وقيام حزب الزبيريين الذى دعا لعبد الله بن الزبير بمكة سنة 63 هـ فحزب العباسيين الذى قوض العرش الاموى .

كل هذا ادى الى اضطرابات وفتن كثيرة، فالشيعة لم ينسوا حقهم فى الخلافة فقد ثار محمد بن عبد الله بن الحسين بن الحسن بن على بن اب طالب الملقب "بالنفس الذكية" وأخوه إبراهيم فى الحجاز والعراق[1] فى عهد المنصور وثاروا

1- مروج الذهب جـ 2 صـ 133 .

كذلك ايام الهادى بزعامة الحسين بن على بن الحسن بن على الذى قتل فى موقعة (فخ)."[1]

ولم يقف الأمر عند ذلك بل ادى الخلاف السياسى والفكرى الى خلاف عقادى فظهرت المعتزلة ... أثر الخلاف بين الأئمة على حكم مرتكب الكبيرة أفى الجنة أم فى النار ... وتلاها ظهور المرجئة الذين رأو أن النظر فى ذلك عبث لا طائل من ورائه يجب إرجاء حكمة لله إن شاء عفى وإن شاء عاقب وتلى ذلك ظهور طائفة الإمامية التى تنسب الى الإمام أبى جعفر الصادق وتولد منها الاسماعيلية .. وكثر الجدل .. والبحث فى العقائد ولم يقتصر الأمر على تلك الفرق فقط بل انها تشعبت الى فرق أخرى .

فالمعتزلة انقسمت الى ثلاث عشرة فرقة والخوارج تشعبت إلى عشرين فرقة، والشيعة تشعبت إلى ثلاثين ، والمرجئة تشعبت إلى سبع فرق ، فجعل ذلك المسلمين فى حيرة من أمرهم لكثرة الشعب والفرق.

الحياة الاجتماعية: تغيرت الحياة الاجتماعية فى العصر العباسى عنها فى العصر الأموى فقد استقرت الأحوال وانتهت الفتوحات وبدأت الدولة تجنى ثمار التعب الذى بدأ منذ الدعوة الإسلامية، وصار الترف سمة العصر يسبح فيه الولاة والحكام والمَرْضِى عنهم ... **وقد كانت هناك عوامل ساعدت على هذا الترف منها:**

أ – ترامى أطراف الدولة واتساع رقعتها، جعلها تتمتع بخيرات البلدان المفتوحة، وما ينتج فى مصانعها " فالصناعة والزراعة والتجارة فى ازدهار كبير، ففارس تصدر كل سنة ثلاثين ألف ثوب وطبرستان ونهاوند ستمائة قطعة من الفرش

1تاريخ الاسلام السياسى جـ 2 صـ 140

ومائتين من الأكسية، يضاف إلى هذا ألوف القناطير من الزيت والعسل والتمر من سائر أنحاء المملكة.[1]

ب – كثير من البلدان المفتوحة كانت أصحاب حضارة ورقى وإزدهار ففى العراق وإيران كانت الحضاره الساسانية والكلدائية والآرامية وفى الشام ومصر الحضارة البيزنطية والسامية القديمة والمصرية فقد استتبع تلك الحضارات وجود رواج اقتصادى وتبادل نفعى .

جـ – الاهتمام بالزراعة والصناعة ... فالعباسيون ادركوا أهمية الزراعة فشقوا الأنهار وحفروا الترع ومدوا الجسور التى تربط بين مختلف الأصقاع وتبع الازدهار الزراعى رخاء تجارى فقد كانت السفن العباسية تبلغ سومطرة، وزنجبار وكلكتا، وجزر الهند والصين، ومدغشقر، والأندلس ... والمصطلحات التجارية التى اقتبسها الفرنجة من اللغة العربية تشهد بهذا التوسع التجارى الكبير[2] فقد بلغوا فى تجارتهم الصين أيام جعفر المنصور وكانت البضائع تنقل على قوافل متعددة بالتناوب[3] وتاجروا بالحجارة الكريمة والمسك والعنبر والزجاج والخزف والأرز والعقاقير والأبنوس والرصاص والصندل والعطور وجلود النمر والرقيق[4] فكانت تجارة عالمية ذات شأن، وإن من التجار من كان فى بضاعته ما يبلغ ثمنه ملايين الدراهم، ولقد رأى الطبرى من ذلك أن جعفرا البرمكى ساوم جوهريًا على عقد من الجواهر بسبعة ملايين درهم.[5]

ولا نستغرب هذا والثروات تتدفق تدفقًا على الدولة وعلى بعض الأفراد حتى قيل: إن ابن الحصاص الجوهرى ببغداد ظل غنيًا موسًرا بالرغم من أن المقتدر

1-ابن خلدون صـــ 156 ، 157
2-امراء الشعر صـــ 52
3-تاريخ العرب جـ 2 صـ 420
4-احسن التقاسيم صـــ 97
5-الطبرى جـ 6 صـــ 702

صادر ستة عشر مليون دينار، وان المعتصم استوزر رجلًا وكان جاهلًا إلا إنـه كـان غنيًا لأنه يخرج فى اليوم مائة دينار صدقة.[1]

كل ذلك كان يدر دخلًا وفيًرا إضـافة إلى دخـل الدولـة الرسـمى الـذى بلـغ ملايـين الملايـين[2] وفى الوقـت الـذى كـان فيـه المترفـون مـن الحكـام ووزرائهـم ومن صاحبهم يعيشون فى رغد لدرجة البطر والشره كان الغالبية العظمى يكابدون الشظف والحاجة وكان الجمع الغفير قد تحول الى أرقاء فى هـذا النظـام الـذى دفـق الترف للأقلية وادخر الشظف للأغلبية.

1-الطبرى صــــ 321

2-فالمنصور خلف حين توفى أربعة عشر مليونا من الدنانير وستمائة مليون من الدراهم ،والرشيد يموت عن تسعمائة مليون درهم ، والمكتفى خلف مائة مليون دينار .... ويقال إن غلة الخيزران زوجة المهدى من إقطاعاتها كانت تبلغ سنويا مائة وستين مليونا من الدراهم وكانت غلة أم الواثق عشرة مليون دينار فى العام وانفق ،المتوكل على قصوره التى بناها " بسر من رأى " مائة الف الف واربعة وتسعين الف الف درهم ... وكان للمقتدر أحد عشر ألف خادم خصى وكان فى داره شجرة من الفضة وزنها خمسمائة الف درهم وخلف عضد الدولة البويهى ما لايقل عن ثلاثة ملايين من الدينارات ... فإذا عدلنا عن الخلفاء الى الوجهاء والأعيان طالعتنا ثروات البرامكة وهى أشهر من ان تذكر .. فخالد البرمكى منح بشارا الف درهم لكل بيت من قصيدته التى مدحه بها ، واعطى ابراهيم الموصلى يوما ستمائة الف درهم وضيعة بمائة وستين الف وأعطى يحى البرمكى اسحاق الموصلى مائة الف درهم ليبتاع بها دارا ، واعطاه ابنه جعفر مائة الف لفرشها .. واعطاه ابنه الفضل مائة الف لزخرفتها واعطاه ابنه محمد مائة الف لنفقتها .

ظاهرة الأرقاء

تفشت تجارة الرقيق فى العصر العباسى حتى سادت وسيطرت وأثرى العاملون بها ثراء فاحشًا، فالتاريخ يذكر أن الرقيق كثر فى العصر العباسى كثرة مفرطة بسبب من كانوا يؤسرون فى الحروب وبسبب انتشار تجارته ، وكان هذا الرقيق من أمم شتى وأجناس مختلفة يحمل ثقافات ومدنيات متنوعة وكان غرام العرب بهم كبيرا حتى إنهم كانوا يفضلون الأماء على الحرائر فملأوا قصورهم زوجات ومحظيات وخدم .. وكانت عنايتهم بالجوارى بالغة فثقفوهن وعلموهن أصول الغناء وتهادوهن وغالوا فى أثمانهن واستعانوا بهن على مجالس لهوهم .

وكانت لهؤلاء الجوارى أيضا ثقافات وديانات وحضارات مختلفة فأثرت تأثيرًا واسعًا فى ابنائهن ومحيطهن وهى آثار امتدت إلى قصور الخلافة وعملت فيها عملا بعيد الغور .. فكان أكثر الخلفاء من أبنائهن كالمنصور والهادى والرشيد والمأمون والمعتصم والمتوكل والمقتدر وغيرهم.

وقد تمكن كثير من الأرقاء فى الحكم، وقرب موقعه من أصحاب الحل والعقد وكان للأرقاء ثقافة وحضارة اصطحبوها معهم فأثروا فى حياة من حولهم تأثيرًا جليًا .. وبالغ النساء فى الترف والتمتع بمباهج الحياة بشكل مسرف ،هذا وكان الغالبية فى بغداد يعانى الكفاف وظهر اتجاهان بينهما تناقض شديد..

ففى الوقت الذى يُطعم فيه الخلفاء الطيور والدجاج المغذى باللوز والبندق واللبن الحليب، نجد آخرين لا يجدون العيش الحاف فأكل الميتة والكلاب والسنانير حتى بيعت الدور بالخبز وقيل إن الكر من الشعير بلغ مائة وعشرين دينارا ومن الحنطة مائة وخمسين ديناراً.

قال أبو العتاهية:

من مبلغ عني الإمـام نصـائح متـــوالية … إني أرى الأسعار أسعار الرعـية غــالية

وأرى المكاسب نزرة وأرى الضرـورة فاشـية … من مصبيات جوع تمسي ـ وتصـبح طــاوية

من يرتجى لدفع كرب ملمة هي مـاهية … من للبطون الجائعات وللجسـوم العــارية

ألقيت أخبارا إليك من الرعية شـافية[1]

هذا إضافة إلى الأدواء الإجتماعية المتفشـية مـن شـيوع الدسـائس والرشـاوى وظلم الحكام وعدم الاهتمام بالعامة مما أدى الى تفشـى الأمـراض والأوبئـة .. كـل ذلك دفع الكثيرين إلى محاولة التخلص من المادة – لعدم تحقيق آمالهم – والالتحاق بالروح العليا من خلال الزهد والتقشف ... فإن محبطى الآمال ومجهضـى الأحلام قد يلجئون الى الزهد كبديل معوض عن آمالهم ... ورغبـاتهم المهيضـة ... كـذلك الشيعة حينما فشلوا فى تحقيق آمالهم وبعد مقتل أئمتهم تباعا نئوا عن الـدنيا وبعـدوا عن زخارفها وانتظروا من الله فرجًا قريبًا بعد أن شـعروا بـالظلم الفـادح لجئـوا إلى العبادة والتأمل لأنهم شعروا إنهم لبعدهم من الله انتكسوا ولو عادوا إليه لنصرهم ، وكان لهم خير المعين .

1- الديوان صـــ 304.

الحياة الفكرية

ترامت أطراف الدولة من الصين وأوسط الهند شرقا إلى المحيط الأطلسى غربًا ومن المحيط الهندى والسودان جنوبًا الى بلاد الترك والروم والصقالبة شمالا ، ونتيجة اتساع ضمت بلدان متعددة ؛ متنوعة الثقافة والحضارة ،ويلاحظ أن مختلف الفنون والعلم والأدب قدأحدثت تطورًا مذهلًا فى هذا العصر ـ كما سبق .وهناك أناس قد رفضوا هذا التقديم وذلك الرقى العقلى ، ولاذوا بالزهد ولجأوا الى المثاليات والروح ؛ لفقدهم الثقة فى عالم الماديات والتطور المتلاحق .

أسباب اللجوء الى الزهد:

ومن ثم تضافرت عدة أسباب دفعت الكثيرين الى الالتجاء للزهد، فلم يك الباعث على الزهد – دائما سبب دينى من رفض الدنيا والرنو إلى الأخرة ، فالمتزهدين كانوا مختلفين فى المشارب والأهواء.وكان للزهد ألوانه ومشاربه التى تفاوتت وتباينت حيث رأينا:-

1- منهم من رأى أن النفس لا تظمأ أبداً، وانه كلما ارتوت غريزة عطشت غرائز أخرى فوجدوا الصلاح فى كبتها من المنبع وقمعها من المنشأ.
2- منهم من تطلع إلى الثورة على السلطة، ونظام الحكم فلم يستطيعوا فركنوا إلى الزهد يستعيضون به عن الآمال المحبطة.
3- منهم من أصيب بصدمة أو حدثت له خيبة أمل فى حب أو جاه أو سلطان.
4- منهم من رغب فى الأخرة حقا، ورغب عن الدنيا ورفضها ،وتزهد كالخليل بن أحمد الذى رفض عطاء سليمان ابن حبيب بن المهلب .
5- منهم من تزهد تخففاً من تكاليف الحياة والأخرة كإبراهيم بن اسحاق الحرى الذى عاش عمره على الخبز اليابس والملح.

6- منهم من تزهد خوفًا من الله ورجاءً فى ثوابه وخوفا من عقابه وسمع قول الله تعالى: ﴿.....وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [سورة التوبة: الآية 34] فتزهدوا عن يقين وعقيدة سليمة صادقة.

أنواع الزاهدين:

الحق أنه لم يك الزاهدون كلهم متشابهى المنشأ والحياة بل تنوعت ظروفهم واختلفت معيشتهم، لكنهم اتفقوا فى الخضوع لسبحات روحية وومضات إيمانية لفتت انتباههم وشدت أنظارهم إلى عالم الروح وسموه مخلصة لهم وتائقة إلى الخلاص من عالم المادة ورسوخه ، وقد كان هؤلاء الزهاد على عدة أنماط.

(1) شعراء زهدوا من البداية: على تباين مظاهر الحياة العصر العباسى من نحو امتلاء الدور والحانات بالفساق والمجان ... نجد أيضا اكتظت المساجد بالراغبين عن الدنيا، الراغبين فى الدين الآملين فى عفو الله ورحمته ... ناصحين للناس مبينيين طريق الغى والضلال وعاقبته السيئة ... وطريق الرشد والهداية وعقباه الحسنى ..ولأن الأدب تعبير صادق عن المشاعر والاحاسيس والتى تعكس فكر المجتمع واتجاهاته وما يموج به من أفكار متباينة.

فلذا كان الزهاد يلجأون إلى استخدام الشعر والقصص ليقنع الناس بضرورة الأنسلاخ من الدنيا والبحث عن الآخرة كما كان يمثل مالك بن دينار هذا الإتجاه حين يقول:

أتيت القبور فناديتها أين المعظم والمحتقر؟!

وأين المذل بسلطانه وأين القوي على ما قدر؟!

ويتمثل سفيان الثورى:

باعوا جديدًا جميلًا باقيًا أبدًا بدارس خلق يا بئس ما تجروا

عبد الله بن المبارك

هو أبو عبدالرحمن بن واضح الخطابى السرسانى، كان أبوه تكيًا مرزويًا، وكان من التجار كثير الرحلات والأسفار فى طلب العلم والتجارة سافر إلى مصر وطرطوس واليمن والبصرة والكوفة وغيرها، كان حسن الخلق متفقهًا فى الحديث حتى قيل إن إذا اختلفوا فى الحديث ذهبوا إليه ليدلهم على الصواب .. قيل عنه أبو سلم ابن المبارك فى الحديث مثل أمير المؤمنين فى الناس واشتهر شهرة مدوية فى الزهد والورع والنسك حتى إن أباسفيان الثورى قال: " لو جهدت جهدى أن أكون فى السنة ثلاثة أيام على ما عليه ابن المبارك لم أقدر."

وكان يحج ويجاهد فى سبيل الله، وحينما خرج مع الجيوش الذاهبة للروم كان يعظ الجنود ويحمسهم للقتال، ويدفعهم للاستشهاد ويلقى على الناس الحديث فى الثغور – وهو بذلك يمحى فكرة أن الزهاد سلبيون كالرهابنيين؛ "فابن المبارك" كان أداة محركة لمشاعر الجنود ليستبسلوا فى الدفاع والقتال .. وكان كريمًا سخيًا؛ وبلغ كرمه وسخاؤه مبلغًا عظيمًا فقد كان ينفق الأموال الطائلة على الفقراء وذوى الحاجات، وبلغ ما ينفقه فى العام الواحد مائة الف درهم، وكان أكثر ما ينفق على طلاب الحديث، ولما عوتب فيما يفرق من الأموال فى البلدان – دون أن يفعل هذا لأهل بلده قال: "إنى أعرف مكان قوم لهم فضل وصدق ، طلبوا الحديث فأحسنوا الطلب للحديث، بحاجة الناس إليهم احتاجوا فان تركناهم ضاع عليهم وان أعناهم بثوا العلم ولا أعلم بعد النبوة أفضل من بث العلم."[1]

وقد صح أنَّ ابن المبارك كان يشتغل بالتجارة ويربح منها كثيرًا وقال له الفضيل بن عياض مرة، يا ابن المبارك : أنت تأمرنا بالزهد، وبالتقلل، والبلغة، ونراك تأتى بالبضائع من بلاد خراسان الى البيت الحرام وكيف ذاك؟!، فقال : إنما

1- تاريخ بغداد جـ 10 صـ 161

أفعل ذلك لأصون ماء وجهى، وأكرم به عـرضى ،وأسـتعين بـه عـلى طاعـة ربـى، لا أرى حقاً إلا سارعت إليه حتى أقوم به، فقال الفضيل: يا ابن المبارك ما أحسن ذا إن تم ذا. ومن جيدأشعاره التى تفصح عن زهده عميق.

همومـــكَ بـــالعيشِ مقرونـــةٌ فـــمَا تقطـــع العـــيشَ إلاَّ بهـــمْ

حـــلاوةُ دنيـــاكَ مســـمومةٌ فـــمَا تأكـــلُ الشـــهدَ إلاَّ بسَـــمْ

رأيت الـذنوب تميـت القلـوب ويخـــترم العقـــل إدمانهـــا

يبيـــع الفتـــى نفســـه فى رداه وأســـلم للـــنفس عصـــيانها

وكان محباً للعلم ناشرًا له؛ داعيًـا الى أن يكـون خالصًـا لوجـه الله تعـالى؛ ولا يجعله باب رزق يرتزق من خلاله:

يـا جاعـــل العلـــم لـه بازيـا يصـــطاد أمـــوال المســـاكين

احتلـــت للـــدنيا ولذاتـــها بحيلـــة تـــذهب بالديـــــن

فصـــرت مجنونـــا بهـــا بعـــد مـــا كنـــت دواءً للمجـــانين

أيـــن رواياتـــك فيســـــردها عن ابـن عـوف وابـن سـيرين

أيـــن رواياتــــك والقـــول في لـــزوم أبـــواب الســـلاطين

إن قلـت أُكرهـتُ فـذا باطـل زلَّ حمـــار العلـــم في الطـــين

ولأنه رجـل مسـلم فهـو يـدعو الى الإيجابيـة الإسـلامية، وعـدم الاسـتئثار بالتنسك وترك الجهاد، والإكتفاء بالعبادة لأن العابد يقدم دموعه ابتغاء رضـاء ربـه .. أما المجاهد يقدم دمه طلبًا لرضوانه فيقول:

يا عابدَ الحـرمين لـو أبصرتْـنَا لعلمتَ أنَّكَ في العبـادةِ تلعـبُ

مَنْ كانَ يخضبُ خـدَّه بدموعِـه فنحورنُـــا بدمـــائِنا تَتَخْضَــبُ

أوكان يتعـبُ خيلـه في بـــاطل فخيـولنا يوم الصـبيحة تتعـبُ

ريحُ العبيرِ لكم ونحنُ عبـــيرُنا رَهَجُ السنابكِ والغبارُ الأطيبُ

ولقـد أتـــانا مـــن مقـالِ نبيِنـا قولٌ صحيحٌ صادقٌ لا يَكـذبُ

لا يســتوي غبـــارُ أهــلِ الله في أنفِ أمريءٍ ودخانُ نـارٍ تَلهـبُ

هــذا كـــتابُ الله ينـــطقُ بيننـا ليسَ الشهيدُ بميـتٍ لا يكـذبُ

وعـاش حياتـه كلهـا يـدعو الى الزهـد وكبـت الشـهوات والتخلصـمن رق الدنيا... وحينما توفى... قال إسماعيل ابن عباس ما على وجه الأرض مثـل عبـد الله بـن المبـارك ولا أعلـم أن الله خلـق خصـلة مـن خصـال الخـير إلا وقـد جعلـت فى ابن المبارك.

(2) محمود الوراق:

كان على حظ عظيم من الغنى والثراء عاش فى العصـر العباسى الأول وقيـل إنه أُغرم بجاريته "سكن" فلم مسته فاقة عرض لبيعها فأتى من يشتريها بمائـة الـف درهم، فمال محمود إلى بيعها ولما عرض عليها ذلك ، فاضت عيناها بالدموع وبكت حزنا على فراق محمود ، وقالت يا محمود هذا آخر أمرى وأمرك أن اخترت عليَّ مائة ألف درهم فزهدت فى صحبتى قبح الله دهـراً ألجـأك إلى هـذا، فـرق لهـا وحررهـا وأصدقها داره وكانت كل ما يملك[1] ولما رأى الطاهرى ذلك وهبها المال الذى كان قد عرضه ثمنا لها فأخذه الوراق وعاش مع "سكن" باغمط عيش، ومن طريف مـا يروى من أخبار جواريه اللائى كن ينعمن بعطفه أن المتوكل عرض لـه فى إحـداهن عشرة آلاف دينار فأبى، فلما توفى اشتراها فى ميراثه بخمسة آلاف دينار وذكر

1طبقات الشعراء صـــ 367

لها المتوكل ما كان من أمر محمود معه فقالت يا أمير المؤمنين إذا كانت الخلفاء تتربص بلذاتها المواريث فسنشترى بأرخص ما اشتريت.[1]

له أبيات كثيرة تدعو الى الزهد وعدم الإلحاح فى جمع المال يقول:

أظهروا للناس دينا وعلى الدينار داروا
وله صاموا وصلوا وله حجوا وزاروا
لو علا فوق الثريا ولهم ريشٌ لطاروا[2]

ويسخر من طالب الغنى أن قد يعصى الله بغناه لكن الفقير لن يعصى الله أبداً يقول:

يا عائبَ الفقيرِ ألا تَزْدَجِرْ عيبُ الغِنى أكبرُ لو تَعْتَبِرْ
من شرفِ الفَقْرِ ومن فَضلِه على الغِنى إِن صَحَّ منكَ النظرْ
أنكَ تعصي كي تنالَ الغنى وليسَ تعصِي اللهّ كي تفتقِرْ[3]

ويقول مناجياً ربه فى ومضة روحية توضح صدق مشاعره وعنفوانها وهى مناجاة رقيقة خرجت من قلب محب لله يرجو رحمته ويخشى عذابه:

أيا رب قد احسنت عودا وبدأة إلي فلم ينهض بإحسانك الشكر
فمن كان ذا عذر لديك وحجة فعذري إقراري بأن ليس لي عذر[4]

ب – شعراء زهدوا بعد مجون وهم كثيرون رتعوا فى الحياة ذهابًا وإيابًا واقتنصوا من لذاتها وعبوا من شهواتها ،ثم سئمت أنفسهم فلفظوها .. ومالوا إلى

1العصر العباسى الأول صـ 409
2العقد الفريد ج3 ص 216
3عيون الاخبار جـ 1 صـ 249
4فوات الوفيات جـ 2 صـ 564-

ركلها بعد الركوض فيها، فمنهم آدم بن عبدالعزيز حفيد عمر بن عبدالعزيز اشـتهر بالمجون والخلاعة ثم تاب وتنسك وله أبيات فى الزهد جميلة منها:

ومـــا كنـــا لنخلـــد اذا ملكنـــا   وأى النـــاس دام لـــه خلـــود

- محمد بن يسير الرياش:

كان مولى لبنى رياش وقيل هو مـن صـلبهم ، وكـان ماجنـاً خبيثـاً ثـم زهـد وتنسك ويعجب من قرب الأحياء من الموتى ومـع ذلـك الأول فى غفلـة لا يعـون شيئاً يقول:

لكـــل أنـــاس مقـــبر لفنـــائهم   فهـــم ينقصـــون والقبـــور تزيـــد

هم جـيرة الأحيـاء امـا محلهـم   فدان ولكـن اللقــاء بعيـــد [1]

ويدعو"الرياش" الى الصبر ويحث عليه حيث لا يظفر بحاجته إلا الصبور كما يدعوا إلى الروية والتأنى وعدم الاغترار باللذة القريبة فيقول:

كم من فتى قد قصرت فى الرزق خطواتـه   ألفيتـه بسـهام الـرزق قـد فلجـا

لا تيـــأس وإن طـــالت مطالبـــة   اذا استعنت بصبر أن ترى فرجـا

إن الأمـــور اذا انســـدت مســـالكها   فالصبر يفتح منها كل ما ارتتجـا

أخلـق بـذى الصـبر أن يحظـى بحاجتـه   ومد من القرع للأبواب أن يلجـا

ثم يقول:

فاطلب لرجلك قبل الخطـو موضـعها   فمن علا زلقـا عـن غـرة زلجـا

ولا يغرنـك صـفو أنـت شـاربـه   فربما كان بالتكديـر ممتزجـا [2]

1-الشعر والشعراء صـــ 756
2-الشعر والشعراء صـــ 756

(ج) زهاد من العلماء

إذا كان الماجنون والمستهترون عرفوا الله فبذلك يكون قد وقفوا على حقيقةأنفسهم وحجموها حجمها، فإن من العلماء من أفاض الله عليه بتلك المعارف فخشوه وحبوه ... وحاولوا تقديره قدره .. فاشتهروا بالزهد والورع من هؤلاء:

1 - الشافعى: محمد بن ادريس: ابن العباس بن عثمان وهو يجتمع مع رسول الله ﷺ فى عبد مناف وهو رابع آباء الرسول، وعاشر آباء الشافعى، فالرسول من ولد هاشم بن عبد .... والشافعى من ولد هاشم بن عبدالمطلب وقد وصف الشافعى[1] بإنه شقيق رسول الله فى نسبه وشريكه فى حسبه فلم تنل رسول الله طهارة فى مولده وفضيلة فى آبائه إلا وهو قسيمه فيها إلى أن افترقا فى عبد مناف ... فقد ولد الشافعى الهاشمان هاشم بن عبدالمطلب - وهاشم بن عبد مناف[2] ولم تكالوراثة العربية آثار ظاهرة فى تكوينه وتفكيره، فهو عالم قريش الذى ملأ طباق الأرض علمًا، وقد تهيأت له الظروف من الاتصال بمناطق إسلامية عربية مختلفة، فقد ولد بغزة ونشأ بمكة وبها تعلم القرآن، وهو ابن سبع سنين، وسمع الحديث عن جماعة من أصحابه وأئمته، ورحل إلى المدينة وقرأ الموطأ على الإمام مالك ، وأخذ عنه علم الحجازيين.[3]

ثم رحل إلى بغداد وأخذ فيها وأعطى مدة كافية وعاش فى اليمن وهو كبير، ثم هاجر الى مصر وأمضى بها السنوات الأخيرة من حياته ... وقد ساعده هذا التنقل من الإفادة من ثقافات تلك البيئات المتعددة فقد اتصل اتصالًا مباشرًا بثقافات الأمم ومذاهبها المختلفة التى ترعرعت فى ذلك الحين. ولم يمنعه فقره وضيق يده من مواصلة الدرس وتحصيل العلم، فقد نشأ يتيمًافى حجر أمه فى قلة

1-ادب الزهد فى العصر العباسى د / السيد عبدالستار.
2-تاريخ بغداد جـ 2 صـ 58.
3-شدرات الذهب جـ 2 صـ 9

عيش وضيق حال، وكان المعلم يقصر فى تعليمه لإنه فقير إلا أن المعلم كان كلما علم صبياً شيئاً تلقف الشافعى ذلك الكلام، ثم إذا قام المعلم من مكانه أخذ الشافعى يعلم الصبيان تلك الأشياء، فنظر المعلم فرأى الشافعى يكفيه امر الصبيان أكثر من الأجرة التى كان يطمع فيها فترك طلب الأجرة ، واستمرت هذه الأحوال حتى تعلم القرآن.[1]

ويقال إنه كان ذو بصيرة حادة ونهم للمعرفة لا يرتوى فهو يجالس العلماء، ويكتب ما يستفيد على الخرق ،وكان يذهب للديوان ويطالع كما إنه أقام فى السادية قرابة عشرين عاماً آخذا أشعارها ولغاتها واطلع على كتب الفراسة فكتبها جميعا ونظر فى علم النجوم وكان بصيرًا بالفروسية والرمى وصنف كتاب السبق والرمى ولم يسبقه إليه أحد[2] وعرف له العلم بأيام العرب وانسابها

[3]وبرع فى اللغة والشعر حتى قيل عنه : انه لغة وحده يحتج بها[4]وحتى الأصمعى مع جلالة قدره وعلو شأنه فى اللغة والأدب كان يقرأ عليه شعر الهذليين وسمع منه شعر الشنفرى[5] وكانت له دراية بعلوم الطب ، فقد سئل فى مجلس الرشيد كيف علمه بالطب فذكر ما قالت الروم واليونان وأرسطاليس ، وبقراط وجالينوس وانبا دقليس وهى أسماء لعلها لم تكن قد راجت وشاعت فى أيام الرشيد اذ عنى بامر هذه العيون فى أيام المأمون .. ولعل عناية الشافعى بعلم الطب بسبب ما كان يعانيه من ضعف فى صحته.[6]

فقد أخذ من كل فن بطرف حتى كملت شخصيته الثقافية حتى قيل من رأى مثل الشافعى فى علمه وفصاحته ومعرفته وبيانه وتمكنه فقد كذب .

1-مفتاح السعادة جـ 2 صـ 222.
2-تهذيب التهذيب جـ 6 صـ 31.
3-الاعلام جـ 6 صـ 250.
4-تهذيب التهذيب جـ 9 صـ 310.
5-نزهة الجليس جـ 2 صـ 135.
6-المجددون فى الاسلام صـ 77 .

حفظ الشعر عن ظهر قلب ثم تركه وقيل سبب تركه له انه كـان ينشـد الشـعر فمر به رجلاً من الزبيريين فقال كم أتمنى أن يكون مع هذه الفصـاحة والـذكاء فقـه ... فتكون سدت أهل زمانك .. قال الشافعى فوقع ذلك فى قلبى ففررت إلى موطـأ مالك فحفظته ويقول ما شبعت من ست عشـرة سنة إلا شبعة طرحتها لأن الشـبع يثقل البدن، ويغشى القلب ويزيل الفطن، ويجلـب النـوم، ويضـعف صـاحبه عـن العبادة، وفى قراءته القرآن حلاوة، وفى نبراتـه خشـوع، ومـن صـوته عيـون باكيـة، وقلوب واجفة ، وابصار خاشعة، وكان البعض إذا أراد أن تدمع عيناه ويبكى قلبـه يقول قوموا بنا الى هذا الفتـى المطلبـى يقـرأ القـرآن، فـإذا رأى ذلـك امسـك عـن القراءة.[1]

ويقول مفتخرا ببعده عن الدنيا:-

بَلَــوْتُ بَنـي الـدُّنيا فَلَـمْ أَرَ فِيـه ... مُسوى من غدا والبخلُ ملءُ إهابـه

فَجَرَّدْتُ مِنْ غِمْدِ القَنَاعَةِ صَـارِماً ... قطعـتُ رجائـــي مـنهم بذبابـه

فــلا ذا يــراني واقفـــاً في طريقــه ... وَلاَ ذَا يَــرَانِي قَاعِـــداً عِنْـدَ بَابِــهِ

عنـــيٍّ بلا مــالٍ عن النَّاس كلهـم ... وليس الغنى إلا عن الشـيء لا به[2]

ويقول ناصحاً مراعاة الدقة فى اختيار الأصدقاء:

ودع الـذين إذا اتـوك تنسـكوا ... واذا خلـوا فهـم ذئـاب حقـاف[3]

وما أكثر هؤلاء عند النعماء امـا ... إذا اصابت الانسان بأساء فهم قليل

ولا خـير فى ود امـرىء متلـون ... اذا الـريح مالـت مـال حيـث تميـل

وما أكثر الإخوان حين تعـدهم ... ولكـــنهم فى النائبــــات قليــل[1]

1- تاريخ بغداد جـ 2 صـ 62
2 - الديوان صـــ 16
3- الديوان صـــ 47

ويؤثر الوحدة المطمئنة على الصحبة التى لا أمان لها ولا سلامة من اجتماعها فيقول:

صديق ليس ينفع يوم بأس قريب من عدو فى القياس

ولا يرجى الصديق بكل عصر ولا الأخوان إلا للتأسى

خبرت الناس ملتمسا بجهدى أخا ثقة فأكداه التماسى[2]

يقول متمنيًا ومفضلاً الوحدة على الجليس الغير مأمون:

إذا لم أجد خلا تقيا فوحدتى أود وأشهلا من غيرى أعاشره

وأجلس وحدى للسفاهة آمنا أقر لعينى من جليس أحاذره[3]

ويقول داعياً إلى الاحتفاظ بالسر وعدم افشائه:

اذا المرء أفشى سره لصديقه ودل عليه غيره فهو أحمق

اذا ضاق صدر المرء عن سر نفسه فصدر الذى اودعته السر أضيق[4]

ويقول مناجياً ربه:

ما شئت كان وإن لم أشأ وما شئت ان لم تشأ لم يكن

خلقت العباد على ما علمت ففى العلم يجرى الفتى والمسن

على ذا مننت وهذا خذلت وهذا أهنت وذا لم تهن

فمنهم شقى ومنهم سعيد ومنهم قبيح ومنهم حسن[5]

1الديوان صـــ 53
2-الديوان صـــ 39
3-الديوان صـــ 33
4-نزهة الجليس جـ 2 صـــ 116
5-الديوان صـــ 69

(د) مشهورون بالفجور ثم بالزهد:

أبو العتاهية ... اسماعيل بن القاسم بن سويد، وأبو العتاهية لقب غلب عليه قيل لإنه كان يحب الخلاعة والمجون والتعتعة، وقد نشأ نشـأة وضـيعه قيـل إن أمـه كانت مولاة، وأبوه بائع جرار أو حجَّام، وقد نشـأ فى الكوفـة ثـم اتصـل بـابراهيم الموصلى وتعاهدا على الوفاء، فنزلا بغداد فأصاب الأول خيراً لم يك لأبـى العتاهيـة نصيباً منه ... فعاد الى الكوفة لكن سرعان مـا أرسـل إليـه إبـراهيم الموصـلى حيـنما اتصل بالخليفة المهدى الذى أعجب بشعره وأجرى عليه صلاته ،... كـذلك عـاش مكرمًا فى عهد الرشيد ... وقد عاش كثيًرا من حياته ماجنًا فاسقًا، لكنه سرعـان مـا آب الى ربه وختم حياته بالزهد ، وعاش زهاء ثلاثين عاماً يتغنـى بالكـأس الخالـدة كأس الموت التى لابد الكل ذائقها حتى قال:

لِدوا لِلمَـوتِ وَابنـوا لِلخَـرابِ　　　فَكُلُّكُـــمُ يَصـــيرُ إِلى ذَهـــابِ

والنـــاس فـــــى غفلاتهـــم　　　ورحـــــــى المنيـــة تطحـــن

ويقال إن وراء تنسكه وزهـده فشـله فى حـب عتبـة أمـة المهـدى التـى ظـل يلاحقها فشكته للمهدى، فضـربه مائة سوط، ومنهم قال أنه لم يك يحبها بل أحـب الشهرة عن طريقها. ومنهم من قال إن هاتفاآتاه حين أنشد:

الله بينــــى وبـــين مـــولاتى　　　أهــدت لى الصــد والمــلالات

قال: ما أحببت أحداً تدخله بينـك وبـين عتبـة يحكـم لـك عليهـا بالمعصـية إلا الله يقول: فانتبهت مذعوراً وتبت الى الله من ساعتى عن قـول الغـزل ... وقـال آخرون إن نشأته وضيق عيشه جعلته يحس حقارة فى نفسه فأقبل على الدنيا لكنهـا لم تأته فزهد زهد اليائس إضافة لوجود كثير من الزهاد مـن رفاقـه نحـو ابـراهيم بـن أدهم والفضيل بن باص – شقيق الباقى – وغيرهم فزهد وكان يقول:

ألا إنما التقـوى هـى العـزم والكـرم   وحبــك للـدنيا هــو الفقـر والعـدم

وليس علــى عبـــد نقـى نقيصـة   إذا صحح التقوى وإن حـاك أو حجـم

فقد اعتزل الناس واشتغل بالحجامة بالأجر بعد تنسكه وزهده ويقال إنه قـد بالغ فى ذمه الدنيا والتنفير منها حتى قال:

يا مَن بنى القصر في الدنياوشيده،   أسّسْتَ قَصرَكَ حَيثُ السّيلُ والغرق

لا تَغْفُلَــنّ، فــإنّ الــدّارَ فانِيَــةٌ،   وشربهَـا غصـصٌ أو صـفوهَا رنـقُ

والموتُ حـوضٌ كريـهٌ أنـت واردُهُ   فانظرْ لنفسكَ قبلَ الموتِ يـا مَـذِقُ[1]

ويحذر منها وإنها غادرة وأن الانسان لابد تارك ما وراءه فيقول:

قَـد رَأَيـتَ القُـرونَ قَبـلُ تَفانَـت   دَرَسَت وَانقَضَت سَريعاً وَبانَـت

كَم أُناسٍ رَأَيتَ أَكرَمَـتِ الدُنـــيا   بِـبَعضِ العُـروضِ ثُـمَّ أَهانَـت

كَم أُمورٍ قَـد كُنـتَ شَـدَدتَ فيهـا   ثُـــمَّ هَوَّنتَهــا عَلَيــكَ فَهانَـــت

هِـيَ دُنيـا كَحَيَّـةٍ تَنفُـثُ السُـــمَ   وأى حيـــة يلمســـها لانَـــت[2]

ثم يقول:

يـــا خـــاطب الـدنيا لنفسـها   تــنح عـن خطبـــتها تسـلم

إن التـــى تخطـــب غـــــرارة   قريبـــة العـــرس مـــن المــأتم[3]

ويقول متحدثاً عن عموم الموت وشموله:

الموت فيــه جميع الخلق مشترك   لا ســـوقة مـنهم يبقـى ولا ملـك

1-الديوان صـــ 172.

2-الديوان صـــ 50، 51 .

3البيان والتبيين جـ3 صـــ 180.

ما ضر أهل قليـــل في تفـرقهم وليس يغني عن الأملاك ما ملكـوا

عجبـاً تشاغـــل أهـــل ذي الـــدنيا ومـــا فيهـــا لهـــم دركُ

طلبوا فـما نـالوا الـذي طلبــوا منهــا وفاتهـــم الــذى تركـــــوا

لم يختلـف فى المـوت مســلكهم لا بــل سبيـــلًا واحــدا ســلكوا [1]

ولا شك أن أبا العتاهية كان مذهبه فى الزهد مناسبًا مع الشكل العام للعصر، فإن السلوك العام كان يدعوا للزهـد ليقابـل الخلاعـة والمجـون التـى اشـتهرت فى العصر العباسى يقول:

ومـا لـك غـير تقـوى الله مـال وغير فعالـك الحسـن الجميـل

3 – أبو نواس الحسن بن هانىء بن عبد الأول لقب بأبى نواس:

لأنه له ذوأبتان كانت تنوسان على كتفه، وهو من أبوين فارسيين، وحينما بلـغ ست سنوات انتقلت به أمه الى البصـرة لينهل من علم علمائهـا، فـالتحق بالكتـاب لفترة طويلة، ثم أعطته لعطار ليمتهن مهنة واختلط بواليه ابن الحباب الذى أعجب بذكائه وصوته فقال له إنى أرى فيك مخايل فطنة وذكاء أرى ألا تضيعهما ،وسـتقول الشعر وتعلو فيه فأصحبنى حتى أخرجك، واختلط باصحاب والبه بـن الحبـاب فى الكوفة، ثم ارتحل الى البادية فمكث بها عاماً اتقن اللغة وقرأ نحو سيبويه ... ودرس غريب الألفاظ على أبى زيد الانصارى، وقرأ القـرآن الكـريم عـلى إمـام القـراءات العالم الزاهد الورع يعقوب الخضرمى وقد بلغ من حذق أبى نواس فى قراءة القـرآن أن رمى الشيخ له بخاتمه وقال له: "اذهب فأنت أقرأ أهـل البصرـة " لمـا اتقنـه مـن اللغة والحديث والشعر.

1-الديوان صـــــ 186.

أسباب زهـده:-

قيل وضاعة أصله فأبوه من الدهماء فشعر بضعف أصله ونقص مروؤته .... إضافة إلى فشله فى حب جنان وما كان يلاقيه من ظلم الخلفـاء للتعصـب عليـه،... فهرب من ذلك كله فى البداية إلى الغرق فى المادية واللهو والمجـون فلـم يجـد راحـة فانسلخ منها إلى الروحية والزهد ... وقيل بل استجابة لنصيحة الفضل بـن الربيـع عندما اطلقه من السجن ... أو لأنه أحب أن يعارض أبا العتاهية فى أشـعاره. وأبـو نواس يحزن على ما فرط من أيامه فى لهو ومجون فيقول مناجياً ربه:

يا ربِّ إنْ عَظُمَتْ ذُنُـوبِي كَثْـرَةً	فلقد عَلِمْتُ بِأَنَّ عفـوك أَعْظَـمُ
إنْ كَـانَ لاَ يَرْجُـوكَ إِلاَّ مُحْسِــن	فَمَن الذي يَدْعُو ويَرْجُو المجرم
أَدْعُوكَ رَبِّ كما أمرت تَضَـرُّعاً	فَإِذَا رَدَدَّتَ يَدِي فمن ذا يَـرْحَمُ
مَـالِي إِلَيْـكَ وَسِـيلَةٌ إِلاّالرَّجَـا	وَجَمِيـلُ عَفْـوِكَ ثُـمَّ إِنِّي مُسْـلِمُ

ويقول متحسرًا على ما فرط بعد أن تقدم به العمر:

اِنقَضَت شِرَّتي فَعِفـتُ المَلاهـي	إِذ رَمى الشَيبُ مَفرِقي بِالـدَواهي
وَنَهَتني النُهـى فَمِلـتُ إِلى العَـد	لِ وَأَشــفَقتُ مِــن مَقالَــةِ نــاهِ
أَيُّها الغافِـلُ المُقيمُ عَـلى السَهَــ	وِ وَلا عُــذرَ في المُقــامِ لِســاهِ
لا بِأَعمالِنـا نُطيـقُ خَلاصــــاً	يَـومَ تَبـدو السَـماءُ فَـوقَ الجِبـاهِ
غَـيرَ أَنّي عَـلى الإِسـاءَةِ وَالتَـف	ريــطِ راجٍ لِحُســنِ عَفــوِ اللهِ[1]

وهو يستشعر عظمة الله ويتحدث عن ذنوب البشـر فمهما كثر ذنب الانسـان فإنه يشغل حيزًا قليلًا فى عفو الله يقول:

1-الديوان صـــ 197.

يا كبير الـذنب عفـو الله ... مــــن ذنبـــك أكــــبر

أكـــبر الأشــياء عـــن ... أصــغر عفــو الله أكــبر

لـــيس للإنســـان إلا ... مــا قضـــي الله وقـــدّر

لـيس للمخلــوق تـدبير ... بــــل الله المــــدبّر[1]

وهو يتوكل على الله ويدعو الى هذا التوكل قائلاً:

كــــن مـــع الله يكـــن لـــك ... واتـــــق الله لعلـــــك

لا تكـــــــن إلا معــــدا ... للمنايـــــا فكأنـــك

إن للمـــــوت لسهمــــا ... دونــــــك أو بـــــك

نحـــن نجـــري في أفـــان ... يـــن ســـكون و تحـــرك

فعلــــــى الله توكـــــل ... وبتقـــــواه تمســـــك[2]

أبوالعلاء المعرى: هو احمد بن عبد الله بن سليمان .. نسب الى بيت عـز ولـد بمعرة النعمان سنة 363 هـ لقب بأبى علاء المعرى .. بالرفعة والعلو .. ولكنـه كـره تلك الكنية وقال:

دعيــت أبــا عــلاء وذاك غــبن ... ولكــن الصــحيح أبــا النــزول

ولقب نفسه بلقب آخر وهو "رهين المحبسين" العمى ولزومـه منزلـه. وقـد أصيب بالجدرى فى بداية حياته فأصيبت عيناه، لكن أباه حاول استبدال نور بصيرته بنور بصره الذى فقده، فأخذه بالقراءة والمعرفة فتعلم على يد علماء معرة النعمان، ثم انتقل أبوه به إلى حلب ليأخذ العلم من أفواه العلـماء الـذين تتلمـذوا عـلى يـد ابـن خالويه، وكان بأنطاكية مكتبة كبيرة تضم مختلف المعارف والفنون فأقام بها ينهل من

1-الديوان صـــــ 196.

2-اليوان صــ 199.

العلوم ثم انتقل إلى طرابلس الشام، ومر باللاذقية وقيل إنه مر براهب .. فى دير فشككه فى دينه ثم عاد الى معرة النعمان، فلم يستطع صبراً على ما فيها من قلة العلماء والمنافسات والخلافات، فذهب إلى بغداد، لكن لم يطب المقام له بها فعاد الى معرة النعمان، وهو ينوى اعتزال الناس والانصراف عن الدنيا، حتى قيل إن دخله كان ستين دينار سنوياً ... يعطي خادمه نصفها ويعيش بالنصف الآخر تهذيباً لنفسه وعاش على الكفاف يقول:

تذكرت انى هالك وابن هالك ... فهان على الأرض الثقلان

وكان يدعو الى التأمل فى الذاهبين للاتعاظ بهم يقول:

أرى الحيرَةَ البَيضاءَ حارتْ قصورُها ... خلاءً، ولم يَثبتْ لكِسرى المَدائن

وهجّنَ، لذّاتِ الملوكِ، زواهُا، ... كما غَدَرَتْ بالمُنذِرَينِ الهَجائن

رَكِبنا على الأعمارِ، والدّهرُ لُجّةٌ، ... فما صَبرَتْ، للموجِ، تلك السّفائن

وخانَتنيَ الدّنيا مراراً، وإنّما ... يُجَهَّزُ بالذّمّ الغَواني الخَوائن

أُعَلِّلُ بالآمالِ قَلباً مُضَلَّلاً، ... كأنّيَ لم أشعُرْ بأنّيَ حائن[1]

ويقول:

يا رب اخرجنى الى دار الرضا ... عملا فهذا عالم منكوس

ويحث على الزهد فى الدنيا لأن مرد الإنسان للقبر والموت ... يقول:

وعالم فيه أضداد مقابلة ... غنى وفقر ومكروب ومقرور

والملك لله والدنيا بها غير ... خير وشر وإعدام وايجاد

وأن أخا دنياك أعمى يرى السها ... م عليل معافى وظالم يتظلم[1]

1اللزوميات جـ 2 صـ 339

نثر الزاهدين:

بات من المعروف أن العصر العباسى كان عصرًا مليئًا بالمتغيرات نتيجة للرخاء الإقتصادى الذى عاش فيه الخلفاء والخاصة من أثر كثرة البلدان المفتوحة، وكثرة الأموال التى كانت تجلب إلى المدينة ومكة والشام.

وقد ترعرعت الشهوات، وزادت المرغبات فى الدنيا فتكالب الناس عليها – خاصة من استطاع الوصول إليها ... وهنا نجد آخرين وقد اتخذوا موقفًا مغايرًا ورغبوا عن الدنيا، منهم من كان صاحب شعر فعبر أجمل التعابير كما سبق ومنهم من كان صاحب نثر .. والنثر واسع المجال غير محدود بحدى الوزن والقافية ، لذا تطور تطورًا ملحوظًا، فقد عمقت معانيه، وجدد أسلوبه، وبرع تصويره، وتشعبت مجالاته، حتى ظهرت فنون عدة مثل المناجاة والحكمة والقصة والرسائل ... وغيرها، وكلها فنون ظهر فيها الزهد جليًا واضحًا ... دال على عقول مؤمنة وقلوب طاهرة أُشربت حب الله والشوق إلى حضرته الإلهية.

أ – **فن القصة**: القصة فن انسانى وجد مع الجيل الأول حينما كانت الأم تهدهد طفلها قاصة عليه القصص، وحينما جاء الإسلام ورد أروع القصص فى القرآن الكريم؛ بل ان القرآن أمر رسول الله بقص القصص "فاقص القصص لعلهم يتذكرون"، وأثنى القرآن نفسه على ما ورد به من قصص للسابقين ونعتها بإنها أحسن القصص: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ [سورة يوسف: الآية 3] وقد أقر الخلفاء الراشدين القصص، وأباح عمر بن الخطاب لتميم الدارى أن يقص على الناس القصص .. وتطور فن القصص حتى إن معاوية ندب رجال من الصالحين لوعظ الناس وتقوية دينهم برواية القصص الدينى، كذلك المعتزلة اشتهروا بالقصص خاصة الحسن البصرى الذى كان يستلهم قصه من القرآن الكريم.

1-اللزوميات جـ 1 صـ 314 ، 244 ، جـ 2 صـ 265 .

ومن أشهر القصاصين:

صالح بن بشير المرى:

المتوفى- سنة 172 او سنة 176 هـ - وهو كما قيل عنه: كان إذا أخذ فى قصصه كأنه رجل مذعور يفزعك أمره من حزنه وكثرة بكائه ، كأنه ثكلى وكان كلامه يقطع القلب ولم ير محزونًا مثله[1] وكثيرا ما كان يتمثل فى قصصه بهذا البيت:

وغائب الموت لا ترجون رجعته إذا ذوو غيبة من سفرة رجعوا

وكان يقول: هذا والله السفر البعيد فتزودوا لمراحله[2] ومما حكى فى مجلسه من المواعظ التى تصف مشاهد يوم القيامة، وأحوال الضالين والظالمين وما يجرى لهم من عذاب أليم قوله : قرأ رجل فى مجلس قوله تعالى: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ [سورة غافر: الآية 18] فقطع عليه صالح القراءة، فقال: وكيف يكون للظالمين حميم أو شفيع والطالب له رب العالمين؟ إنك والله لو رأيت الظالمين وأهل المعاصي يساقون في السلاسل والأغلال إلى الجحيم؛ حفاة عراة مسودة وجوههم، مزرقة عيونهم، ذائبة أجسامهم ، ينادون : يا ويلاه يا ثبوراه! ! ماذا نزل بنا؟ ماذا حل بنا؟ أين يذهب بنا؟ ماذا يراد منا؟ والملائكة تسوقهم بمقامع النيران، فمرة يجرون على وجوههم ويسحبون عليها متكئين، ومرة يقادون إليها عنتا مقرنين، من بين باك دما بعد انقطاع الدموع، ومن بين صارخ طائر القلب مبهوت ، إنك والله لو رأيتهم على ذلك لرأيت منظراً لا يقوم له بصرك، ولا يثبت له قلبك، ولا يستقر لفظاعة هوله على قرار قدمك. ثم نحب وصاح يا سوء منظراه! ويا سوء منقلباه! وبكى وبكى الناس ، فقام شاب به تأنيث، فقال: أكل هذا في القيامة يا أبا بشر؟ قال: نعم، والله يا ابن أخي، وما هو أكبر من ذلك!! لقد بلغني أنهم يصرخون في النار حتى تنقطع

1-صفوة الصفوة جـ 3 صـ 256

2-حلية الاولياء جـ 6 صـ 167

أصواتهم، فلا يبقى منها إلا كهيئة الأنين من المدنف، فصاح الفتى: إنا لله واغفلتاه عن نفسي أيام الحياة ! ويا أسفى على تفريطي في طاعتك يا سيداه ! واأسفاه على تضييع عمري في دار الدنيا! ثم بكى واستقبل القبلة، ثم قال: اللهم إني أستقبلك في يومي هذا بتوبة لك لا يخالطها رياء لغيرك، اللهم فاقبلني على ما كان مني، واعف عما تقدم من عملي، وأقلني عثرتي، وارحمني ومن حضرني، وتفضل علينا بجودك أجمعين يا أرحم الراحمين، لك ألقيت معاقد الآثام من عنقي، وإليك أنبت بجميع جوارحي صادقا بذلك قلبي، فالويل لي إن أنت لم تقبلني، ثم غلب فسقط مغشياً عليه، فحمل من بين القوم صريعًا يبكون عليه.

هذا ومن يقرأ النص مستنبطًا إيحاءاته، ملمًا بتركيبته البنائية، لا يسعه إلا أن يعترف بإنه من فن القصص المتكامل الذى يجمع كل مقوماته الفنية، كما هو معروف فى العصر الحديث ويعترف أيضا بأن الزهاد كانوا أسبق إلى معرفة هذا اللون الأدبى دون غيرهم، فالنص يشتمل على عناصر القصة الأدبية:-

من مقدمة وهى قراءة الرجل آية من القرآن لتكون مدخلاً إلى الحكاية ... وعرضت القصة ما قاله صالح المرى من وصف مشاهد يوم القيامة ، وختمها بما حدث للشاب آخر الأمر ، هذا غير واقعية الأسلوب وعناصره ، والحوار الذى جرى بين صالح والشاب .

ب – **الوصايا:**

الوصايا تصدر من أناس ذوى خبرة وتجارب فى الحياة لمن دونهم ... سواء أكان الموجه لهم خاصة أو عامة ... وهى فن قديم فى الأدب العربى بل وعرفت أيضا فى الأدب الفارسى كوصايا " أردشير بن بابك " إلى ابنه كما أن هناك وصايا الخلفاء والملوك ... والوصايا فى أدب الزهد تدور فى إطار رئيسى وهو الترغيب فى الآخرة لإنها دار قرار حق، والعمل لها بصالح الأعمال، والترهيب من الدنيا لانها

دار زيغ وباطل ويجب الحرص منها ... ومن وصايا ذو النون المصرى- (توفى عام 245 هـ):

يا أخى أعلم انه لا شرف أعلى من الإسلام، ولا كرم أعز من التقى، ولا عقل أحرز من الورع ، ولا شفيع أنجح من التوبة، ولا لباس أجل من العافية، ولا وقاية أمتع من السلامة، ولا كنز أغنى من القنوع، ولا مال أذهب للفاقة من الرضا بالقوت، ومن اقتصر على لغة الكفاف فقد انتظم الراحة، والرغبة مفتاح التعب، ومطية النصب والحرص داع الى التهجم فى الذنوب، والشره جامع لمساوىء العيوب "ورب طمع كاذب وأمل خائب، ورجاء يؤدى إلى الحرمان ، وأرباح تئول إلى الخسران"[1]. ولذى النون أيضاً وصية تدعو الى الصبر والاعتماد على الله والثقة به، فقد قابله رجل وقال له: زودنى بكلمة .. قال:

"لا تؤثرون الشك على اليقين، ولا ترضى من نفسك بغير التذكير، وإن تك نائبة الدهر فتحملها بحسن الصبر، وارك بآمالك نحو الدائم الخبير تجده بآمالك قائمًا، واغتنم مواصلة الله تعالى، فإن لله عباداً ألفوه فاستأنسوا به وعرفوه فآملوه على معرفته، وواصلوه على عين اليقين، فسمت أبصارهم نحو عظيم جليل قدرته، فسقاهم من حلاوة مواصلته، والعقهم من لذاذة مخالصته فلبكائهم حول العرش دوي، ولدعائهم حنين تتقعقع أبواب السماء لسرعة تفتحها لإجابة دعائهم[2].

ج : **الحكمة:**

صوت العقل ولا تؤخذ إلا عن حكيم مجرب؛ وهى فن قديم لها مكانتها فى النفوس، وتأثيرها على العقول، حتى قال يحى بن معاذ الحكمة جند من جنود الله تعالى بها قلوب أوليائه وهى تدل على نقاء القلب وصفاء السريرة، وهى ذات

1-المع صـ 335.
2-اللمع صـ 336.

مقاصد متعددة ... بعيدة المرمى ومن الحكماء المشهورين الشافعى ذو النون المصرى – النجيد ابو سليمان الدارانى.

فمن حكم الدارانى قوله: "الدنيا تطلب الهارب منها فإن أدركته جرحته، وإن أدركها الطالب لها قتلته".

ويقول: "إذا جاع القلب وعطش صفا ورق، وإذا شبع وروى عمي وبار"[1]:

ويقول: "أفضل الأعمال خلاف هوى النفس، لكل شيء صدأ وصدأ نور القلب شبع البطن."

وقوله: "مفتاح الدنيا الشبع، ومفتاح الآخرة الجوع، وأصل كل خير في الدنيا والآخرة الخوف من الله."

وقوله: "ليس العبادة عندنا ان تصف قدميك، وغيرك يفت لك، ولكن ابدأ برغيفيك فاحرزهما ثم تعبد."

ويقول: " لا عقل كمخالفة الهوى ، ولا فقر كفقر القلب ، ولا غنى كغنى النفس، ولا ذل كالطمع ، ولا جهاد كمجاهدة النفس."

ويقول: ما فارق الخوف قلبًا إلا خرب"[2]

وقد أثرعن الفضيل بن عياض القول البليغ والمعنى الدقيق في حكمة بليغة إذ قال. "إذا خالطت فخالط حَسَن الخلق فإنه لا يدعو إلا إلى الخير، وصاحبه منه فى راحة، ولا تخالط سيئ الخلق فإنه لا يدعو إلا إلى شر وصاحبه منه فى عناء."[3]

ويقول: "حزن الدنيا يذهب بهم الآخرة، وفرح الدنيا يذهب بحلاوة العبادة."

ويقول: "المؤمن فى الدنيا مغموم يتزود ليوم معاده ، قليل فرحه."[1]

1-حلية الاولياء جـ 9 صـ 257 – 270.
2-الرسالة القشيرية صـ 16 ، 66.
3-حلية الاولياء جـ 8 صـ 89.

د: المناجاة

وهى ما يتوجه به العبد من كلام للذات العليا إما لأمر أخروى طلباً للرضا والجنة والنجاة من النار أو لأمر دنيوى من مطلب يحتاجه فى معاشه ... وهى تكون غالباً على هيئة الخلوة يكون الزاهد فيها متوجهًا لربه متخلصاً من حديث الناس يقول ذو النون المصرى:

"إلهي...ما أصغيت إلى صوت حيوان.. ولا إلى حفيف شجر.. ولا خرير ماء..ولا ترنم طائر..ولا تنغم طل..ولا دوي ريح..ولا قعقعة رعد ..إلا وجدتها شاهدة بوحدانيتك...دالة على أنه ليس كمثلك شيء...وأنك غالب لا تغلب ، وعالم لا تجهل ، وحليم لا تسفه، وعدل لا تجور، وصادق لا تكذب".

إلهي... عرفني عيوب نفسي وافضحها عندي لأتضرع إليك، وأبتهل إليك بين يديك خاضعًا ذليلًا في أن تغسلني منها، واجعلني من عبادك الذين شهدت أبدانهم وغابت قلوبهم تجول في ملكوتك، وتتفكر في عجائب صنعك، لترجع بفوائد معرفتك وعوائد إحسانك قد ألبستهم خُلع محبتك، و خلعت عنهم لباس التزين لغيرك.

اللهم إني أسألك يا خير السامعين، وبجودك ومجدك يا أكرم الأكرمين، وبكرمك وفضلك يا أسمح السامحين، وبإحسانك ورأفتك يا خير المعطين أسألك سؤال خاضع، خاشع، متذلل، متواضع، ضارع،اشتدت إليك فاقتُه، وأنزل بك على قدر الضرورة حاجته، وعظُمت فيما عندك رغبتُه، وعلم أن لا يكون شيء إلا بمشيئتك، ولا يشفع شافع إليك إلا من بعد إذنك، فكم من قبيح قد سترته، وكم من بلاء قد صرفته، وكم من عثرة قد أقلتها، وكم من زلة قد سَهَلْتَ بها، وكم من مكروه قد رفعته، وكم من ثناء قد نشرتهأسألك يا سامع أصوات المستغيثين، وعالم

1-حلية الاولياء جـ 8 صـ 110.

خفي إضمار الصامتين، ومطلع من الخلوات على أفعال المتحركين، وناظر إلى مـا دق وجل مـن آثـار السـاعين .أسـألك أن لا تحجـب بسـوء فعـلي عنـك صـوتي، ولا تفضحني بخفي ما اطلعت عليه من سري، ولا تعاجلني العقوبة على ما علمتَه مـن خلواتي، وكن بي في كل الأحوال رافقاً، وعليّ في كل الأحوال عاطفاً.

4 – **فن الرسائل:**

قد لا يسـتطيع الزاهـد بـث دعـواه بشـكل مبـاشر لمـن يريـد لبعـد المسـافة أو اختلاف المكانة فيلجأ إلى الرسالة .. وهى فن قـديم وللعـرب مراسـلاتهم التـى كانت ذات شأن ولها تأثير عظيم ..

وارسل الجنيد رسالة الى بعض اخوانه قـائلاً: اكرمـك الله بطاعتـه وخصـك بولايته وجلك بستره ووفقك لسنة نبيـه ﷺ واطلعـك عـلى فهـم كتابـه، وانطقـك بالحكمة، وآنسك بالقرب وخصك بالفوائـد، ومنحـك الزيـادات، والزمـك بابـه، وكلفك خدمته، حتى تكون له مرافقا ولكأس محبته ذائقا ، فيتصل العيش بـالعيش، والحياة بالحياة، والروح بالروح، فتتم النعمـة، وتسـلم مـن المعتبـة فتصـح العافيـة وتكمل السلامة.

والزهـاد يجـأون الى الرسـائل ليـتعظ بهـا مـن كـان فى قلبـه موضـع لنصـح أو ينشد منه الهداية والالتزام .

الشعوبيـة

أسباب – مظاهر – وآثار

انتشر الاسلام فى الجزيـرة العربيـة ودخـل فيـه أفـواج تلـو أفـواج .. مـنهم من كان كافرا فهداه الله، ومنهم من كان يشرك بالله غيره ثـم دان الجمـع للإسـلام، وحينما توسعت الفتوحات وغزا الاسلام البلدان المختلفة، كانت بعضها أصـحاب حضارة وفكر ومعارف، وحينما طبق الخلفـاء علـيهم العـدل الـذى جـاء الإسـلام لإقراره دخلوا فى دين الله أفواجا وكانت الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ [سـورة الحُجُرات: الآيـة 13] فقد ذهب جمع المفسـرين إلى أن الشعوب هى العجم والقبائل هـم العرب ، وقد دعم الآية وسار على هديها رسـوله الكـريم مـن نبـذ التفرقـة وإقـرار المساواة وأقر عليها قائلاً: " يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِـدٌ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، إِلَّا بِالتَّقْوَى،" وظل هذا حـال الخلفاء من إقرار المساواة وإعلاء راية العدل، فلا فضـل لأحـد إلا بعملـه، ولم يقـر العروبة أو العجمى ميزة فى نفسها تعلى من شأن صـاحبها، فالنـاس مـن تـراب الى التراب حتى أتت موقعة صفين واشتعلت بها جذوة العصبية وظلت فى ازدياد هـدأ قليلاً فى عهد عمر بن عبدالعزيز ثم اشتد أوارها فى عهد بنى أمية حيث انحرفوا عن سنة الإسلام فأرهقوا الموالى بالمطالب والضـرائب، واغفلوا المسـاواة يعلـون شـأن العرب ويدنون شأن الموالى حتى احتنقت نفوس الموالى وانضموا إلى ثورة العباسيين ، وأيدوا سرًا كل ما يقوض دولة الأمويين، حتى اذا انتصـر العباسيون كافئوا الموالى وقربوهم وأغدقوا عليهم الأموال وقلدوهم المناصب، وقـام المـوالى عليهـا يقـرون مكانتهم ويحاربون العرب.

ونجد أن الموالى اتخذوا سبيلًا مـن ثـلاث:- مـنهم مـن طالـب المسـاواة مـع العرب ، ومنهم من طالب التفوق على العرب باعتبار أنهم أصحاب حضارة ورقى، ففى الوقت الذى كان الفارسى فيه يستظل بحضارته، وينعم فيقصوره كان العربـى يشارك حصانه النوم فى العراء وشرب الماء الآسن.

لكن الموالى – خاصة الفرس – الذين تقلدوا المهـام الرفيعـة فى الدولـة بـاتوا يكيدون للعرب ينتقصون من قدرهم ويقدمون الشعوب الأجنبية عليهم، يريـدون ان يستأثروا بالحكم، وأن يعيـدوا مجـدهم التليـد، ويسـتردوا لحضـارتهم الصـدارة ينكرون كل شيء ويفسـرون كل جميل بقبيح، عابوا عدم وجود حضارات للعـرب فحياتهم سهلة بسيطة وليسوا أصحاب حضارات مثل الفرس، الكلـدان، اليونـان، الرومان، عابوا كثرة الأهـاجى والحـروب الطـوال بـين القبائـل العربيـة، والنـزق والبطش الذى يدفع فيه الأفراد حياتهم وسني عمرهم، عابوا هيئة العربى فى كلامه وخطبه متكئًا على العصا أو القوس وعابوا الخصال الحسان التى تمـدح بهـا العـرب وقلبوا المحاسن مساوىء، فعدوا النجدة والكرم نزق وحمق بل ادعو أن رسـول الله فضلهم على العرب، وقال: "لأنا بهم أوثق منى بكم وهـو حـديث موضـوع"، ولا شك أن تولى مقاليد الحكم رجال الفرس البـارزين مثـل البرامكـة وآل سـهل، وآل طاهر وغيرهم، قد ساعد على إذكاء نار الشعوبية وإثارة المشاكل والفـتن والقلاقـل للعرب حتى ألف بعضهم كتبا للقدح فى العرب.

كما لعب الشعر دوراً هاماً فى إشاعة الشـعوبية حتـى قـال بشـار الـذى كـان يفاخر بمواليه من قيس.

أصحبت مولى لذى الجـلال وبعضـهم مـولى العريـب فخـذ بفضـلك فـافخر

أى أن ولاءه أصبح لذى الجلال لا غير أما غيره من العرب فلا مجال للفخر بهم وهذا تهكم صريح على العرب، وقد أدعى أن أمه تنسب الى قياصرة الروم يقول:

هـــل مـــن رســـول مخـــبر عنـــــى جميـــع العـــــرب

ثم مضى يكيل الاتهامات والسباب للعرب ، ومع ذلك سيطرت الروح العربية وظلت شامخة يساندها الفقهاء والمحدثون ورواة الشعر وحينما افتخر عبد الله بن طاهر بنسبه إلى الفرس رد عليه أبو الأصبع الأموال ونقض قصيدته قائلاً:

لا يرعـــك القـــال والقيـــل كـــل مـــا بلغـــت تضـــليل

موقف الخلفاء من الشعوبية:

لم يفطن الولاة العباسيون الى دعوى الشعوبية فى بادىء الأمر نظرًا لعدم وجود زعيم معلن لها، أو مكانا تمركز فيه الداعون إليها، أو لم يجدوا لها خطراً على مكانتهم ، أو وضعهم السياسي، إضافة إلى أن المتشيعين بشكل عام لم يشهروا إسلاما أو يجاهدوا جهاداً ما بالخروج عن الحاكم وعصيانه ... وبشكل خاص هم فئات منهم من قالوا بالمساواة مع العرب دون تفضيل .

إضافة لسبب آخر يتعلق بالولاة انفسهم فمنهم مولودون فأمهاتهم غير عربياً تلذا لم يتعصبوا كثيراً للعربية أو يكترثوا بما يروج الشعوبيون ضد العرب، وبما يرد به العرب على الشعوبيين فلم تشغلهم ذلك السجال بينهم.

ولا شك ان تقلد الكثير من الفرس للمناصب الرفيعة أتاح لكل غامز أن يقول ما يريد وهو فى مأمن، وكيف لا وقد أعد سهل بن هارون للحسن بن سهل رسالته فى البخل غامزًا ما اشتهر من الحجة على ضرورة اتخاذه منهجًا ومنحى إن رد عليه الحسن على ظهر الرسالة قائلاً:

"وصلت رسالتك ووقفنا على نصيحتك، وقد جعلنا المكافأة عنها القبول منك والتصديق لك والسلام." فلم يجيزه عطاء، أو يمنحه أجرًا على ما انفق فيها من وقت وجهد لإقامة الحجة.

لكن حينما يستشعر الخلفاء خطر الشعوبية على الاسلام يجندوا انفسهم لاستئصال شأفته. فقد قيل : إن عبدالكريم بن ابى العوجاء المحدث بالكوفة كان من المشكوك فى أمره، فاستدعاه أميرها محمد بن سليمان وأمر بقتله وكان ذلك فى سنة 153 هـ فلما أيقن إنه مقتول قال: "والله لقد وضعت أربعة الآف حديث حللت بها الحرام وحرمت بها الحلال والله لقد فطرتكم يوم صومكم وصمتم يوم فطركم."

وكان الشعوبيون يتكاتفون للوقوف الى جوار من ينتقص من النعرة العربية ويهاجمون من يروا فيه ميلاً إلى تأييدها كما فعلوا مع الأصمعى وهو من هو فى الانتصار للعرب، والفكرة العربية حينما فضلوا عليه أبا عبيده وظلوا يذكروه بخير عند هارون الرشيد حتى استبعد الأصمعى وأنفذ الرشيد إليه من أقدم به.

والشعوبية: نسبة الى الشعوب التى دخلت الإسلام من غير العرب ... وقد ذهب الجاحظ الى أنها نحلة ... فقد التحمت بذواتهم حتى صارت معتقدا دينيا يقول " اعلم انك لم تر قط قوما أشقى من هؤلاء الشعوبيين ولا أعدى على دينه، ولا أشد استهلاكًا لعرضه، ولا أطول نصبًا، ولا أقل غنمًا، من أهل هذه النحلة[1].

قال أحمد امين معرفا الشعوبية: "إنها نزعة أكثر منها عقيدة فهى أشبه بالارستقراطية والديمقراطية، بل هى فى الحقيقة نوع من الديمقراطية يحارب ارستقراطية العرب".

1-البيان والتبيين جـ 3 صـ12

والمعروف أن العرب كانوا يتعالون على الأجناس الأخرى لا سيما فى العصر الأموى حيث وقع كثير من الغبن على الموالى، فلم يك أحدهم يجرؤعلى أن يزوج ابنته من أعجمى، ولا أن يتزوج من أعجمية وعد ذلك عار الدهر ... ونقيصة العمر.

كذا افتقد الموالى والعجم مبدأ التسوية الاسلامية فشنوا هجوماً على العرب وهذا الهجوم ... إما اتخذ شكل المطالبة بالتسوية مساواة غير العرب بالعرب، أو دعوى التفضيل وأن العجم يفضلون العرب ويتفوقون عليهم.

وقد قال الجاحظ موضحًا تلك الفكرة: ونبدأ على اسم الله بذكر مذهب الشعوبية، ومن يتحلى باسم التسوية فهو تارة يؤيد دعوة المساواة وأخرى ينص على التفضل ، قالت الشعوبية ومن يتعصب للعجمى والنزاعات الثلاثة التى سادت أواخر العصر الأموى، ثم العصر العباسى تعكس الذهنية العربية التى تميل إلى أخذ الموقف المتناسب مع الأوضاع.

ففى العصرـ الأموى كان تحقير الأجناس غير العربية وسوء المعاملة هو السائد ثم ظهرت محاولة تنشد المساواة بين العرب وغيرهم، ثم تطور الأمر وزاد عن طلب المساواة إلى الحط من شأن العرب وادعاء التفضيل عليهم .

وربما شجع على ذلك وضع العجم الجديد فى البيئة العباسية فمساندتهم للحكام والولاة اكسبهم أهمية جديدة، ومكانة عالية.

ويلاحظ أن متزعمين دعوى تفضيل العرب استند الى مقومات سياسية، فنية، اجتماعية، دينية توفرت لدى العرب ... وهذه المقومات هى التى جعلت غير العرب يتبارى لتفنيدها.

ولعل أبرز هذه المقومات:

1 – الناحية السياسية : فالعرب عاشوا متمتعين بالحرية دون الخضوع لأمة أخرى أو الأنضواء تحت لواءها

2 – الناحية الفنية : فتراثهم التعبيرى الراقى حيث يثبت ارتقاء لغتهم وبروز فصاحتهم ، وسموقها وعلوها.

3 – الناحية الاجتماعية : امتلك العرب خصال مميزة حيث الشجاعة ، والكرم ،و نجدة الجار ، وإغاثة الملهوف ، واعتدادهم بأحسابهم ، وحفظهم لأنسابهم .

4 – الناحية الدينية : ظهر الاسلام فيهم ، رسول الله ﷺوقد حملوا عبء الدعوة وتكبدوا نشرها شرقا وغربا .

إن تلك النواحى التى بز فيها العرب الأمم غيرهم حرية أن تمنحهم التميز والتفرد وكان من الطبيعى ان تكون أحد ثلاثة أما المطالبة بالتسوية .... ارتكازا للرؤية الإسلامية الداعمة للمساواة بين المسلمين "إنما المؤمنون أخوة فأصلحوا بين اخويكم."

وقوله ﷺ " المسلمون أخوة تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم والتأكيد على معنى المساواة فى خطبة الوداع."

أما متزعمي التميز على العرب فقد صوبوا وجوهم تلقاء مزايا العرب، وعملوا على نقضها والنيل منها وهدمها .

فالناحية الإجتماعية للعرب كانت مهترءة يعيشون بدوا رحل متنقلين وراء الكلأ والمرعى، أما حديثهم عن حيازة العرب لجليل الصفات الكرم، الشجاعة، والنجدة، فمن باب مبالغة الشعراءفقد كانت الحروب تسودهم لأتفه الأسباب فيسبون النساء ويعاشروهن ربما بلا زواج مما يوجد تخالط الأنساب والأحساب التى يعتزون بها ، بينما كانت أمم أخرى يقطنون فى المدن ويقيمون حضارات ولهم

دولتهم بكل مقومات الدولة ، من الوجود فى إقليم له حدود، به شعب ، وله حاكم عظيم ، أما الناحية الدينية من الفخر بالإسلام فالإسلام ليس دين العرب فقط بل هو دين الناس عامة، والعرب هم أول من وقفوا فى وجهه وحاربوه، ورفضوه، لأنه يقوض نزعتهم العصبية، ويتبنى النظرة الواعية للتساوى والنبوة أتت الأنبياء غير العرب والأنبياء العرب قليلون محمد، اسماعيل، هود، صالح.

أما الناحية الفنية: التى يفاخر العرب بها وأنهم يمتلكون زمام الفصاحة ولب البلاغة فقد شاركهم فى ذلك كثير من الأمم مثل: اليونان ، والرومان، والفرس ، فهم ليسوا منفردين بتلك الخاصية، فالموهبة قاسم مشترك قاسموهم فيها من الأمم الكثيرون." وكان لدى اليونان والرومان والفرس خطباء مصاقع ملكوا أزمة القول مع فضل عقل وسحر بيان " وقد علمنا أن أخطب الناس ، وأخطب الفرس أهل فارس ، وأعذبهم كلاماً، وأسهلهم مخرجًا، وأحسهم دلا، وأشدهم تحكما ، أهل مرو وقالوا كذلك: ومن أحب أن يبلغ فى صناعة البلاغة، ويعرف الغريب ، ويتبحر فى اللغة فليقرأ كتاب كاروند ، ومن أحتاج الى العقل والأدب ، والعلم بالمراتب والعبر والمثلات ، والألفاظ الكريمة ، والمعانى الشريفة فلينظر فى سير الملوك ، فهذه الفرس: ورسائلها وخطبها وألفاظها ومعانيها وهذه اليونان: ورسائلها وألفاظها وخطبها وعللها وحكمها وهذه كتبها فى المنطق التى قد جعلت الحكماء بها تعرف السقم من الصحة ، والخطأ من الصواب ، وهذه كتب الهند فى حكمها واسرارها ، وسيرها وعللها ، فمن قرأ هذه الكتب ، وعرف غور تلك العقول ، وغرائب تلك الحكم ، عرف أين البيا ن والبلاغة ، واين تكاملت تلك الصناعة

وقد أشار الجاحظ الى أن الخطابة سمة شائعة فى كثير من الأمم حتى عند الزنك الذى أوتوا من الفهم أقله .

وينص الجاحظ على أن للعرب فرادة ، فهم وإن كانوا مشاركين من بعض الأمم فى الخاصية الفنية إلا أن لهم فرادة فى التناول يقول : " وجملة القول إنا لا نعرف الخطب إلا للعرب والفرس ، فأما الهند فإنما لهم معان مدونة ، وكتب مجلدة، لا تضاف إلى رجل معروف، ولا الى عالم موصوف، وإنما هى متوارثة، وآداب على وجه الدهر سائرة مذكورة. ولليونيين فلسفة وصناعة منطق، وكان صاحب المنطق نفسه بكى اللسان غير موصوف بالبيان ، مع علمه بتمييز الكلام وتفصيله ومعانيه وبخصائصه ، وهم يزعمون أن جالينوس كان أنطق الناس، ولم يذكروه بالخطابة ولا بهذا الجنس من البلاغة ، وفى الفرس خطباء، إلا أن كل كلام للفرس، وكل معنى للعجم ، فإنما هو عن طول فكرة، وعن اجتهاد رأى وطول خلوة، وعن مشاورة ومعاونة ، وعن طول التفكير ودراسة الكتب، وحكاية الثانى علم الأول، وزيادة الثالث فى علم الثانى، حتى اجتمعت ثمارتلك الفكر عند آخرهم، وكل شىء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال ، وكأنه إلهام، وليست هناك معاناة ولا مكابدة ، ولا إجالة فكر، ولا استعانة ، وإنما هو أن يصرف همه إلى الكلام، أو إلى رجز يوم الخصام، أو حين يمتح على رأس بئر، أو يحدو ببعير، أو عند المقارعة أو المناقلة، أو عند صراع أو فى حرب، فما هو إلا أن يصرف همه إلى جملة المذهب، وإلى العمود الذى إليه يقصد، فتأتيه المعانى إرسالا وتنثال عليه الألفاظ إنثيالا ثم لا يقيده على نفسه، ولا يدرسه أحداً من ولده وكانوا أميين لا يكتبون، ومطبوعين لا يتكلفون، وكان الكلام الجيد عندهم ظهر وأكثر ، وهم عليه أقدر، وله أقهر، وكل واحد فى نفسه أنطق، ومكانة من البيان أرفع ، وخطباؤهم للكلام أوجد ، والكلام عليهم أسهل، وهو عليهم أيسر من أن يفتقروا الى تحفظ ، ويحتاجوا إلى تدارس، وليس هم كمن حفظ علم غيره، واحتذى على الكلام من كان قبله، فلم يحفظوا إلا ما علق بقلوبهم، والتحم بصدورهم، واتصل بعقولهم، من غير تكلف ولا قصد، ولا تحفظ ولا طلب، وإن شيئاً هذا الذى فى أيدينا جزء منه، بالمقدار الذى لا يعلمه

إلا من أحاط بقطر السحاب وعدد التراب، وهو الله الذى يحيط بما كان، والعالم بـما سيكون.

ونحن – أبقاك الله – إذا دعينا للعرب أصناف البلاغة من القصيد والأرجاز، ومن المنثور والأسجاع، ومن المزدوج وما لا يزدوج ، فمعنـى العلـم أن ذلـك لهـم شاهد صادق من الديباجة الكريمة، والرونق العجيب، والسبك والنحت ، الذى لا يستطيع أشعر الناس اليوم، ولا أرفعهم فى البيان، أن يقول مثل ذلك إلا فى اليسـير، والنبذ القليل .

وقد شكك الجاحظ فى الرسائل المنسوبة إلى بعضـهم مـن نحـو ابـن المقفـع، سهل بن هارون، ابن عبيد الله يقول: إنك متى أخذت بيد الشعوبى فأدخلتـه بـلاد الأعراب الخلص، معدن الفصاحة التامة، ووقفتـه عـلى شـاعر مفلـق، أو خطيـب مصقع، علم أن الذى قلت هو الحـق، وأبصرـ الشـاهد عيانًـا فهـذا فـرق ما بيننـا وبينهم، وقد حرصنا على إيراد هذا الدفاع من ناحيتين: أولاهما: إن جانب الإبداع الأدبى لدى العرب هو الجانب الـذى لم تجـد الشـعوبية مناصـا مـن التعـرف عليـه والتمرس به فى سبيل ان ينشأوا أدبا فى اللغة العربيـة التـى كانـت قـد صـارت لغـة الشعوب التى دخلت فى الإسـلام، وكـان الصـعود الى المناصـب العليـا فى الدولـة يتطلب منهم حذق هذه اللغة وآدابها، ولذلك لا نعجب عنـدما نعـرف أن كثـيرين من علماء اللغة منذ سيبويه كانوا من أصول غير عربيـة ، وكـذلك الحـال فى كتـاب الدولة ووزرائها ووسـيلتهم فى التعبـير ، والغريـب – بـل الطبيعـى – أنهـم كـانوا حراصا على التجويد فى هذا المجال ، حتى يتفوقوا فيه على العرب أنفسهم .

لكن ذلك لا ينفى ان الفرس حاولوا التقدم على العرب باتقانهم لمـا نبـغ فيـه العرب ... لذا نجد سيبويه قد اتقن اللغة وتفوق فيها .وأبدع أبـو نـواس في قـرض الشعر، ولمَّ أبو عبيدة قواعد النحو والتصريف

وقد تزعم الشعوبية من أبناء الأمم الأخـرى – الفـرس– النـبط – القـبط – وكثير ممن دخل الإسلام فى الأندلس من كان صاحب ثقافة وحيثية إجتماعية ، ومن كان صاحب مهنة على السواء.

فعلى المستوى الثقافى كان الشعراء يهاجمون العرب والأدبـاء يصـنفون كتـبهم من مدح العجم ،وقدح العرب ، وسلبهم كل مزية، ووسمهم بكل نقيصة . ونجـد ان الشعوبية اخذت أحد شكلين :

إما بيان فضائل العجم كما فعل سعيد بن حميد بن التختكان فى مؤلفه " فضل العجم على العرب وافتخارها" .الذى وصفه ابن النديم بإنه شاعر مترسـل عـذب الألفاظ فهو متكلم فصيح وله مؤلف آخر بعنوان " انتصاف العجم من العـرب " كذلك ابو عبيدة معمر بن المثنى التيمى، يقول بن النديم من الفهرست، وقـد كـان من آثار الشعوبية أنهم لونوا ما رووا من تاريخ الفرس لونا زاهيًا جميلًا، ونسـبوا إلى ملوكهم الحكم الرائعـة والسياسـة الحكيمـة ، كسـوة أبهـة وعظمـة بـالغوا فـيهما ، وزعموا أن الفرس من ولد اسحاق بن ابراهيم ، والعـرب مـن ولـد اسـماعيل بـن ابراهيم ، واسحاق بن سارة الحرة ، وإسماعيل بن هـاجر الأمـة ، فهـم أفضـل مـن العرب لأنهم بنوا الأحرار، وأما العرب فبنو اللخنـاء وهـى دعـوى غـير صـحيحة علميًا وإنما وضعت ليرفع الفرس من شأنهم ، وليفخروا بها على العرب ، كما زعموا ن سابور سمى ذا الأكتاف لانه أوقع بالعرب فى العراق وخلع اكتافهم[1].

أو الحط من شأن العرب وقد فعل ذلك الهيثم بن عدى حيـث صـنف عـدة مصنفات للقـدح فى العربـوالطعن فى أنسـابهم " مثالـب ربيعـة " ، كتـاب المثالـب الصغير، وكتاب المثالب الكبيرة ، وإلى كتاب من تزوج من المـوالى فى العـرب " ثـم ألف أبو عبيدة كتاب مثالب باهله " كتاب لصوص العرب " " كتاب أدعياء العرب " ثم توالت مؤلفات هشام بن محمد بن السائب الكلبى .

1الفهرست بن النديم صـ 151 ، 152

سهل بن هارون بن راموں الدستسيانى ،وعلان الشعوبى الـذى ألـف كتابـه "الميدان فى المثالب" حيث أظهر مثالب العرب وتعرض لخمسين قبيلة فى مقـدمتها قبيلة قريش ، بل إن المزارعين والفلاحين كانوا يروا فى أنفسهم فخـرا عـلى العـرب لأن مهنة العرب رعى الشاه والإبل فتستلزمها التنقل والارتحال ونية السفر معقودة دائمًا ، اما الزراعة فهى تقتضى المكث والاستقرار مما يسمح بنشـوء حضـارة .يقـول أحدهم مهاجما العرب " ولكنكم كنتم رعاة بـين الأبـل والغـنم، فحملـتم القنـا فى الحضر بفضل عادتكم لحملها فى السفر، وحملتموها فى المدر بفضل عـادتكم لحملها فى الوبر ، وحملتوها فى السلم بفضـل عـادتكم لحملهـا فى الحـرب، ولطـول اعتيادكم لمخاطبة الإبل ، جفا كلامكم، وغلظت مخارج أصواتكم، حتـى إنكـم اذا كلمتم الجلساء إنما تخاطبون الصمان " وكثير من الأدباء المثقفين كانوا يضعون السـم فى العسل فلا يتعرضون لمهاجمة العرب خوفًا من سخط الحكم عليهم ، بل عمـدوا الى تصنيف المؤلفات قدحا فى العرب، لكن طبقة السـوقة والغوغـاء لم يتجملـوا أو يتخفوا من عدائهم للعرب -كما يقول بن قتيبة- ولكنـه يعـود فيـذكر مـنهم قومـا تحلوا بحلية الأدب ، فجالسوا الأشراف ،" وقوما اتسموا بمبسـم الكتابـة ، فقربـوا من السلطان ، فدخلتهم الأنفة لآدابهم ، والغضاضة لأقدارهم ، من لؤم مغارسـهم ، وخبث عناصرهم ، فمنهم من الحق نفسه بأشرافه العجم ، واعتـزى إلى ملـوكهم وأساورتهم ، ودخل فى باب فسيح لا حجاب عليه ، ونسب واسع لا مدافع عنـه ، ومنهم من أقام على خساسته " ينافح عن لؤمـه ، ويـدعى الشرـف للعجـم كلهـا ، ليكون من ذوى الشرف ، ويظهر بغض العـرب باتنقاصـها ، ويسـتفرغ مجهـوده فى مشاتمها ، واظهار مثالبها ، وتحريف الكلم فى مناقبهـا " وبلسـانها نطـق ، وبهممهـا أنف ، وأدابها تسلح عليها ، فإن هو عرف خيرا ستره ، وان ظهر حقره ، وان احتمل التأويلات صرفه الى أقبحها ، وان سمع سوءًا نشره ، والحق أن الهجوم على العـرب كان يبين الإفتراء بعيدا عـن الموضـوعية، حيـث يقـع أحـدهم عـلى حادثـة فرديـة

فيتخذها سببا لتعميم الحكم على القبيلة ثم عـلى العـرب كافـة .ضـافة إلى تضـخيم مزايا العجم، وتقلـيلهم مزايـا العـرب، ولم يكتـف الشـعوبيون بتـأليف المؤلفـات القادحة فى العرب بل عمدوا إلى زعزعة الثوابت والذهاب فى الثقافة بكـل مـذهب سيئ . ،فقد عمدوا الى نسبة الشعر لغير قائليه ، وانتحال أكثره ، واخـتلاق قصصـا غريبة اتخذوها كتفسير للأمثال، ولم يك القرآن والحديث بمنأى عن تدخلهم السيئ ، فقد كانوا يفسرون القرآن تفسيرات غريبة، وعمدوا الى وضع أحاديثترفع قدرهم وتدخل على الناس الريبة فى دينهم ، وقد ظهرت مواقف مضادة للعرب من هـؤلاء كل فى تخصصه فأصحاب الحديث عمدوا الى توثيقه واستبانة دخيلـة مـن أصـيله ، وأصحاب الأدب عمدوا إلى مراجعة الكتب وتنقيتها كذلك فعل علماءالتفسير .

لكن الشعوبيون أيضاً عمـدوا الى ترجمـة كتـب عقائـدهم القديمـة كالمانويـة والمزدكية باغين دس هذه المعتقدات عـلى الفكـر العـربي وإيجـاد حالـة مـن اللـبس والإلتباس والإلتواء.

العصر العباسى الثانى

أولاً: الحياة السياسية

بات من المعلوم أن الأوضاع لم تستقر فى البلاد منذ استولى العباسيون على الحكم بعد نزعه قهرًا من أيد الأمويين ، ولإنهم قد استعانوا بالعلويين والفرس وغيرهما فقد شاب حكمهم فى آخره الكثير من القلاقل والثورات

غلب البيت العباسي البيت المروانى لأسباب متنوعة ، وتدور كلها فى فلك ضعف الولاة ، ظلمهم الرعية ، الإنكباب على الملذات يعب منها عبًا .... فشاع الظلم ، ويئست الرعية من الإنصاف والعدل إضافة إلى عوامل متجذرة في البيئة العربية كالصراع القبلي بين اليمنية والنزارية .... الذى اشتد وقوى حتى أنهك الدولة، ففقدت سيطرتها على المناطق الشرقية منها العراق وما وا لاها

إضافة إلى الجور فى توزيع الموارد والامتيازات والذى استتبع انشطار المجتمع إلى طبقتين عمق التفاوت بينهما : طبقة العرب وأهالى البلدان المفتوحة التى نظر إليهم على إنهم مصادر للجباية وأدوات مسخرة لجمع الخراج والضرائب الفادحة

كما أن هناك شخصيات وأحداث ساهمت بشكل كبير فى إنهاك الدولة الاموية واضعافها على مراحل زمنية وفى استتار وبلا مواجهة

فالشيعة : كانوا ينظرون للأمويين على إنهم مغتصبين للحكم ، سارقين للولاية والمقصود بالشيعة هم الجمع الغفير منهم لا الزعماء والقواد ، فلم يرض الشيعة عن تصرفات زعمائهم وقوادهم ، فبعد حادثة كربلاء واستشهاد الحسين ، تنازل الحسن لمعاوية عن الخلافة حقنا لدماء المسلمين شريطة أن يكون هذا لمعاوية وحده ، والأمر من بعده شورى بين المسلمين ، لكن طمع معاوية فى التوريث،

وأخذ البيعة لابنه أضرمت النار فى البلدان الإسلامية ما بين مؤيد ومعارض، ممتنع وقابل، ومرة أخرى حقنا لدماء المسلمين بايع زين العابدين زيدا بن معاوية ثم استفحلت مناوئة الأمويين من الشيعة مما دفع هؤلاء للاستتار .ثم قفز البيت المروانى على الحكم فبايع محمد بن على عبدالملك بن مروان فانتقلت الولاية من البيت السفيانى الى البيت المروانى، لكن عامة الشيعة ومجموعهم قد ارتأوا أن أولئك المتنازلين عن الخلافة ضعفاء مغلوبين على أمرهم، وحينما مات محمد بن على أنكر غلاة الشيعة موته وقالوا إنه تغيب وسوف يعود .. يقول السيد الحميرى:

ألا إن الأئمة من قريش — ولاة الحق أربعة سواء

علي والثلاثة من بنيه — هما الأسباط ليس بهم خفاء

فسبط سبط إيمان وبر — وسبط غيبته كربلاء

وسبط لا يذوق الموت حتى — يقود الخيل يقدمها اللواء

الامام المخلص: فكرة الإمام المستتر وعودته ، قائدًا للخيل يقر العدل ويمنع الظلم ، ويمكن الحق ، فكرة اعتنقت ، ونوئت فى العصر الأموى فمعتنقيها ليسوا العلويين فقط بل كل المظلومين الناشدين الخلاص من الغبن والظلم ... ينتظرون الشخصية القوية المخلصة إياهم مما يجدوا .

اما المناوئون : فقد شكل الأمويون أول مناوئين للشيعة الممثلين للمعارضة السياسية آنذاك ... والذين امتلكوا العقول والألسن والحجج والشخصيات ذات المكانة ، مما جعلتهم مستعدين دائما للأمويين ، قادرين أبدًا على لمّ الجمع حولهم واستنهاض هممهم ... فكان لهم شعراؤهم وخطباؤهم ، واستطاع الأمويون أن يصمدوا لهم ويكمموا الأفواه ، ويلجئونهم للتقية هم وغيرهم من المعارضين كالخوارج ... لكن العباسيون هم من استطاعوا القضاء عليهم قضاءً مبرما .فبموت محمد بن الحنفية انشقت الشيعة الى :

الكيسانية: وهم من اعترفوا بوفاة محمد بن الحنفية فعهـدوا بالولايـة الى ابنـه هاشم [1]

الإمامية: رأت جماعة من المتشيعين حصر الإمامة فى أولاد عـلى مـن السـيدة فاطمة الزهراء رضي الله عنها فهى فى نسل زين العابدين الذى له يزيد ،محمد الباقر ، فولى البعض يزيد ؛فسموا بالشـيعة الزيديـة .. وقـد خـرج زيـد بـن عـلى .. عـلى حكـم الأمويين مطالبًا إياهم بالخلافة .. لكنهم استطاعوا الفتك بـه ثـم صـلبه 123 هــ وبعدها بسنوات حاول ابنـه يحـى أن يفعـل مثلـه فلقـى مصـير أبيـه .العبـاس بـن عبدالمطلب : على الرغم أن هناك من أسلم مع رسـول الله ﷺ وهنـاك مـن هـاجر، لكن عمه العباس لم يسلم إبتداءً ولم يهاجر، لكـن كانـت لـه مواقـف مشـهودة مـع رسول الله ومؤثرة فى الدعوة الإسلامية ؛ ففى بيعة العقبة خرج مـع رسـول الله ﷺ ليلا وقابل المبايعين ليطمئن على ابن اخيه وأخبرهم أن ابن أخاه فى منعـة مـن قومـه وحصن حصين فإن كان المبايعون سيحمونه سيخرج معهم ، وإلا فليخلوا عنه فهو فى قومه آمن ، فأقر المبايعون على حماية رسول الله ﷺ مما يحمون منه أنفسهم وعيالهم ، وفى غزوة أحد وقع العباس فى الأسر فطالبه رسول الله ﷺبالفداء.

ثم توفى فى أواخر خلافة عثمان بن عفان واشتغل ابنـه عبـد الله بالفقـه حتـى صار حجة فى التفسير والسنة دون التطلع الى الولاية والخلافة ، لكن ابنه على تطلـع إلى الخلافة وكان يـتكلم فيهـا كثـيرًا وكيـف سـتكون لابنائـه حتـى إن الوليـد بـن عبدالملك ضربه بالسوط وأُخرج .

المتوكل والطالبيون كان تولي المتوكل بداية لانتهـاء امتيـاز عصرـ الفـرس ، واعتلاء الأتراك المنبر، إذ استبدل العنصر التركـى بالعنصرـ الفارسـى فى مسـاعدة

1لم يخلصوا الزيدية فى معتقدهم فقد خلصوا آثارا للمزديكة وقالوا بالحلول ... وقامت ثورة المختار بن عبيد اللهالثقفى باسمها وضربت فيها العرب بالموالى ... وكانت ثورة حادة عميقة لكن الأمويون استطاعوا اخمادها .

الحكام ... وعلى قدر الآمال المعقودة بالعنصر الفارسى فى إقامة الخلافة العلوية وتمكين الطالبيين على قدر الإحباط الذى منى به الطالبيون بعد تمكن الأتراك فقد كانوا هم وخليفتهم المتوكل – سنيون – يكرهون الشيعة وظلوا مسيطرين على الخلافة منذ 232 هـ إلى تسلم الديلم السلطة 334هـ

وقد ساعد المتوكل على ظهور المذهب الشافعى – وهو مذهب سنى – وتولى يحى بن أكثم الشافعى قاضى القضاة فهدم قبر الحسين فى كربلاء، ورفض زيارة الناس له ، وتزامن مع خروج الزيدى يحى بن عمر فى الكوفة 248 – 252هـ خروج الحسن بن زيد من أبناء الحسن بن على – وقاد ثورة فى طبرستان ضد محمد بن عبد الله بن طاهر، واستقرت له الأحوال فى طبرستان بعد استيلائه على مدن أمل عاصمتها ، ثم سارية ، ثم الرى وأقر الدولة الزيدية ... وتناوب على حكمها الحسن بن زيد – محمد بن زيد القائم بالحق ، الحسن الأطروش ثم الحسن بن العباس بن على بن عبدالرحمن ومعه دولة الأطروش وكانوا فى نزاع على الحكم واستمرت منذ 279هـ – 301هـ حتى 355 هـ

ثم نشطت الدعوى الشيعية فى عهد البويهيين 320هـ – 447هـ وخفتت أصوات الأتراك – فقد كانوا أقوياء مستبدين بالسلطة لكن سرعان ما استولى السلاجقة على الحكم فخلصوا من السطوة الشيعية وبسطوا نفوذهم فى فارس والعراق والشام وآسيا الصغرى وكردستان فشغلت تلك الأحداث الحقبة منذ 429 هـ الى 700 هـ ، واستمر العلويون يمثلون المعارضة والشوكة القوية فى ظهر الخلافة العباسية.. تبدو تارة..وتختفى أخرى .

والصراع بين العلويين والعباسيين لم يك بواسطة السلاح فقط بل ظهر على مختلف الأصعدة فى الأفكار والمبادىء ، المنحى الخاص فى شرعية الحكم، ومن نظام الإمامة – الوراثة – وفى صفات الإمام وتجلى فى المذهب الفقهى فقهاء الشيعة وفقهاء السنة ويتجلى فى الشعر الذى مثل الصحافة الحزبية السياسية. فإذا كان

الشعر له دور كبيرفى الخلافة الأموية فقد لعب الدور نفسه فى الخلافة العباسية، وكان مروان ابن أبى حفصة شاعر العباسيين المقرب الذى يشيد بأمجادهم، ويتغنى بأفضالهم ويحصد جوائزهم وعطائهم قال مثنيًا على المهدى بإنه يدافع عن الإسلام ويلتزم حدوده إضافة إلى مواجهته المشركين.

أحيا أمير المؤمنين محمد ... سنن النبي حرامها وحلالها

جبل لأمته تلوذ بركنه ... رادي جبال عدوها فأزالها

لم تغشها مما تخاف عظيمة ... إلا أجال لها الأمور مجالها

حتى يفرجها أغر مبارك ... ألفى أباه مفرجًا أمثالها

ثبت على زال الحوادث راكب ... من صرفهن لكل حال حالها

الصراع العربى الرومى

جاء الاسلام لينير الطريق ويهدى قوما لايعلمون فدخل فى ديـن الله أفواجًـا من أراد الله هدايته متخليا عما يحب من مال وجاه ونفـوذ وسـلطان مـؤثرا رضى الله والتزام سنة رسوله ﷺوحينما استقر الأمر لرسـول الله ﷺ فى المدينـة كـان يرسـل الغزوات للفتوحات الاسـلامية ويـوصى بأهـل البلـدان خـيرًا ويسـتوصى القـواد وأصحاب اللواءات بوصايا إنسانية بنبيـه وحيـنما توسـع المسـلمون فى فتـو حـاتهم وبعدت الحدود كثيرا عن مركز الخلافة فى الحجاز ... عمد معاوية الى التقـرب مـن كل البلدان فاتخذ دمشق عاصمة له ... وظلت حدود الـروم الشرـقية مصـدر قلـق للخلفاء والخلافة الإسلامية .. وتباينت وجهـة النظـر، فالمسـلمون يـرون أن قلعـة الكفر الحصينة هى الروم، والإسلام دين الناس كافة فلا بـد مـن غزوهـا لإيقـاف الناس على حقيقة الدعوة الإسلامية وتبيين مزاياها .. بيـنما الـروم يـرون أن الـدين الإسلامى هدف لتقويض عرشهم وزلزلة ملكهم الثابت .. فالتقت وجهتـى النظـر على الحرب كل يذب عن معتقده ، يدافع عن وجهة نظره فتوالت الصـوائف وهـى جمع صائفة حيث إن الطبيعة الجغرافية لبلاد الـروم آنـذاك (آسـيا الصـغرى كثـيرة الجبال ،وعرة المسـالك ،شـديدة الـبرودة شـتاءً،) فتقتضىـ ان تهـاجم – مـن قبـل المسلمين – صيفًا ليتفادوا عرقلة الطبيعة ويتربص بهم – الـروم – ليستخلصـوا مـا استقطعه المسلمون من الأراضى السـورية أويمنعـوا اسـتقطاع أجـزاء أخـرى مـن الجسد الرومى كحرب استباقية .

وفى عهد عمر بن الخطاب كانت أول صائفة هى التى وجهها عمر بن الخطاب إلى بلاد الروم سنة 21 هـ وجعل قيادة الجيش فيها لعمير بن سعد الأنصارى.[1]

واستمر الحال منذ الدولة الأموية حتى الدولة العباسية وعلى الرغم من توالى الغزوات وفتح كثير من البلدان والحصون مثل – اماسية – خرشنة – عمورية – سلوقية – وحصن بولق ، والأخرم ،وبولس ،وقمقم ، الا أن القسطنطينية ظلت مصدرًا للقلاقل فى زمن الثغور التى كانت محصنة بالأسرار والقلاع ويقوم على حمايتهم من تندبهم الدولة ،وتجرى عليهم الرواتب لحمايتها ، وهى متنوعة المواقع فهى ثغور بحرية ، ثغور برية ، كذلك وجدت الأربطة التى وجد عليها المسلمون واهبين انفسهم للدفاع عن الدولة الاسلامية وبدافع الدين الإسلامي القويم. وفى أماكن الرباط والثغور حصل الخلط بين العرب والروم والأنماط الثقافية والفكرية الأدبية والفنية لكل منهما .

والملاحظ ان الصوائف التى حدثت فى عهد الخليفة المنصور 38 هـ ثم فى سنة 140 هـ ثم 155هـ محدودة الأثر ثم طلب صاحب الروم الصلح على أن يؤدى الدية للمسلمين، كانت الصوائف عبارة عن تعدى وتجاوز وإحداث نوع من التخريب ... ثم العودة ... دون كسب ملموس، وكثرت الغزوات فى عهد هارون الرشيد وكانت دائماً تحقق نجاحاً ملحوظاً لكن لم تحقق الظفر المنشود حتى قال له مروان بن حفصة.

أطفت بقسطنطينية الروم مسندا   إليها القنا حتى اكتسى الذل سورها

وما رمتها حتى أتتك ملوكها   بجزيتها والحرب تغلى قدورها

1- الحدود الإسلامية البيزنطية – دار الكاتب العربى بالقاهرة جـ 3 صـ 353

وكانت عودة هارون من هذه الغزوة فى المحرم مـن سـنة 168 هــــ ولكـن قبل المهدى سرية بقيادة يزيد بن بدر البطال ، فردوهم من حيـث أتـوا ، وظفـروا مـنهم .وهكـذا يصـل المسـلمون فى عهـد المهـدى الى القسـطنطينية ويحاصرونهـا ويهددونها مثلما حدث من قبل فى عهد الأمويين ، ويقول المستشرق جرونيبـاوم : " أوشكت الإمبراطورية أن تمحى من الوجود تماما على يد العرب ثلاث مـرات عـلى الأقل – فى سنة 668 (48 هــ) ، ومـن حـوالى 673 (54 هــ) الى 679 (60 هــ) – 680 (61 هـ) ، وفى 716 (98 هــ) – 717 (99 هــ) وهـذه هـى المرات الثلاث التى حـاصر فيهـا المسـلمون القسـطنطينية فى زمـن الأمـويين ، وفى تقديرنا أن غزوة هارون فى عهد المهدى لم تكن أقل تهديدًا بسقوط الأمبراطورية من سابقاتها ، وتوالت الغزوات من الرشيد مهاجمًا للروم بنفسه أو عاقدًا اللـواء لأحـد قواده . ثم قامت عصابة من الروم فخلعت من الروم الملكة ايرينى وولت " نقفور" مكانها ، وكان ذلك فى سنة 186 هــ وكتب نقفور الى الرشيد بقول : " مـن نقفـور ملك الروم الى هارون ملك العرب .. أما بعد .. فإن الملكة التى كانت قبلى أقامتك مقام الرخ ، وأقامت نفسها مقام البيدق ، فحملتإليك من أموالهـا مـا كنـت حقيقًـا بحمل أمثاله اليها ، ولكن ذلك ضعف النساء وحمقهن ، فإذا قرأت كتابى فاردد مـا حصل قبلك من أموالها ، وافتد نفسك بما يقع به المصادرة لك ، وإلا فالسـيف بيننـا وبينك " فلما قرأ الرشيد الكتاب استفزه الغضب ، فـدعا بـداوة وكتـب عـلى ظهـر الكتاب : " بسم الله الرحمن الرحيم .. مـن هـارون أمـير المـؤمنين الى نقفـور كلـب الروم ، قد قرأت كتابك .. والجواب ما تراه دون أن تسمعه والسلام "

وخرج الرشيد فى غزوة تأديبية الى بلاد الروم دمر فيها ما دمر، وغنم ما غنم، حتى أناخ بباب هرقلة، فطلب منه نقفور الموادعة على جزية يؤديها كل سـنة، فقبـل الرشيد ذلك منه، ولكنه ما كاد يرجع بجيشه الى الرقة حتى كـان نقفـور قـد نقـض الاتفاق فخاطبه أحد الشعراء قائلاً:

**نقفور إنـك حـين تغـدر أن نـأى		عنـك الأمـام لجاهـل مغـرور**

**أظننت حين غدرت أنـك مفلـت		هبلتك أمك مـا ظننـت غـرور**

**ألقـاك حينــك فى زواخــر بحــره		فسمت عليك من الأمام بحور**

وفى عهد المأمون كانت هناك غزوات للروم 212 هـ حيث خرج عـلى رأس الجيش بنفسه فأرسل إليه ملك الروم مطالبة بالهدنة والأسرى فطلـب منـه المـأمون الإسلام أو دفع الجزية أو عرض نفسه للحرب فقد رأى المأمون أن الهدف من غـزو الروم ليس السلب والغنائم بل نشر دين الله واقرار دعوة رسوله

أما المعتصم فقد عـاصر دعـوة بابـك الخرمـى للألوهيـة وإعـلان العصـيان فأرسل إليه الجيوش الكثيرة فؤسر احمد بن الجنيد، وقتل محمد بـن حميـد الطوسـى، وتحصن بالجبال الوعرة وأباح لاتباعه القتل والاغتصاب والتمثيل بـالغير، فارسـل إليه الأفشين قائدًا واستطاع هزيمته وجلبه الى سامراء فأمر المعتصم بقتله، ثم توجـه إلى الروم الذين استغلوا انشغال المعتصم بمحاربة "بابك" فهـاجموا مدينـة ملطيـة ، وزبطرة مسـقط رأس المـأمون بقيـادة تيوفيـل وظـل محـاصًرا لهـا ضـاربًا أسـوارها بالمنجنيق ، وعرض عليه المال رفض لأنه ابتغى الجهاد لا حب المال .وجند أبو تمـام نفسه لاظهار هذا الموقف فى قصيدته التـى حكـى فيهـا البطولـة العربيـة، والحسـم والحزم اللذان اتسم بهما المعتصم فصحباه للفوز والانتصار:

**السـيف أصـــدق أنبـــاءً مـن الكتـب		فى حده الحـد بـين الجـد واللعـب**

**بــيض الصــفائح لا سـود الصــحائف فى		متــونهن جـلاء الشـك والريــب**

ونلاحظ شيئين:

أ – أن الناحية الدينية كانت هى الموجه والمنطلق عند كلا الطرفين فالعرب منطلقين فى حروبهم من إسار تأمين حدود البلاد، وتبليغ الدعوة الاسلامية، فالدين هو المنطلق واقراره هدفًا .... يقول أبو تمام مثنياً على يوم عمورية:

يا يوم وقعة عمورية انصرفت عنك المنى حفلا معسولة الحلب

أبقيت جد بنى الإسلام فى صعد والمشركين ودار الشرك فى صبب

ثم ينص على أن هارون مؤيداً من قبل الله ولو لم يك تأييد الله له لم ينل الفوز والنجاح فعناية الله كلأته فنصرته:

تدبير معتصم، بالله منتقم لله مرتقب فى الله مرتغب

ولأن النية خالصة متوجهة إلى إرضاء الله كلل عمله بالنجاح

رمى بك الله برجها فهدمها ولو رمى بك غير الله لم تصب

من بعد ما أشبوها واثقين بها والله مفتاح باب المعقل الأشب

وكان أبو سعيد الثغرى بطل الثغور حيث تولى حمايتها فى زمن المعتصم حيث ولى أرمينية 220 هـ حتى وفاته فى خلافة المتوكل 237 هـ وظل يبنى الحصون ويدافع عنها .. وقد ذكره أبو تمام فى قصائده مرة بأن أبلى بلاءً حسنا كأهل بدر:

يوم به أخذ الإسلام زينته بأسرها واكتسى فخًرا به الأبد

يوم يجىء اذا قام الحساب ولم يذممه (بدر) ولم يفضح به (أحد)

ثم صوره صورة ويكأنه يحاكى فى الدين خالد بن الوليد الذى نصر الإسلام وأعز المسلمين:

أصبحتَ مفتاحَ الثغورِ وقفلها — وسداد ثلمتها التي لم تسدد

أدركت فيه دم الشَّهيد وثاره — فلهجتَ فيه بشكر كلِّ موحدِ

ضحكتْ لهُ أكبادُ مكة َضحكها — في يومِ بدرٍ والعتاةِ الشهدِ

أحيَيْت للإسلامِ نَجدةَ خالِدٍ — وفَسَحْتَ فيهِ لِمُتْهمٍ ولِمُنْجدِ

وكان الوازع الديني هو المحرك للروم فى حروبهم ضد المسلمينأيضا، فقد كانوا يعتقدون أن الذى يموت بطعنة أعدائه تهيأت له حياة أخرى إضافة إلى أناشيدهم الجماعية التى تملأ نفوسهم بالثقة والثبات منها " النصر لله الذى هدم البلاد العربية، والشعر لله الذى شتت شمل من ينكر التثليث المقدس، والنصر لله الذى جلل بالخيبة هذا الأمير القاسى عدو المسيح، النصر لله، النصر لله " فهم يعتقدون إنهم شعب الله المختار وسواهم لم يبلغ بعد حد الإنسان الكامل ... وعليهم أن يجدوا فى نشر دينهم ويبشروا به.

فالمنطلق عند الروم أيضاً دينى حيث رأوا ضرورة الدفاع عن أرضهم لأنه دفاع عن دينهم. فكل فريق يدافع عن معتقده، من وجهة نظره، ولكن يأبى الله إلا أن يتم نوره ، فينصر الإسلام ويقع بعض فوارسه أسرى، وقد وقع أبو فراس فى الأسر أكثر من مرة عام 344هـ ثم عام 351 هـ وظل به فترة حتى افتداه سيف الدولة 355 هـ، وطول مكثه فى الأسر سمح له بإقامة علاقات حتى إن الملك كان يستطرفه ويحضره جليسًا له مكرمًا إياه، وقيل إن سبب إكرامه إياه أن امه كانت بيزنطية. وفى إحدى جلساته ينوه الملك على أن العرب أصحاب أقلام لا أصحاب سيوف وغاب عنه أن سيف الدولة كان العدسة اللاقطة لأمجاد العرب ومفاخرهم وطالما سجلها مفتخرا وتوالت الصور أمام نظره فقال:

أتزعم يا ضخم اللغاديد أننا ... ونحن أسود الحرب – لا نعرف الحربا

فويلك من للحرب إن لم نكن لها ... ومن ذا الذى يضحى ويمسى لها تربا

ومن ذا يقود الجيش من جنباته؟ ... ومن ذا يقود الشم أو يصدم القلبا

وهى قصيدة طويلة إلى أن يقول:

بأقلامنا أجحرت أم بسيوفنا ... وأسد الشرى قدنا اليك أم الكتبا

فثمة تبادل ثقافى حضارى قام بين الطرفين فى السلم، فالإسلام بقواعده السمحة وقوانينه النبيلة كان عامل جذب لكل من طالعه سواء أكان مقنعًا أم لا ففى مناطق الثغور عاش المسيحيون والمسلمون جنباً إلى جنب كل فريق محتفظ بمعالم شخصيته، ولغته، ودينه آمنا عليها؛ وعاش المسلمون فى حى النصارى والنصارى فى حى المسلمين فى أمن وفى دعة، فالإسلام والتشريع ضبط كل شىء وقنن كل وضع وتكفلت حوادث الأيام وضرورات العيش بستكمال ما فات المشرعين، وعاش المسلمون والمسيحيون يأخذون من بعضهم البعض العادات والتقاليد مما أحدث نوعاً من التقارب بين المعايير السلوكية لدى الطرفين، ففى أثناء تبادلهم الأسرى الْمُفْدون يأتى الأسير بم اكتسب من معايير جديدة بعد أن يبث بعض معاييره وسلوكياته للطرف الاخر ، فوجد نوع من الترابط والفهم، لاسيما أن بغية الطرفين حسن الخلق والتهذيب والإرشاد وأُلفت كثير من الكتب فى هذا الإطار.

وتعد منطقة الثغور نموذجًا واضحًا للتأثير والتأثر والتعايش السلمي فأديرة النصارى الكثيرة انتشرت فى الشام وشمال العراق، فأثرت فى ايجاد ظاهرة الزهد فى المجتمع المسلم، وانتشر لديهم أيضا الحانات وما تحويه من تهتك وخلافه فأثرت فى وجود ظاهرة المجون فى الحياة الأدبية والعباسية لكن فى السلم بشكل عام قامت صلات وعلاقات ودية بين العرب والروم وعلى الرغم من أن نقفور نقض عهده

مع أمير المؤمنين فاحتالوا بالشاعر أبى محمد بن عبد الله بن يوسف كى يبلغ الرشـيد الخبر، فقال بين يديه:

نَقَـضَ الـذي أَعطيتَـهُ نَقْفُـورُ	**فَعليـهِ دائـــرةُ البَـوَارِ تَـدُورُ**
أَبْشِــــرْ أمــيرَ المـؤمنينَ فإنــهُ	**فَتْـــحٌ أتاكَبــهِ الإلــهُ كـــبيرُ**
فلقد تبـاشرت الرعيـة أن أتـى	**بـالنقض عنـه وافـد وبشـير**
ورجت يمينك أن تعجل غزوة	**تشفى النفوس، مكانها مـذكور**
أعطـاك جزيتـه وطأطـأ خـده	**حذر الصوارم والردى محـذور**

وحاربه أمير المؤمنين حتى دفع نقفور الجزيـة فنجـد ان ثمـة علاقـة انسـانية قامت بين الطرفين أساسها قاعدة اعرف عدوك ، ولقد ألف "نقفور" كتابـا للـروم فى فن الحرب وصف فيه خيالة سيف الدولة بانها تهاجم عن الرجاله وبـين فى كتابـه هذا اساليب محاربة الروم للعرب ونصائح لهم فى حروبهم مع المسلمين لكن هـذا لا يمنع حدوث موقفين دلا على عظمة المسلمين ،ثم فطنتهم فقد أرسـل نقفـور كتابـا لهارون الرشيد مع اثنين من بطارقته .

فقد تصرف أمير المؤمنين بعظمة ورحمة الاسلام وحدبه، وقـد طبـق الخلفـاء مبدأ "الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها أخذها "فقد علموا أن الروم أصحاب عقل وحضارة ،فعملوا على الاستفادة منها واستجلابها يقول عبد الله النديم

"إن المأمون كان بينه وبين ملك الروم مراسلات وقد اسـتظهر عليـه المـأمون فكتب إلى ملك الروم يسأله الاذن فى إنفاذ ما يختـار مـن العلـوم القديمـة المخزونـة المدخرة ببلد الروم فأجاب إلى ذلـك بعـد امتنـاع ، فـأخرج المـأمون لـذلك جماعـة منهمالحجاج بن مطر، وابن البطريق ، وسلما صاحب بيت الحكمة وغيرهم فأخـذوا مما وجدوا ما اختاروا ، فلما حملوه إليه أمرهم بنقله – أى بترجمته الى العربية – فنقل ،

وقد قيل إن يوحنا بن ماسوية ممن أنفذ الى بلد الروم قال محمد ابن اسحق : ممن عنى بإخراج الكتب من بلاد الروم محمد واحمد والحسن بنوا شاكر المنجم وانفذوا حنين بن اسحاق وغيره إلى بلد الروم ، فجاؤوهم بطرائف الكتب وغرائب المصنفات ، فى الفلسفة والهندسة والموسيقى والأرثماطيقى والطب .

بل الخليفة العربي كان يحتال على الاستفادة من كل من نبغ فى علم من العلوم، فحينما وقع تلميذ "ليون" فى الأسر وهو البارع فى الرياضيات حاول استحضاره إلى مقر الخلافة وحين تعذر الأمر عمل على استفادة منه فى مكانه قدر المستطاع، فحينما حضر الأسير إلى المأمون .. حيث واجهه بأبرع علماء الهندسة ،فألفاهم الشاب ضعافا فى تفهمهم للاستدلال الهندسى، وأحدث فى البلاط وقعًا حسنًا باظهاره الطرائق الصحيحة، فلما سئل عن معلمه وهل لا يزال حيا ؟!، أوضح أن ليون يعيش عيش الفاقة، وأنه ليس معروفا إلا لدائرة صغيرة من الناس ، وأرسل المأمون من فوره كتابًا إلى العالم يدعوه للحضور الى بغداد، ووعد باطلاق إساره ن هو أوصل الرسالة ، فرأى الفيلسوف من الحصافة أن يعرض دعوى الخليفة على موظف كبير ، أبلغ بدوره الأمر الى الامبراطور ، وبذلك كانت الرسالة سببا فى تنبيه الجمهور إلى مواهب "ليون " ولوذعيته العلمية ، فعينه الإمبراطور على الفور معلمًا عامًا فى كنيسة الأربعين شهيدا ، حتى إذا أدرك المأمون إحجام ليون عن الشخوص إلى بغداد جعل يراسله ، مقدما إليه عددا من المسائل الهندسية والفلكية ، وكانت حلوله بارعة ، وتكهناته بالحوادث المستقبلية التى كان يضيفها – رغبة فى اثارة الدهشة فى النفوس – مما زاد فى رغبة الخليفة فى اجتذابه الى بلاطه ، فتحول الى الإمبراطور ذاته ، وطلب منه أن يرسل "ليون"إلى بغداد الى أجل قصير ، واعدًا إياه بأجزل العطاء ، ولكن الإمبراطور لم ير من الحكمة ان ينزل عن كنزه لسواه ، وأن يجعل العلم الثمين فى متناول الأجنبى .

وفى المقابل كذلك نجد الرومان يحاولون الاستفادة ممن نبغ من العـرب فقـد أرسل ملك الروم إلى الرشيد يطلب حضور أبي العتاهية على أن يعطى ضمانا له مـن رهائنه من يريد وكلم الرشيد أبا العتاهية فى ذلك فاستعفى منه وأباه .

وغير خاف أن هذه الأحداث أثرت فى الأدب لـدى كـلا الطـرفين فظهـرت سيرة الأميرة ذات الهمة فى الأدب العربى ، وديجينس اكرنياس فى الأدب الرومـانى وقد أخذتا نسقًا ملحميًا وإن لم تاخذا شكل الملحمة .

فسيرة الأميرة ذات الهمة تدور حول إقامة الأمـيرة عـلى الثغـور هـى وابنهـا ورفضها لسيطرة الرومان على البلدان ،واقرارها مبدأ التخلص من الفساد الـداخلى يؤدى لهزيمة العدو الخارجى ، وصورت فيها حياة الشعب الرومى وحياة الرهبـان فى الكنائس والأديرة ومواقف الجدل التى وجدت بين المسلمين والنصارى .

وملحمة ديجنس اكريتـاس تعكـس مواقـف الشـعب الرومـى مـن الصراع العربى ومعنى" ديجنيس اكريتاس "المِّولد الحامى للحدود وقد كان قويا مدافعًا عن حدود بلاده مثل الأميرة ذات الهمة ، والعامل الدينى محرك أساسى فيها مثـل قصـة الأميرة .

الحمدانيون والازدهار الأدبى

الحمدانيون عرب خلص ، أقاموا دولتهم فى كل من حلب والموصل لذا جرى على ألسنتهم الفصاحة العربية ، فقدروا الكلمة وأثابوا عليها وعملوا على نهضتها وتطويرها فتزاحم على أبوابهم الشعراء، وتجمع فى قصورهم الأدباء حتى قيل ما اجتمع الشعراء بباب أحد من الملوك ما اجتمع بباب الرشيد ، وباب سيف الدولة ، وتطور الأدب فى ظلالهم وازدهر فى ملكهم يدحض مقولة " إن الأدب صنو الحياة السياسية يزهو برفعتها ويبهت بانخفاضها " وقداتسم أدب الحمدانيين بسمات وخصائص جعلته محط أنظار الجميع ، وفى يتيمة الدهر للثعالبي:أن الصاحب بن عباد كان يستملى الطارئين عليه من دولة الحمدانيين ، ويكتبه في سجل خاص به يستشهد به حديثًا ومكاتبَةً ،

وبداية ظهر حمدان جد سيف الدولة على مسرح السياسة ثم والده أبو الهيجاء ، وشاعره المفضل كشاجم، ثم سيف الدولة فى حلب ،وناصر الدولة فى الموصل .هذا وقد ظهرت الدولة الحمدانية حينما ضعفت الدولة العباسية وتكالب عليها الشعوبيون ،والحاقدون، فتفرقت الكلمة وتشتت الأمة وشاعت الفتنة ، وكانت بدايتها فى عهد المأمون، لكنه استطاع تحجيمها وظلت الفتن تقوى ، والخلفاء يضعفون؛حتى جاء المعتصم واستبدل الرمضاء بالنار أتى بالترك ليخُلص من النفوذ الفارسى ثم إزداد نفوذهم ، وعمت الفوضى البلاد حتى ظهر حمدان بن حمدان، وتنسب قبيلته إلى تغلب ،وكان يتولى قلعة ماردين من أعمال الموصل ، وكانت فخرًا للمسلمين وأظهر تفوقًا فى حماية الثغر وإقامة الحوائط والحصون ضد الهجمات المستهدفة للخلافة الاسلامية والتى أغرى بها ضعف الخلافة وفتورها .

وكان حمدان كريما جواد بنى سورا كلفه سبعين ألف دينار على ملطية يقول سيف الدولة " لقد دخلت ملطية وكنت صبيا برفقة عمى أبي العلاء والد فراس الحمدانى سنة 313 هـ فقرأت اسم جدى حمدان مكتوبا على سورها ثم دخلتها بعد ذلك بعشرين عاما يرافقنى ابن عمى الأمير الشاعر أ"بى فراس الحمدانى " "فمررت بذلك الموضع فوجد اسم جده لا يزال مكتوبا على القاعدة

وقد امتلك حمدان صفات فريدة ففضلاً عن شجاعته وذكائه وبسالته ودهائه فى الدفاع عن الثغور، ومحاربة الروم ،ومكافحة البيزنطيين،كان كريما وقد صدر منه حادثتان دلتا على شديد كرمه وعظيم سخائه، فقد جاءت سنة فى ديار الموصل وربيعة جدباء جفت الزرع والضرع،واستغاث الناس به يسئلون الميرة فمارهم جميعا بالأموال التى جمعها من غنائم الروم وتلتها سنة أشد جدبا فعادوا الاستعانة به وعاود إمدادهم ومنحهم العطايا فسموه "مكابد المحل" وخلدوه فى شعرهم وغنوا بعطائه وكرمه وبذله يقول الشاعر:

ما زلت فى كبد المعيشة جاهدا   حتى أتيت مكابد المحل

أعطى وقد بخل الزمان ولج فى   إعطائه إذ لج فى البخل

لذا التقت السواعد والعقول تحت رايته يأتمرون بأمره وينفذون رأيه، وكالعادة وقف أعداء النجاح يحاولون دون وصول هذه الأعمال العظيمة والدفاع عن راية الإسلام للخليفة المعتضد ، ولعب الأمراء الأعاجم لعبتهم وحاربوا حمدان بن حمدان التغلبى كما حاربوا الأمين ، ثم المتوكل فهم يرفضون ويواجهون كل من كانت له ميولًا عربية أو رغبة لاسترداد الهيبة العربية متغاضين عن مجهوده فى صد هجمات الروم ومحاربة المناوئين .

فلم يجد بد ولجأ حمدان الى أمثاله من المغموطين حقوقهم المدافعين عن الاسلام مثل هارون الشارى الخارجى ، –على رغم اختلافه معه فى المعتقد – ثم

أعلنا العصيان على الخليفة وتمكنا من الاستيلاء على الموصل ونواحيها لكن الخليفة هاله استحواذه على ما بقى من ملكه فخرج فى جيش جرار واستطاع استرداد الموصل، وتفريق جمع الثائرين ، ثم طارده ونصب العيون وبذل الجوائز للقبض عليه ، ولما لم يجد مناصًا سلم نفسه فحمد الخليفة الله على ذلك وسجد له ولكن ... بعد سجنه تحسنت صورته لدى الخليفة حيث اطلع ابنه الحسين بن حمدان الخليفة على خلفية ثورة أبيه ،وتحالفه مع هارون الشارى الخارجى على رغم اختلاف مشاربهما، فوجد فيه الخليفة بسالة وشجاعة وبأس شديد ولا سيما ان الخارجى هارون الشارى ضرب فى الأرض وأصبح يؤذى من يلاقى ويثير القلاقل ويفتعل الفتن فاضطر الخليفة بعد بلوغه بسالة بنى حمدان وشجاعتهم للاستعانة بهم .

قال الطبرى (لم يدخل حمدان صميم السياسة فى الدولة العباسية و لم يحتل مكانته فيها إلا عندما تحالف مع هارون الشارى الخارجى ودخلا الموصل فاتحين سنة 272هـ وكان لحمدان سبعة أولاد أشداء أقوياء كانوا خير معين وخير يد لإقامة صرح الخلافة الحمدانية، واستطاع الحسين أثبات كفاءة فى القبض على هارون الشارى، وأتى به مكبلًا إلى الخليفة الذى سعد أيما سعادة ومنحه جزيل العطاء، وسوارا من ذهب ، وان يطلب طلبات ثلاث فطلب الافراج عن أبيه ورفع الإتاوة عن بنى تغلب ، واثبات خمسمائة فارس من هذه القبيلة ميزة لهم عن العرب والعجم ، فوافق الخليفة ، و هذا يبرر سر قيام مملكتهم .. بمراعاتهم الرعية وتقديرهم لذويهم ،كذلك يفسر سر استعانة الخليفة به فى حرب القرامطة الذين سعوا إفسادا فى الأرض وقتلوا النساء والأطفال وحرقوا الدور والزروع، وأشاعوا الفتن فى أطراف العراق ،ودخلوا الشام فالتقى بهما لحسين وهزمهم وقتل زعيمهم يحى القرامطى الملقب بالشيخ، لسطوته وأحضر أخاه مكبلًا على جمل، وطاف به البلدان قبل تسليمه للخليفة مكبلًا لجرأته وتلقيبه نفسه أمير المؤمنين واستيلائه على عاصمة الدولة العباسية.

وقد رأيت أن أعرض لأهم الشعراء في العصر العباسي الذى حمل رايـة التجديـد ،؛ نتيجة لظروف نفسية وإجتماعية وعلمية عنده فعرضت لشخصية أبي نواس إذ يعـد تجسيد واقعي للتناقض في العصر العباسي وقـد عرضـته مـن زاويـة التذبـذب بـين المجون والتوبة.

ثنائية المجون والتوبة

1 – **المجون:** مقارفة المحرمات وتعاطيها والمباهاة بارتكابها وتزيينها للمتلقين وجذبهم نحوها من خلال بديع القول ومنسق النظم . وقد تبدت مظاهره أكثر ما بدت فى شرب الخمر، والغزل بالمذكر، الغزل الصريح .. وكل ذلك كان عنه منهياً

تأرجح سلوك أبي نواس ما بين المجون والتوبة شكل الثنائية ذات التقابلية تلك التى مثلت حجر الزاوية في إبداعه ،وحيث تخلل هذه الثنائية ومضات إبداعية أخرى ، فقد يصف معجبًا بالطبيعة ، أو مادحًا ، أو قادحًا ، لكن غزارة إبداعه توجهت أولاً نحو أو صوب المجون ، مثل رصد الملذات ، ومقارفتها ، وتجديدها، والإقبال عليها ثم الدعوة إليها وتزيينها .والمجون هو الخروج عن ضوابط المجتمع ومعاييره ،والانطلاق وراء شهوات النفس ورغباتها ، وإعلان ذلك والاشتهار به

على الناظر المتأمل في شيوع هذه الظاهرة في المجتمع العباسي بغية ردها إلى أصولها يرى أنها ترجع إلي الترف الشديد، والفراغ المفسد ، وغزو عادات وتقاليد أجنبية للمجتمع العربى، ومزاحمة ثقافات وافدة : هندية ، يونانية ، فارسية ، وغيرها ، للثقافة العربية السائدة ، إضافة إلى وجود شخصيات مبدعة ملَّت النهج القديم في الإبداع ، ورنت إلي إبتداع نهجٍ مستحدثٍ يتوافق مع مستجدات العصر ، ومتغيرات الحياة ، وقبل هذا وبعده ظهور أجيال المولدين والموالي وكثرتهم ، ؛ وانتشار حانات الخمر .

وهو ما يتوافق مع نهج مانى:إن " أتباع ماني فر بعضهم في القرن الرابع الميلادى إلى بلاد الترك ، وما زالوا هناك إلي أن فتح العرب فارس فعادوا إلى إيران وظهروا في عهد الدولة الأموية بالعراق وبالكوفة خاصة (1) وبعد أن انتشرت ملتهم في

1 الوصف في الشعر العباسى إلى دخول السلاجقة بغداد احمد أمين مصطفى ، رسالة ماجستير، إشراف د أحمد الحوفى 1968 دار العلوم صـ216

الكوفة ، تسربت إلى باقي الأمصار، ثم عم الإقبال عليها في بغداد لتوافر البيئة الحاضنة لها ، وكان هناك طائفة متفلتة من الضوابط الاجتماعية في البصرة يعيشون كيفما اتفق أطلق عليهم مصطلح "البوهيميين "يقول د العربي درويش " أما في جيل أبى نواس فلم يكن قد وفد منهم على جيرة البصرة غير طلائع متفرقة ، يقطع بعضها الطريق في البادية وينزل بعضهم إلى جوار الأرباض المتطرفة ويجرون على عاداتهم التى تلخصها كما أسلفنا – كلمتان : التشرد والتحلل من عرف المجتمع وآداب الحضارة ، وكانت الفئة التي اشتهرت باسم الشطار بعض طلائع هؤلاء الأخلاط ، وهم المثل المقتدى به عند أبى نواس كما جاء في مجونه وخمرياته[1]، ونظراً لطغيان العنصر الفارسي وتغلغله في الحياة السياسية والاجتماعية ؛ فقد سيَّد عاداته وتقاليده ومنها : معاقرة الخمر إذ كانت مشروبهم في الأعياد التي شارك في احتفالاتها العرب فأقبلوا عليها يحتسونها يقول ابو نواس :

من شراب ألذ من نظر المعشوق ... ولرام فضل على الأيام

اسقنا إن يومنا يوم رام ... في وجه عاشق مستهام (2)

هذا ويعد يوم الحادى والعشرين من كل شهر- من شهور الفرس- يوم " رام " إذ يحتفلون به، وكان العرب يشاركونهم أعيادهم، كعيد النيروز، والمهرجان، ومما ساعد على انتشار معاقرة الخمر؛ ما احتقبته الذاكرة الإبداعية القديمة من إرث ثقافي.

فقد شبَّ المبدعون وهم يرددون أشعاراً على مرّ العصور تزين الخمر، متوهمين أنها تساعد على مكارم الأخلاق ، **كقول عمرو بن كلثوم** :

ترى اللحزَّ الشحيح إذا أمرت ... عليه لماله فيها مهيناً(3)

1أبو نواس وقضية الحداثة د العربي حسن درويش الهيئة المصرية العامة للكتاب 1987صـ105

(2)الديوان صـ 325

(3)شرح القصائد العشر ص18 2

ويقول حسان :

ونشــــــربها فتتركنـــــا ملوكــــــاً   وأســـداً مـــا ينهنـــــهنا اللقــــاء (1)

أضف إلى ذلك حرية الأديان التى كفلها الإسلام، وبخاصة التى تتوسع في تطبيق توابعها الحكام ، فقد غضوا الطرف عن شرب اليهود والنصارى للخمر ، بل لم يعترضوا على شربها وتقديمها للشاربين في مجالسهم ،" فالمهدى كان محباً للفن وحياة المتعة وكانت تقدم في مجلسه ، وعطَّل الهادى حد الشاربين ، واليهود والنصارى أطباء الخلفاء كانوا يعاقرونها لسماح ديانتهم بذلك " ففى المسيحية يكون شرب الخمر جزءًا اساسيًا من العشاء الرباني أو القربان المقدس " أما لدى العبرانيين فإن كأس البركة يوازى خمر العشاء الرباني لدى المسيحيين "(2)

وعليه فإن هذا المناخ المناسب كان من أثاره السلبية رفع التحرج في معاقرتها ، وقد "أفتى أبو حنيفة بأن المسلم إذا أتلف خمرة المسيحى يُغرَّم ثمنها ، ولذا تركت لهم حاناتهم وخمورهم، وهناك من أسلم منهم ، وظل يتاجر فيها تحت سمع الدولة وبصرها ، فشاعت وانتشرت ، واستند المُحِلون لحديث السيدة (3) عائشة رضى الله عنها أنها قالت " كنا ننتبذ لرسول الله في مسقاه، فيأخذ قبضة من تمر وقبضة من زبيب ،فيطرحها فيه ثم يصب عليه الماء، فينتبذه غدوة فيشربه عشية ،وينتبذه عشية، فيشربه غدوة " فعلم أنه قبل الاشتداد ، ورووا أن ابن عباس وعمراً أحلا النبيذ " فعن ابن زياد: سقانى ابن عمر – رضى الله عنه – شربة ما كدت أهتدى إلى أهلى"(4) وتحدث ابن المعتز في فائدة النبيذ فقال : " وقد قلنا وقال الناس من قبلنا:

1- نهاية الأرب في فنون الأدب ج4 صـ 128

2- الوصف في الشعر العباسى إلى دخول السلاجقة بغداد احمد أمين مصطفى ، بتصرف

3- أخرجه ابو يوسف فى الاثار : (ص:266\ح1001) قال حدثنا يوسف عن أبيه عن أبى حنيفة ، عن أبى اسحاق، عن عقبة بن زياد ، قال: سقانى ابن عمر رضى الله عنهما شربت شربة فما كدت اهتدى إلى أهلى ، فرجعت اليه من الغد، فذكرت له ذلك فقال : " وما زدناك على عجوة وزبيب " الكتاب : الاثار ، المؤلف ابو يوسف يعقوب بن ابراهيم بن حبيب بن سعد بن حبتة الأنصارى " المتوفى 182 هـ " المحقق ابو الوفا ، الناشر دار الكتب العلمية بيروت ، عدد الأجزاء 1.

4-فتح القدير ، محمد بن عبد الواحد السيواسي ، كتاب الأشربة ج10 ، ص 111 .

إن النبيذ يسخن المعدة والكبد ويهضم الطعام ويدر البول ويلين البطن ، وأن له مع هذه الخصال مسرة النفس وإطرابها " وهكذا كانوا يعتقدون في النبيذ.(1)

وقد تفشت هذه الأفكار في المجتمع العباسي ، فشاع وعم شرب النبيذ ، أسكر أم لم يسكر" (2) وقد أقبل بعض الخلفاء على معاقرة الخمر والسماح بتناولها في مجلسه **وقد شكر أبو نواس للخليفة الأمين صنيعه ذلك فقال :**

فليس بقائل لك إيه دعني ... ولا مستخبر لك ما تشاء

ولكن سقني ويقول أيضاً ... عليك الِّصرف إن أعياك ماء

إذا ما أدركته الظهر صلى ... ولا عصر عليه ولا عشاء (3)

ومع شيوع الخمر وانتشارها صارت صناعة لها ضوابط وعمال وأقيمت الحانات علنية ظاهرة . وصار الشعراء يتغنون – نتيجة للتطور العقلي الحادث في العصر - بأصل الكرمة ، ثم ينعها ، فحصادها ، ثم عصرها، ثم تخبئتها في الدن (4)، ثم اليد التى تسقي ويشيرون لمختلف المراحل حتى ينتهوا إلى حدة أثرها وعنف تأثيرها .

2 - التوبة :-

تدور الدلالة العامة لمادة التوبة حول عدة معانٍ في معاجمنا اللغوية ما يهمنا فيما نحن بصدده أن التوبة : الرجوع، ، عما كان مذمومًا في الشرع إلى ما هو محمود فيه(5).

1الوصف في الشعر العباسي، صـ 216- وهى قضية أشار إليها أبو العلاء في شعره ساخرًا حيث قال :
وقال العراقي: النبيذ مباحة   وقالا حرامان المدامة والسكر
- المدامة : الخمر وكل ما يسكر محرم كالنبيذ - أى أن أبا حنيفة العراقي يبيح النبيذ ، أما مالك والشافعي فيذهبان إلى أن كل ما أسكر حرام – المرجع السابق بتصرف-
2المرجع السابق صـ 216- 217 بتصرف
3الديوان صـ242
4_ إناء غير مستوى القاعدة لابد أن يحفر له -
(5) الرسالة القشيرية في علم التصوف صـ 164.

هذا ويعدَّ شعر التوبة إحدى المراحل الانتقالية بين المجون والزهد، وغالبًا ما يصدر عن شعراء كثرت أشعارهم في الخمر والغزل الماجن، وشاع عنهم التهتك والانحراف والشذوذ، لكن سرعان ما أفاقوا من غفلتهم ، فآبوا إلى دوحة الإيمان، وعادوا إلى الفطرة السليمة، وأجابوا داعى الله بالتوبة والإنابة، معلنين ذلك في أشعارهم.

ومما لاشك فيه أن تلك الطائفة من الشعراء عندما يتوبون توبة يتولد عندهم شعور مضاد بحقارة وخسة ما فعلوه وإطاحته بكيانهم الروحاني وإضاعته لنزعاتهم الإنسانية، ومن ثم يتولد عندهم تقريع النفس وزجرها، فيستمسكون بالتوبة التى تبزغ في نفوسهم وتتمكن من أقوالهم وعقولهم.

وحيث يستفحل الإحساس بالذنب، ويعظم شعور المرء بجهالة أفعال الماضي، ويسرع بإقراره بالذنب ، وطمعه في عفو الخالق عز وجل، وصفحه عن جميع ما اقترفه من آثام، نرى أن هذا الاحساس العام يتنامى مصطحبًا المذنبين التائبين وها هو ذا أبو نواس يقر نادما بكثرة ذنوبه، وعدم قدرته على أى شيء سوى دعاء ربه والتوسل إليه ورجاء العفو منه، **يقول**[1]:

يا رَبِّ إِن عَظُمَت ذُنوبي كَثرَةً ... فَلَقَد عَلِمتُ بِأَنَّ عَفوَكَ أَعظَمُ

إِن كانَ لا يَرجوكَ إِلّا مُحسِنٌ ... فَبِمَن يَلوذُ وَيَستَجيرُ المُجرِمُ

أَدعوكَ رَبِّ كَما أَمَرتَ تَضَرُّعاً ... فَإِذا رَدَدتَ يَدي فَمَن ذا يَرحَمُ

ما لي إِلَيكَ وَسيلَةٌ إِلّا الرَجا ... وَجَميلُ عَفوِكَ ثُمَّ أَنّي مُسلِمُ

وللتائب حسرة ، على ما ضاع من عمره في إتيان الهوى والآثام، وأنين خاص ينفطر له قلبه وينصدع له فؤاده، لذا فهو دائما يتعجل التوبة، ويعجب من تمادى

(1)ديوان أبى نواس صـ618، وزهديات أبى نواس لأحمد الزبيدي صـ69، 70.

نفسه في الذنوب، واغترارها بالآمال الواهية بالرغم من تيقنها من أن كل صفو مآله الكدر، وجميع ما في الحياه إلى شتات، وأن الموت مآل محتم على الجميع.

تعريف أبـو نُـواس

هو: الحسن بن هانىء بن عبد الله بن الصباح الحكمـي المـذحجيّ، من أب عربيٍ وأمٍ من الأهـواز ولـد في مدينـة الأهـواز، سـنة 136 كـان متذبذب الولاء بين بنى الحكم ، والعجم ، واليمن ، والعرب وقيل سمى نفسه " أبا نواس " نسبه إلى جبل " نواس " باليمن فهو يمنـى الـولاء، أو سبب الكنية ما اشتهر أن رجلاً من البصرة رآه يعدو وذؤابته تنـوس أى: تتحرك، ونشأته كانت تبشر بميلاد عالم حديث لكن مساره حاد عن هـذا الاتجاه، واللافت أنه قد امتلك قوة حافظة ، وقريحـة متقـدة سـمحت لـه بمجالسة العلماء بما امتلكه من قوامة؛ إذ اتقن الفصاحة واللغة عن العرب الخُلَّص من بنى سعد، بعـد أن أقـام فـيهم عامـاً ، ثـم أخـذ العلـوم مـن أصحابها ؛ فقد أخذ عن خلف الأحمر الشعر ومعانيه وحزن حزناً شـديداَ لموته وقال راثياً له " أودى العلم مذُ أودى خلف ...) وطالع نحو سيبويه ،والألفاظ عن أبى زيد، واتسعت روايته للأدب وجد في طلب الحديث ، وامتلك مخزوناً لغوياً ثراً؛ أعانه على الإبداع؛ ووسم عملـه بـالتميز؛ وقـد فسر تلك الخاصية حين **قال** : (ما قلت الشعر حتى رويت لستين امرأة من العرب منهن الخنساء وليلى فما بالك بالرجال).[1]

1- نزهة الألباء صـ50

شغل الشاعر الدنيا ردحاً من الزمن ؛ وفي تلك الفترة ؛ماجت الحياة السياسية، والاجتماعية ، في العصر العباسيّ ، بمتغيرات جذرية ،استتبعت وجود ظواهر عدة طرأت على المجتمع العباسّي من: المجون – الزندقة – الشعوبية –الزهد وغيرها، وسمت المجتمع بسمتها وتبدى هذا الوسم فى أفرادها . لكنى سأشير فى عجالة لتلك المؤثرات الأربعة إذ إنها لا تعدو أن تكن سوى وثيقة الصلة بمنجزات الشاعر الأدبية ، ومدقق النظر في ثقافة الشاعر يلمس بجلاء أنها إما مكتسبة من رزاز الثقافات الشائعة : ثقافة فارسية، يونانية، رومانية وذلك بعاملي التفاعل والتأثر..، وإما ثقافة طبعية لعبت الوراثة فيها دورًا بالغ الأهمية في تشكيل مكوناته الفكرية ، هذا فضلاً عن التفاعل والتلاحم مع الثقافات السائدة في المنتديات، الأدبية على الخصوص ، أو في الحياة الإجتماعية على العموم .

كان إبداعه الشعرى لافتاً للأنظار إذ كان طبعى الشعر ينظم القصيدة ثم يتركها أياماً ثم يسقط منها ما يشاء ولا يستبقى إلا ما يرضيه " ولا يقبل كل ما يقذف به خاطره "[1] وكانت نفسه في البداية سوية فأقبل على علم الحديث، ففقهه، ثم شذَّت نفسه فمال إلى المجون، والغزل بالمذكر، وجاهر بالمعاصى واتهم في دينه بشعره لكنه ذب عن نفسه بقول فصل فحينما **قال** :

يا أحمد المرتجى في كل نائبة — قم سيدى نعص جبار السماوات

1-الأغانى ج 29 -9938

"أحضره الخليفة المأمون ليقتله وأحضر معه الفقهاء ومعارضيه من الشعراء ، ثم قال له ألست القائل ... البيت ؛ فقال : بلى . فقال من حضر: هذا كفر يا أمير المؤمنين ، فقال أبو نواس " إن كانوا قالوا هذا بعقولهم فما أنقصها ، وإن كانوا قالوه بآرائهم فما أجهلها ، أيكون زنديقًا مقراً بأن للسموات جباراً[1] فأطلقه المأمون اقتناعاً بأنه تظرف ،ومن مِلح الشعراء مبتور الدلالة بلا امتداد ، وأن ما قيل عن زندقته فرية عليه ، وأن قوله هذا ، إنما هو من ملح الشعراء، فدلالته على الكفر مبتورة ، ،وقد تحدث العقاد عن نفسية أبى نواس وتداعياتها، ووسمه بسمات نفسية من نحو: الاشتهاء الذاتي –لازمة التلبس – التشخيص – العرض – ومفاد هذه الصفات ، هو عشقه للظهور أيما كان نوعه . وهو ما أصاب من الزندقة . يقول العقاد[2]: (فليس له في الزندقة مذهب غير (العرض والإظهار) بدليل واقعة نسبت إليه، فقد روى (أنه انصرف من بعض المواخير سكران فمر بمسجد قد حضرت فيه الصلاة فدخل ، فقام في الصف الأول، فقرأ الإمام " قل ياآيها الكافرون " فقال أبو نواس : لبيك ! فلما قضيت الصلاة لببوه وساقوه للحساب ... فأى مذهب من مذاهب الزندقة يسول لصاحبه هذا المجون، إنما هى آفة العبث بالمخالفة ولا شيء سواه يغريه بهذا السخف الدميم " **ولعل هذا يفسر قوله :**

كطالب مثلاً قيل خالف الناس تذكر

إن كبر الناس غنى وإن تغنوا كبر

1المرجع السابق ج 29 -9999

2الحسن بن هانىء دار الهلال .ب.ت.

فهو عاشق للمخالفة، باغى شهرة ، يرتع في صيتها متمتعًا أكبر من متعة إذا ما اقترفها **يقول:**

وارك‍‍‍‍ب الأث‍‍‍ام حت‍‍‍ى يبع‍‍‍‍ث الله الأنام‍‍‍‍ا

فلك‍‍‍‍م نلن‍‍‍ا ب‍‍‍دينا ر قمرن‍‍‍‍‍اه غلام‍‍‍‍ا

وشربن‍‍‍‍‍ا يومن‍‍‍‍ا ذا ك بباقي‍‍‍‍ة م‍‍‍‍داما

لا نص‍‍‍‍‍رف في ح‍‍‍‍رام أب‍‍‍‍دا إلا حرام‍‍‍‍‍ا[1]

فالعقاد وهو يتحدث عن أبى نواس إتكأ على اعتقاده بعقدة نرجسية تملكته، ثم أرجع كثيرًا من إبداعه لذلك ، بينما يرى د محمد النويهى أن نظرة أبي نواس للخمر شابها عدة رؤى من نحو (قدسية الخمر- التعويض النفسي بالأمومة -مرحلة شهوة المواقعة).

فقد ارتأى -النويهى في مسلك أبى نواس - أنه رأى أن الخمر تطهر الذات من التوتر إلى نشوة الحياة ، وتحرره من طاقته المكبوتهومن هنا كان تقديسه وتعظيمه للخمر الذى دفعه للقول :-

ل‍و عب‍د الخم‍ر قبلن‍ا أح‍دٌ ممن مضى قبلنا عب‍دناها[2]

وقد نسب إليه أن الخمر لا تشرب إلا بثمن خنزير مسروق من زانية[3].

1-ولم أجد هذه الأبيات في نسخة الديوان التى اعتمد عليها وإنما في كتاب العقاد.
2- نفسية أبى نواس د محمد النويهى بتصرف.
3- ولم أجد هذه الأبيات في نسخة الديوان المعتمدة وإنما وجدت في كتاب العقاد.

قال ابن منظور في أخبار أبي نـواس: " كان أبو نواس حسن الوجـه، رقيق اللون، أبيض، حلو الشـمائل، نـام الجسـد، وكـان في رأسـه سـماحة وتسفيط أي أن شعره منسدل علي وجهه وقفاه – وكان ألثغ بالراء يجعلها غيناً ، وكان عنيفاً وفي حلقه بحة قوية لا تفارقه، وكان يعتز بفراهة بدنـه . قال أبو القشير" نظمت الشعر وأنا غلام ، وأبو نواس غـلام وكنـا جميعـاً نضرب العود، وكنت أحسن وجهاً من أبي نواس، وأبو نواس أطبع مني، فتفاخرنا بالشعر وغيره، ثم قلت له . إني أجمل منك وجهًا ، فقـال بـل أنـا أحسن منك وجهًا وأفره.[1]

ولكن لا ينسى ملاحته وتيهـه بهـا، وقـد جـاوز الشـباب كـما قـال من شعره:-

تتيــه علينــا أن رزقــت ملاحــة فمهلاً علينا بعض تيهك يا بــدر

فقــد طالمــا كنــا ملاحًــا وربــما صــددنا وتهنـا ثـم غيرنـا الـدهر

إضافة إلي ضفيرة مدلاة من منتصف شعره [2]

فهذا الشكل الوسيم كان في - رأي العقاد- يخفى نفسية مضـطربة وولع بالذات وعشق للعرض والمجاهرة لا شذوذاً كما شيع وانتشر، وهى أعراض نرجسية إذ إن شخصية شكلتها مؤثرات عدة دفعتهـا دفعًـا لهـذا المسلك الذى صادف هوى في نفسـه فلـم يفارقـه، ففـي شخصـيته (أثـر التكوين المولود، وأثر البيت، وأثر البيئة، الاجتماعية، وأثـر العصــر مـن

1المرجع السابق72
2المرجع السابق 73

جانب السياسة، وجانب الثقافة ولديها تثبت العلامات التى يتشكك فيها النفسيون – على حد قول العقاد).[1]

يتبقى لنا الحديث عن سيرة أمه، التي كانت لها تأثير كبير في حياتـه، فقد كانت (تستخدم صناعتها في الاتجـار بملابـس النسـاء للجمـع بـين الغواني وطلابهن في بيتها) وهذه السمعة السيئة كانت أشهر من أن يبحث عنها باحث فهى " علي متناول اليد لا تعنت السائل عنها من قريـب، ولا تلجئه إلى سر غير مكشوف، وقد سخر منه ابَّان عبـد الحميـد اللاحقـى، **حين قال:-**

أبـــو نـــواس بـــن هـــانى وأمـــــــه جـــــــلبان

والنــــاس أفطـــن شـــىء إلي دقيـــــق المعـــــانى

وكان يحب جارية يقال لها "عنان" لكنها لفظته، وكانـت تغـرى بـه الغلمان والعيارين:-

أبـــو نـــواس بـــن هـــانىء وأمـــــــه جـــــــلبان

والنغـــــل أفطـــن شـــىء إلى دقيـــــق المعـــــاني

"تريد بالنغل أبا نواس وتشير إلى امرأة كانـت كـما قيـل تـربي أولاد الزنا وهى جلبان أم أبي نواس ، بل إن الغمز طال أباه إذ قيل عنه إنه: مـن سلالة زنجية تنتمي إلى مولي من اليمن، **وكان أسود شديد السواد قال فيه ابَّان :**

1- المرجع السابق 94.

هــانىء الجــون أبــوه   زاده الله هوانـــــــــــــا

مولي بين عارين لا يدرى يدفع أيهما، وكيف يدافع عـن أبويـه ضـد ما اشتهر عنهما: "فليس أثقل عـلى الفتـى المغمـوز النسـب في أبويـه معًـا من المفاخرات التى تتعالى بها الأصـوات مـن حولـه ولا يسـمح لـه فيهـا بصوت".[1]

ولهذا الإحساس بالموقف المجتمعى منه خرج على تقاليد المجتمـع ، وما بات حريصًا على مهادنته ، فأعجب "بالشطار" فقلـدهم فـترة مـن الزمان في لباسهم " مصففًا شعره، موسعًا كمه ، يجرر ذيلـه – عـلى حـد قوله في مجونياته ... يجرر أذيال الفسوق ولا فخر "...

وقد حاول تحصيل كثير مـن المهـارات ، ليلفـت الأنظـار ، إذ كـان مولعًا بـالعرض والظهـور " فـتعلم العـزف عـلى العـود، ودق الـدفوف لتسلك مسالك المستمعين والقيان بين طلاب الملاهـى والفنـون، وتعلـم التنجيم، وتعلم اللغة، وتعلم الفقه، والحديث والقراءة والتجويد، ونظـم الشعر، وروى قصائد الفحول ، وتعلم العطـارة، والتجـارة، والأخبـار، والأنسـاب، وتـردد عـلى معاهـد الـدرس ومعاهـد الـرقص، والسـكر، والمجون، وتداول هذه الأدواء كأنما يخلع لبـاس دور مـن أدوار التمثيـل، ليلبس غيره على المسرح ، لكنه مسرح الحياة[2]

1الحسن بن هانىء صـ77
2الحسن بن هانىء صـ58

تجربته الإبداعية بين المجون والتوبة

إذا صح أن الصورة الشعرية تجميعٌ لمخزون الشاعر الثقافي ؛ وتشكيل مردود لما اختزنه وما وعاه قبل حالته الإبداعية ، فإن حالته النفسيه وفكره المسيطر، وحسه الوجداني وجملة مؤثرات ذات محفزات قمينة بتخصيب إبداعه ، فإذا كان حزينًا متشائمًا ، أو سعيدًا متفائلاً، تبدى ذلك من خلال قاموسه اللغوي، وصوره الشعرية لنجد تراكمًا في طبقات بما يدلل علي خصوبة إبداع أبي نواس.

وجواذب أبي نواس للمجون والخلاعة شهيرة معروفة . وهناك دوافع لإعلان توبته ، وخلعه الخلاعة والتهتك؛ ولبس مسوح التدين والزهد، كذلك كانت هناك مظاهر دالة على الانسلاخ من المجون الضيق، والرجوع إلى مندوحة الإيمان الفسيحة .

أولاً : المجون:-

الماجن عند العرب: الذى يرتكب المقابح المردية، والفضائح المخزية، ولا يمضه عذل عاذل ، ولا تقريع من يقرعه، والمجن: خلط الجد بالهزل [1] وقد شاع الانحلال الأخلاقى في منتصف القرن الثاني الهجري وكان يمتد ثم ينحسر في مد وجزر متوالى لعوامل معروفة ومما " ساعد في اتساع هذه الموجة شيئان : ظهور مذاهب شاكة بلبلت الأفكار ، وعلى رأسها مذهب الزنادقة والدهريين ، ثم انتشار دور القيان التى كانت

1لسان العرب مادة مجن

تعرضهن للبيع [1] وما كن يشعنه من الجرأة والخلاعة وأتيان "الأعمال المخلة بالآداب العامة والعرف والتقاليد دون تستر أو حياء[2]- على حد قول د محمد مصطفى هدارة:-

" تراوحت حياة أبى نواس بين إباحية الشطار، وإباحية الشواذ، إضافة إلى خصاله الذاتية، وسماته النفسية، وكل هذا دفعه إلى زمرة المجان والإباحيين وشذاذ العادات، المنكببين على المتع على اختلاف أنواعها، حتى إنه دعى للتحلل واقتناص اللذات بقوله:-

بادر صبوحك ، وأنعم أيها الرجل واعص الذين بجهل في الهوى عذلوا

واخلع عذارك اضحك كل ذى طرب واعدل بنفسك فيهم أينما عدلوا

نال السرور، وخفض العيش في دعة وفاز بالطيبات الماجن الهزل[3]

وقد تبدى هذا المجون في عدة مظاهر يمكن تلخيصها في النقاط التالية:

المجاهرة : أباح المجتمع العباسي كثيراً من المحاذير، الفكرية، والسلوكية، وتنوع الغارقون في هذه المحاذير بين مستخف بالليل، وسارب بالنهار.

وكان أبو نواس يباهي بأنه فارس الميدان، وزعيم الغاوين ، إذ يسرد قصصه الخمرية بإبداع وإتقان؛ وأعانه على ذلك أمران، الأول: وجوده في

1الفن ومذاهبه في الشعر العربي، دار المعارف ، صـ 100
2اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجرى ، صـ 214
3الديوان ص 409، ولا يخفى الظلال القوي لبيت بشار
من راقب الناس مات غمًا وفاز بالطيبات الفاتك اللهج

معية المتهتكين المشهورين من أمثال: "والبة بن الحُباب، مطيع بـن إيـاس، حماد عجرد، قاسم بن نقطـة، الحسـين بـن الضـحاك، مسـلم بـن الوليـد وغيرهم ممن يعقدون المجالس..لهوًا وشربًـا، وعربـدةً، عاقـدين مبـاراة في إنشاء الأشعار ورواية أشعار القدامى والمحدثين.

أما الآخر: فهو نشأته المهينة – حيث سـمعة أمـه ونظـرة المجتمـع، فضلاً عن امتلاكه ظاهرًا جميلاً وباطنًا يثير علامة استفهام؛ تمثلت كما قال – العقاد – في عدم تسويته في تركيبتيه النفسية والجسمية؛ وكان ذلك مـن دوافع لجوئه لمهاجمة المجتمع، فدعا للإباحية، واتخذ من نفسه مـثلاً عمليـاً لدعوته فكان فارس الميدان غير منازع ومن أتى بعـده احتطـب في حبلـه. فأوغل في شرب الخمر إذ وجد فيها ضالته المنشودة، فالشاربون مغييبون فلن يكن هناك داع للخجـل مـن أصـله، أو حـافز للمفـاخرة فيكشـف المستور **مما جعله يترنم**:-

راح الشـقى عـلى الربـوع يهـيم   والراح في راحى، ورحت أهيم [1]

وكان لنشـئته مـع صـحبته الأشرار- الـذين علمـوه شرب الخمـر، والغزل بالمذكر والتفنن في نهل الملذات- لها الغلبـة عـلى مـا حصـله مـن علوم وآداب إسلامية بداية حياته، فبعـد أن حصـل مـن علـوم الحـديث والتفسير الكثير؛ أغري به فانسلخ عنها، وانخرط في الموبقات، ولا شـك في أن وجعه من فقد أبيـه وسـمعة أمـه ، كـان وراء انغماسـه في المجـاهرة

1الحسن بن هانىء 79

باللذات، والجرأة على حرمات الله، وحدوده، فالمعروف أن الترف مفسدة إلا من رحم ربى.

أنـــــا والله مشـــــــتاق إلى الحـــــيرة ، و الخمــــــر
وأصـــــوات النـــــواقيس عــــلى الزيـــرات بــــالفجر
ومشـــــــتاق إلى الحانــــــات يـــوم الـــذبح والنحـــر[1]

فاختياره لتلك المواقيت التى يجب فيها الطاعـة ليعصــي فيهـا، دال على نفس مقلقلة تسد بإرادتها طـرق الهدايـة والرشـاد، رانيـة إلى الغوايـة والعصيان، بل إنه نطق بذلك صراحة، فها هو ذا يجاهر برغبتـه المتجـاوزة للخلق والدين والأعراف الإجتماعية **حين قال:**

لاح إشراق الصــــــباح فــــاطرد الهــم بـــراح
لســـت بالتـــارك لـــذا ت النــــدامى للصـــلاح
قـــل لمـــن يبغـــي صـــلاحي بعـــت رشـــدي بطلاحـــي
أطيـــب اللـــذات مـــا كـــا ن جهـــارًا بافتضـــاح[2]

2- استصحاب المغنين والمغنيات وقد لخص عيشه ولذته في استصحاب المغنين واحتساء الخمر والندمان **يقول:-**

إنـــــما العــــيش ســـماع ومــــــدام ونـــــدام
فــــإذا فــــاتك هـــذا فعـــلى الـــدنيا الســـلام

1الديوان صـ 165
2الديوان صـ 98

هذا ويرى د محمد مصطفى هداره أن مقدرة أبى نواس على الوصف التفصيلى كانت تستمد جِدتها من عدة روافد..، المرائى المحيطة، والطبع المواتى، وحياة الترف التى يحياها، والأصحاب المزينين للذات، والمعاصي، والمشجعين لكل ما ينطق فاهه [1] **فحينما قال:**

لا تبك ليلى ولا تطرب إلى هند	**واشرب على الورد من حمراء كالورد**
كأساً إذ انحدرت من حلق شاربها	**أجدته حمرتها في العين والخد**
فالخمر ياقوته، والكأس لؤلؤة	**من كف جارية ممشوقة القد**
تسقيك من عينها خمراً، ومن يدها	**خمراً فما لك من سُكرين من بد**
لى نشوتان وللندمان واحدة	**شيء خصصت به من دونهم وحدى**

خر اصحابه له سُجداً إعجاباً وانبهاراً لنظمه ، مما شجعه وجرأه على المضي في هذا المضمار، مصطدمًا بالمجتمع المسلم المحافظ، فلم يك **"أوسكار ويلد"** محتاجاً لإعلان التحدى بشرب الخمر إذ إن المجتمع كان يبيحها ويتيحها، أما في المجتمع العربي، فقد تغنى أبو نواس بالخمر بشكل صادم، فرد الفعل هذا كان يبهجه، ويثير في نفسه نشوة المخالفة وإحساسًا بالفرادة ناتجًا عن المجاهرة. تلك المجاهرة لامست سمة إنسانية لديه ، فهو يريد أن يشرك الناس في لذته –احتساء الخمر– ليكونوا جلسائه ويرى أنه بمجرد مجالستهم صار بينهم نسبًا وكأن الخمر في مخيلته هى أقوى العلاقات وأشد الأنساب، وشركاؤه حازوا على صفات مميزة من الرفعة وبياض الوجوه والشجاعة.

1- اتجاهات الشعر في القرن الثانى الهجرى 519 بتصرف.

والقوم إخوان صدق بينهم نسب　　　من المودة ما يرقى له نسب

تراضعوا درة الصهباء بينهم　　　وأوجبوا لنديم الكأس ما يجب

لا يحفظون على السكران زلته　　　ولا يريبك من أخلاقهم ريب[1]

ويقول:

وفتية كمصابيح الدجى غرر　　　شم الأنوف من الصيد المصاليت

صالوا على الدهر باللهو الذى وصلوا　　　فليس حبلهم منه بمبتوت

عالج الزمان بأفلاك السعود لهم　　　وعاج يحنو عليهم عاطف الليت

نادمتهم قرقف الأسفنط صافية　　　مشمولة سبيت من خمر تكريت[2]

3- **تحسين شرب الخمر**: - فقد كان يتلذذ بذكرها ، وذكر كل ما علق بها، ابتداء من زرع الكرمة، وانتهاءً باستعراض كل مراحلها،وهو يجاهر ويدعو الناس لرؤية مجاهرته، ولا يمضه تقريع لائم، ولا زجر ناصح، وكان يمشى وفق خطواته المرسومة **يقول:**

ألم ترنى أبحت اللهو نفسي　　　ودينى وعكفت على المعاصي

كأنى لا أعود إلى معاد　　　ولا أخشى هنالك من قصاص[3]

و كان غمز نسبه دافعًا رئيسًا لإدمانه الخمر ، إذ كان العصر مولعًا بانتساب أفراده إلى قبائلهم إضافة لأنها شراب الملوك، كأجداده من الفرس، منحيًا الفخر بأبويه لأنهما ليسا مناط فخر. **يقول مفاخرًا بأجداده:**

وإذا أنادم عصبة عربية　　　بدرت إلى ذكر الفخَّار تميم

1الديوان صـ 33

2-المرجع السابق صـ 68.

3- الديوان صـ 249- 250.

وبنو الأعاجم لا أحاذر منهم   شراً فمنطق شربهم مذموم

وجميعهم لي حين أقعد بينهم   بتذلل وتهيب مرسوم[1]

وربما يرجع ذلك انتهاجاً للنهج – الذى وافق طبعًا مواتيًا- فالخمر شاع في الخواص والعوام، فكانت قدمه كلما تسير تغشى مجالس الخمر، ونظرًا للعين اللاقطة ، والموهبة المتقدة ، التى وافقت دخيلة ترنو لنسيان أذى لحقها – عقدة أمه – أو تأمل في تحقيق أملاً، خيالاً بالسكر لم تسطع تحقيقه صحوًا بالإفاقه. فلم يجد اللسان بداً من التغنى بالمرائى. يقول متحدثًا عن الخمر:

اثن على الخمر بآلائها   وسمِّها أحسن أسمائها

لا تجعل الماء لها قاهراً   ولا تُسلطها على مائها[2]

وإظهاراً لتقديسها، وسموها، فالملوك يسجدون لها، وهو لا يصرح بأسمائها:

ومدامةٍ سجد الملوك لذكرها   جلّت عن التصريح بالأسماء[3]

ويتمادى في تهتكه ومجاهرته داعياً الناس لاعتناق مذهبه...

فإن قالوا حرام ، قل حرام   ولكن اللذاذة في الحرام [4]

فالخمرة لها عظيم التاثير عليه، فلا يملك نفسه إزاءها، بل يصاب بالشلل العقلى، والهياج النفسي ويقر بذلك قائلاً:

أدر علينا، أدر معتقة   يرق منها صفيق اسلامى

كأنها والمزج يقرعها   شهاب دجن يلوح قدامى[5]

1- المرجع السابق صـ350.
2ديوان أبى نواس صـ 13
3ديوان أبى نواس صـ 704
4المرجع السابق صـ 35
5الديوان 339

ولعل أبو نواس يقتفى أثر "الخاركى" في ذلك، **فقد كان مجاهرًا يقول أبو نواس:**

نعم شبابك بالخمر تشرب كما يشرب العتيق، ولا الأغمار من ماذى

ثم يثنى بنصيحة؛ البعد عن ذوى المصلحة المقبلين في حالة الغنى، المدبرين في الإملاق فيقول:

صل من صفت لك في الدنيا مودته ولا تصل بإخاء حبل جذاذ

يعوذ بالله إنْ أصبحت ذا عدم وليس منك إذا تثري بمعتاذ[1]

وقد تأثر به، وسمى أصحابه بمسمى الخاركى " عصابة المجان" يقول:

عصابة سوء لا يرى الدهر مثلهم وإن كنت منهم لا بريئًا، ولا صفرًا

إذا مادنا وقت الصلاة رأيتهم يحثونها، حتى تفوتهم سكرًا[2]

فهو هنا لم يرمِ المسؤلية عليهم أو يتنصل من إدراك ذنبها يقترفون "وإن كنت منهم لا بريئًا" لكنه يعترف أنه يقترف آثامه في صحبة تفعل بهم الخم أفاعيلها.

وإذ أنادم عصبة عربية بدرت إلى ذكر الفخار تميم

وبنو الأعاجم لا أحاذر منهم سّرا فمنطق شربهم مذموم[3]

فقد تميز أبو نواس في حديثه عن الخمر وتأثيرها، وقوتها، على أجسام الشاربين وعلى عقولهم. وظهر ذلك في قوله:-

جفا الماء عنها في المزاج لأنها خيال لها بين العظام دبيب

1-المرجع نفسه صـ 304.

2-الديوان صـ 149.

3-هذه الأبيات في طبقات الشعراء لابن المعتز ولا توجد في ديوانه.

فقد جعلها خيالاً ثم أوضح أنها تدب في العظام في صورتين متلاحقتين نتجتا عن جف الماء، وأوضح أن ذلك تم في المزاج.

وقد ذهب"إيليا الحاوى"[1] إلى مذهب تفسيرى لتلك النزعة الماجنة لديه؛ مغايرًا لما اجتمع عليه النقاد ،فإذا كان النقاد وقفوا من أبياته:

ألا فاسقنى خمرًا، وقل هى الخمر — ولا تسقنى سرًا إذا أمكن الجهر

فعيش الفتى في سكرة بعد سكرة — فإن طال هذا عنده قصر العمر

وما الغبن إلا أن ترانى صاحيًا — وما الغنم إلا أن يتعتعنى السكر

فبح باسم من تهوى ودعنى من الكنى — فلا خير في اللذات من دونها الجهر

فقد أجمع النقاد على أن أبا نواس رانٍ دائما للذة وإمتاع الحواس، لكن إيليا أتجه إلى أن هذا المجون المتخذ "الخمرة" منحًا (هى ليست خمرة حقيقية) وإنما هى خمرة وجودية تتطاول إلى خمرة وفلسفة عمر الخيام "[2] وهذا الرأى يناقضه أبيات لأبى نواس تدل على تمتعه وتلذذه بطعمها، ولم يتخذها وسيلة للزهد في الدنيا لاحساسه بقصر عمره يقول:

تسقيك من عينها خمرًا ، ومن يدها — خمرًا فما لك من سكرين من بد

لى نشوتان ، وللندمان واحدةٌ — شىٌء خصصت به من دونهم وحدى[3]

إضافة إلى اعترافه أن طبيعته يلائمها الحرام ، وأن الخمرة بالنسبة له شي ء حرام يهواه فيقول:

يلائمنى الحرام إذا اجتمعنا، — وأجفو عن ملائمة الحلال[4]

1-أبو نواس وقضية الحداثة صـ 72.
2- ثورة الخمريات ثورة الزهديات - محمد الصادق عفيفى صـ27 وما بعدها بتصرف - دار الفكر طـ1 1971.
3-ديوان أبى نواس صـ 27 .
4-الديوان صـ 307.

فالأبيات دالة على عشقه للخمر فهى دنياه اللا نهائية، ومحرابه المقـدس، وقـد أوضح د طه حسين في **"حديث الأربعاء"** أن القرن الثانى كان حقـل حـاوى لكـل مظاهر المجون، وأسباب ذلك متعددة، من الغزو الفـارسي بـالفكر، ونهـج الحيـاة، وكان لانتقال الخلافة إلى العراق أثر كبير إذ تأثر الأدب بالحضارة والنهج الفـارسي، حتى بلغ التأثر للمأكل والمشرب، وتسرب التعلـق بالمسـكرات إلى كـل الطبقـات، كذلك انتشر الفكر الرافضـى بشـكل فـج، ودعـاوى لتحلـل المجتمـع مـن القـيم والأخلاق الإسلامية، وبث روح القدرية[1] تلك الروح تأثر بها أبو نـواس وحـاول تبرير مسلكه غير آبه يقول:

فدعي معاتبتى على تـرك التقـى	**وتعـــتبي فيــه عـــلى الأقــدار**
لو كان لى قـدر يسـاعد صرفـه	**لرأيت كيف تعففي ووقـارى**[2]

وقد أثرت فيه هذه المحاصِرات الاجتماعيـة، والفكريـة، والحضـارية، تـأثيرًا بينًا.

4- **الاستهانة بالشعائر المقدسة** :لميك أبو نواس يجـد حرجًـا في حكـي مـالا يليـق سواء أكان ذلك حقيقة أ م خيال الشعراء، **ولعل هذا ماثل في قوله:**

وعاشـــقين التـــف خـــداهما	**عنــد التثـام الحجــر الأســود**
فاشـــتفيا مـــن غـــير أن يـــأثما	**كـــأنما كانـــا عـــلى موعـــد**
لـــولا دفـــاع النـــاس إياهمـــا	**لمـــا اســـتفاقا آخـــر المســـند**
ظلنـــا كلانـــا ســـاتر وجهـــه	**مـــما يـــلى جـانـــبه باليـــد**
نفعـــل في المســـجد مـــا لم يكـــن	**يفعلـــه الأبـــرار في المســـجد**[3]

1من ص3: 80 بتصرف

2ثورة الخمريات صـ 49

3المرجع السابق صـ 233

فالأبيات وإن كانت في معشوقته **"جنان"** إلا إنها تعكس تهتكاً وفجوراً يوضح جرءته فهو كما قال عنه العقاد: "حليف نزوة، وأسير شهوة، وجليس شذوذ وانحراف، فهو يحب كل جميلة، ويعشق كل مليحة، ويتوق إلى معنى الأنوثة في عجبه واكتماله، بل في تبذله وتهالكه[1] والصورة كفن نقيمه صورة موحية إذ التقى عاشقان لقاءً حارًا، لكن تفصيل الصورة وتصعيدها من خلال تتابع الجزئيات وإبراز التفاصيل؛ وجود شعور الحب، التقاء به تلامس، هذا التلامس فجأة بلا إعداد فستسلما وكأنهما على موعد، ودبرا ما سيحدث وأعدا له عدته ، وفقدا الوعى، دفع الناس لهما ، استفاقتهما، الاستخفاء والتستر .. وكان ذروة التصعيد أن تلك الأحداث المتوالية في المسجد، وعند الحجر الأسود، والطامة الكبري المفاخرة بفعل أتياه وهما يعلمان أن الأبرار لم يكن ليقدموا على تلك الفعلة الشنعاء. وكثر في تلك القطعة توالى الأفعال مما يدل على تجدد حدوث دفع الناس لهما، وتجدد حدوث إصرارهما على الاستكمال مستترين من قبل الناس "مما يلى جانبه باليد" لئلا يفطن أحد لتعمدهما تلك الإطالة في استلام الحجر الأسود.

5 – **الاستهانه بأسس الإسلام**: والتهوين من التزامها والإتيان بها **يقول:**[2]

قل للعذول بحانة الخمَّار	**والشرب عند فصاحة الأوتار**
إنى قصدت إلى فقيه عالمٍ	**متنسك ، حبر من الأحبار**
متعمق في دينه متفقهٍ	**متبصر في العلم والأخبار**
قلت : النبيذ تُحلَّه؟ فأجاب: لا	**إلا عُقاراً ترتمى بشرار**
قلت : الصلاةُ ؟ فقال فرضٌ واجبٌ	**صلِّ الصلاة، وبت حليف عُقار**
اجمع عليك صلاة حولٍ كاملٍ	**من فرض ليلٍ، فاقضه بنهار**

1أبو نواس عباس محمود العقاد ص130 دار نهضة مصر
2الديوان صـ 165

قلـتُ: الصـيامُ؟ فقـال لي: لا تنـوه ... واشـدد عُـرى الإفطـار بالإفطـار

قلـت: التصـدق والزكـاةُ؟ فقـال لي ... شـــيءٌ يُــــعد لآلـــة الشطَّـــار

قلت: المناسكُ إن حججتُ؟ فقال لي ... هـــذا الفضُـــولُ، وغايـــة الإدبـــار

لا تــــأتين بــــلاد مكـــــة محرمـــاً ... ولـــو أن مكـــة عنـــد بـــاب الـــدار

فهذه الأبيات تخطت- في السخرية والاستهانة بأسس الإسلام - كل حد، إذ أسند ما يقارفه أى فتوى شرعية "إنى قصدت إلى فقيه عالمٍ متنسك، فهو ليس فقيه فقط بل إنه "حبر من الأحبار" بما هو معروف عنهم من الانقطاع للعبادة وزهـدهم في الحلال فما بالك بالبعد عن الحرام ،ثم تابع ذلك ليبين قوة حجته في اتيان ما أتـى، فها هو ذا الفقيه المتنسك لا يحل الخمر على إطلاقه: إلا لو كانت زاهيـةً صـفاءً مثـل الشرر، والناسك في فتواه يأمره بارتكاب الواجب والحـرام **"صـل الصـلاة"** **"بـت حليف عقار"**، بل يترخص في أمره بأتيان الفرض من جمع صـلاة حـول، والتحـرر من التزام الوقت" من فرض ليلٍ، فاقضه بنهار"ويسأله عـن الصـدقة والزكـاة فـلا يشجعه على إنفاقها، فالشـطار أو المسـتغليين ممـن لا يعملـوا ينتهبوهمـا، ويرتكنـوا عليهما، أو شطارة ومهارة منك أن تتنصل ولا تـنفقهما، ويسـأله عـن شـعائر الحـج فيجيبه بأنه فضول وتزيد في العبادة، وإدبار للملـذات ثـم يصـعد في فتـواه الخبيثـة وينهاه عن إتيان مكة ولو كانت "عند باب الدار" فهل الباعث على ذلك الاستهزاء بالفروض، أو الاستهانة وذلك بتسفيهها، أو التظرف، والتحرر مـن ربقـة اقـتراف المحرم إلى متسع الالتزام بفتوى الناسك واقتفاء أثر كلامه. بل إنه يسخر مـن اللـبن على ما له من توقير لدى المسلمين يقول:

إذا راب الحليـــب فبُـــل عليـــه ... ولا تحـــرج فـــما في ذاك حـــوب

فأطيـــب منـــه صـــافية شـــمول ... يطـوف بكأسـها سـاقٍ أَديـب

أقامـــت حقبـــة في قعـــر دَنَّ   تفـور ومـا يحـس لهـا لهيـب

كـأنَّ هـديرها في الـدَّنّ يحكـي   قـراة القـس قابلـه الصـلي

يمـد بهـا إليـك يـدا غـلام   أغـن كأنـه رشـا ربيـب

ومما زاد الأمر سوءًا شططه بأعلانه إيمانه بالدهر في قوله:

يـا نـاظراً في الـدين مـا الأمـر؟   لا قـدرٌ صـح ولا جـبرُ

ما صح عندي من جميـع الـذي   يُـذكر إلا المـوت والقـبر

فـاشرب عـلى الـدهر وأيامـه   فـإنما يُهلكنـا الـدهر[1]

فهذا الإعلان السافر إبَّان مجونه وانطلاقه، تنصل منه بعد ذلـك حيـث إنـه- بعد رحلة الشك التي أفضت إلى دهريته – أبرز هذه الخصوصية العقدية بجلاء من خلال القيمة الأسلوبية القصرية أو الحصـرية الماثلة في (فإنما يهلكنا الدهر) ثـم نـدم على ذلك المسلك.

6- **التنصل من الخلق الإسلامي**: حيث بـدأ بجـلاء مـن خـلال دعوتـه إلى تضـييع الأمانة، والجبن عن الدفاع ،عن الأوطان يقول:-

قلت: الطغاة: فقـال لي لا تغـزهم   ولـو أنهـم قربـوا مـن الأنبـار

قلت: الأمانة هـل تـرد؟ فقـال لي   لا تـردد القطمـير مـن قنطـار

لا هُـمَّ إلا أن تكـون مُـضـمناً   دينـاً لصـاحب حانـة خمّـار

فـاردد أمانتـه عليـه، ودينـه   واحتل لذاك، ولـو ببيـع إزار[2]

1- ديوان أبى نواس 218.

2-المرجع نفسه 201.

في هذه الأبيات يستكمل الجرأة على أوامر الدين وأخلاقيات المسلمين فبينما المعروف أن كلمة حق تقال عند إمام جائر خير كما قال ﷺ: (أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر)[1]، نجده يدعو للتهافت والتخاذل والتخلية بين المتجبرين والطغاة والأوطان "قربوا من الأنبار" وبينما عظم القرآن الأمانة: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا .... ﴾ [سورة الأحزاب: الآية 72] وحث رسول الله على تأديتها "أدِّ الأمانة من أئتمنك ولا تخن من خانك"[2] وجعل خيانة الأمانة من علامات النفاق: "آية المنافق ثلاثة إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أُؤتمن خان "[3] لكن شاعرنا لم يزلْ يتنصل من خلفه الإسلامي، فنجده يحض على التهامها، ولا يرد أبسط الأشياء التى لا قيمة لها "القطمير"، ثم ينزلق لهوة التناقض فهو في المطلق يدعو لتضييع الأمانة إلا إذا كانت الأمانة والدين لصاحب حانة فيجب الرد، ولو كلفه ذلك بيع إزاره. ولعل هذا يصادق على استمراره في إشباع متطلباته المادية دون الاكتراث بحدود الشريعة.

وربما أوضح رؤيته تلك باعتبار أن الخمار "صاحب حانة" من الشخصيات المهمة المؤثرة في حياته التى يحرص على رضاها.

7- **الاستهانة بالحرمات:** ونذكر منها علي سبيل المثال لا الحصر: اعترافه بالسكر في المسجد، وتضييع مهابته، وجعله وكراً للخلاعة والمجون حيث إنه دلف للمسجد "الجامع" بالبصرة وجعله مركزاً لمجونه وهنا نراه يقول مفاخرًا بمجونه:

لنا بالبصرة البيضا ء أُلَّاف وإخوان

بها ليل، مساميح لهم فضلٌ واحسان

1- رواه الترمذي، سنن الترمذي ج8 ، ص 345 .

2- شرح بلوغ المرام لعطية سالم، ج8 ، ض 212 .

3- رواه البخاري، في كتاب الإيمان، باب علامة المنافق، ومسلم في كتاب الإيمان . باب خصال المنافق.

كــــأن المســـــجد الجامــــــــ ع عنـــــد الليـــــل بُســـــتان

وفيـــه مـــن طريـــف النبـــــ ت والأزهــــــــــــــارألوان

لـــــــه في خـــــــده خـــــالٌ بــــــه الألبـــــابُ فُتـــــان

وقـــــــد جرعنـــــي كأســـــاً لهـــا في القلـــبِ نـــيرانُ(1)

هذا الكلام العاكس لنفس مستهينة بالمقدسات ، غير متورعة عـن التطـاول على بيت من بيـوت الله إذ اتخذتـه وكـرًا للمجـون لا مـوئلاً ومـآلاً للعبـادة ودعـم الوشائج الروحية.

8- الغزل بالمذكر ..فلصقت هذه الرؤية الشاذة وقد اشتهر بها شـهرة واسـعة، إذ كان الشعراء يستصحب بعضهم بعضـاً لمنادمـة الغلـمان والائتنـاس بهـم وقـد ساعد - على تفشي تلك الظـاهرة مجتمعـه العبـاسي المخـتلط؛ فقـد كـان للثـراء الملحوظ والحرية التى كان يرفل فيها الشعراء وعلية القوم، اليد الطولى في إشاعة تلك الآفة فقد ملوا المعروض من النساء ورنـوا إلى الغلـمان، ولاسـيما أن البيئـة كانت تساعد على انتشار تلك الفاحشة؛ ويعـد ابـو نـواس الأب الروحـي لهـذا النوع من الغزل، فقد فتن بالغلمان وافتخر بمواصلتهم يقول:

قـــل لـــذا الوجـــه الطريـــر ولـــــذا الـــــردف الـــــوثير

ولمغــــــــلاق همـــــــومي ولمفتــــــــــــاح سروري

والـــــذى يبخــــل عنــــى بقليـــــــل مـــــن كثــــير

يـــا صـــغير الســـن والمـــو لـــــد فى عقــــل الكبـــير

وقلــــــيلاً فى التلاقـــــى وكثــــيرا فى الضــــمير

1الديوان صـ711

لم تغضــبت عــلى عــب دك في خطـــب يســـير

فـــارض عنـــى بحيـــاتى يـــا حيـــاتى وأمـــيري

وهناك أبيات حادة الانفعال يمتلىء بها ديوانه:[1]

تشير إلى أن هذا التهتك والغرام الشاذ كان حقيقياً،و تولد من نفس ملتاعة هامت غراماً بالشذوذ ، وأطرافه (غلمان-شرب خمر –مجالس غناء- مصاحبة أهل اللهو والمجون- البعد عن الصلاح وأهله).

الدعوة إلى انتهاب اللذات والتوجس من صدق الثواب والعقاب يقول:

ورأيت اتيـاني اللـذاذة والهـوى وتعجلى من طيب هـذى الـدار

أحرى وأحزم مـن تنظّـر آجـل علمـي بـه رجـم مـن الأخبـار

مـا جـاء مـن أحـد يخـبر أنـه في جنـة مـذ مـات أو في النـار[2]

وغيرها من الأشعار الدالة على الاستخفاف. والتهتك، وهى أبيات تعكس توجهه الأولي في الحياة، من الرغبة في حب العاجلة، واقتناص متعتها المُعَايَنْة الحاضرة القصيرة، لا الانتظار للمتعة الغائبة الآجلة المستديمة، بل تأرجح يقنه بتحققها "**علمي به رجم من الأخبار**" ثم يسوق حجة لذلك المسلك أن المعلومات والخبرة بالموت وما بعده معدمة:

مـا جـاء مـن أحـد يخـبر أنـه في جنـة مـذ مـات أو في النـار

وبعد : فإن ما سقناه من نماذج شعرية جاءت دالة وكاشفة عن انحرافات الشاعر الأخلاقية والعقدية؛ بما يدلل على أننا أمام شاعرية ترجمت كل ما سبق بحق.

1- ص 238-275-303-307-318.
2- الديوان صـ231.

توبة أبي نواس

تعددت التعريفات التى جاءت في التوبة؛ وأقربها لما نحن بصدده هى: الرجوع إلى الله وإدراك النفس أنه لا فرار من الموت وملاقاة الجزاء على ما بدر من أعمال إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، فيؤوب الإنسان متيقنًا من بغضه للمعاصى، مع العزم الأكيد على عدم العودة إلى لذنب مرة أخرى.

وبعد أن انغمس الشعراء -ومنهم شاعرنا - في الملذات، وأجترأوا على المحرمات وتجاوزوا المحذورات ،فاضت أنفسهم رغبة في الرجوع عن الباطل، ورهبة من ملاقاة الله؛ فزهدوا في الملذات .. المحرم والمباح.

ولم تك تلك الثنائية قاطعة الحدود بيِّنة الفواصل ؛ فقد يجمع في فكاهة تمور عذوبة بين الضدين مسلكًا حياتيًا وإبداعًا شعريًا ، فها هو ذا يتصدر مشهدًا وينتزع الإعجاب، فقد حكى "ابن المعتز": اجتمع أبو نواس، ومسلم بن الوليد، والخليع، وجماعة من الشعراء في مجلس، فقال بعضهم: أيكم يأتيني ببيت شعر، فيه آية من القرآن وله حكمه؟ فأخذوا يفكرون فيه، فبادر أبو نواس فقال:

وفتية في مجلس وجوههم ... ريحانهم قد أمنوا الثقيلا

دانية عليهم ظلالها ... وذللت قطوفها تذليلا[1]

فتعجبوا وأُفْحِموا ولم يأت أحد منهم بشيء، فتذبذبه بين العبث والالتزام لم يحل دون تسرب أي القرآن الكريم إلى نظمه، فالتركيب يستظل بقوله تعالى: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ [سورة الإنسان: الآية 14] بينما الألفاظ منتخبة بعناية "فتية" تدل على شرخ الشباب، وقوته وعنفه في مجلسه، الجار والمجرور يوحى بتجمع مترفين لا شأن لهم بتنغيص العيش ومكابدته، بل منصرفون للذاتهم ، يؤيده "وجوههم – ريحانهم" فهم معطرون رغدون، ليس هذا فحسب بل هم في

1طبقات الشعراء ابن المعتز صـ207

مجلسهم حكرًا عليهم آمنين فيه، لا يقتحمه لا يكدر صفوهم أو يقتحمه عليهم ثقيلاً.

"فالزهد الذى يعرفه الإسلام ويحترم أهله ويكرم أربابه هو الزهد مع الوجد، والعفة مع الاستطاعة، والتواضع مع العلو، والتسامح مع القدرة والقوة"[1]. وقد تضافرت أسباب دفعت أبا نواس للتوبة، فبعد أن غاص في الملذات والمنعمات، عافت نفسه، فخلع رداء الفجور، وارتدى لباس الزهد واعتزل الناس تائبًا، وحينما زهد نظم في هذا الغرض، يروى أبو مخلد الطائى: "جاء أبو العتاهية إلى عندى فقال لي: إن أبا نواس لا يخالطنا، وقد أحببت أن تسأله ألا يقول في الزهد شيئًا فإنى قد تركت له المديح، والهجاء، والخمر، والرقيق، وما فيه الشعراء، وللزهد شوقى ... فبعثت إلي أبي نواس فجاء إلى وأخذنا فى شأننا، وأبو العتاهية لا يشرب النبيذ معنا، فقلت لأبى نواس، إن أبا إسحاق من قد عرفت فى جلالته وتقدمه، وقد أحب أنك لا تقول في الزهد شيئًا .. فوجم أبو نواس عند ذلك، وقال: يا أبا مخلد قطعتَ علي ما كنتُ أحبُّ أن أبلغه من هذا، ولقد كنت على عزم أن أقول فيه ما يتوب به خليع، وقد فعلت ولا أخالف أبا إسحاق فيما رغب فيه[2] ولعل ذلك التوقير لأبى العتاهية ورغبته في إفساح المجال لأبي نواس ليصول ويجول في هذا الغرض جاء نابعًا من صحبة ومودة قديمة " فقد ربط بينهما التشابه في هوس الإنحراف – النسب المدخول، لذا شبا الإثنان وبينهما روابط ظلت كامنة ولها قدرها..

يقول العقاد: إن أبا العتاهية (كان من الموالي ، وكان في شبابه على ذي المخنثين، وكان هو معاصره الوحيد، من الشعراء الذى صافاه ولم يقاطعه أو يترفع عنه)[3] وقد انخرطا فى المجون ثم تابا ... والتوبة لم تأخذ عند أبي نواس مسارًا

1- الأدب الصوفي في مفهوم جديد_ عبد الكريم الخطيب صـ 10 سلسله الثقافة الإسلامية 1965.
2- الحسن بن هانىء 124.
3- المرجع السابق 113.

واحدًا..، بمعنى أنه لم يتحرر من ربقة المجون بمتطلباته وينخرط وسط التائبين بنضباطهم في قرار واحد بل ظلت تجاذبه نفسه تارة عاصية، وتارة مطيعة وفي هذا يقول:

أفنيت عمرك، والذنوب تزيد	**والكاتب المحصى عليك شهيد**
كم قلت لست بعائد في سوءةٍ	**ونذرت فيها، ثم صرت تعود**
حتى متى لا ترعوى عن لذة	**وحسابها يوم الحساب شديد**
وكأني بك قد أتتك منيةٌ	**لا شك أن سبيلها مورود**[1]

فالنفس منضوية على يقين حتمية الإياب ، فبعد الرتع فى الملذات، ينتفض معلنًا الإياب مستحضرًا قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [سورة الزُّمَر: الآية 53] فما بين الرغبة والمنعة قال متأرجحا بين الإغراء بالمعصية، والدعوة للتوبة:

تكثر ما استطعت من الخطايا	**فإنك بالغٌ ربًا غفورا**
ستبصر إن وردت عليه عفوا	**وتلقى سيدا ملكا مجيرا**
تعض ندامة كفيك مما	**تركت مخافة النار السرورا** [2]

فنجد اعترافه بثقل المعاصى التى ارتكبه، والرغبة في التوبة الصادقة؛ حيث إن بابه المفتوح هوما يجعله مستريح البال، كذلك نجد ظلاً لقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [سورة النساء: الآية 110] فيقول متأثراً:

1- الديوان صـ619.
2- الديوان 730.

دب فيّ الفنـــاء سُــفلاً وعلــواً وأراني أمــوت عضــواً فعضــوا

ليس مــن ســاعة مضــت لى إلا نقصـــتنى بمرهـــا بي جـــزوا

ذهبــت شرتــى بجــدة نفســي وتـــذكرت طاعـــة الله نضـــوا

لهــف نفســى عــلى ليــالٍ وأيــا مٍ تملّتـــهن لـــعبا ولـــهوا

قــد أســأنا كــل الأســاءة يــا ر ب فصفحًا عنــا إلهــى وعفــوا[1]

وقد ترجع أسباب هذه التوبة إلى عدة عوامل، من أهمها- كما ورد في شعره – ثلاثة أسباب يمكن تلخيصها:

الأول: الحب والحرمـان عـاش أبـو نـواس عاشـقاً ولهًـا، تتبـدل بـين يديـه المعشوقات والمعشوقين، ولكنه يقع تحت رحمة معشـوقة تكيـل لـه صـنوف الهجـر، والإهمال، واللامبالاة، فيجد الحياة بدونها خواءً وفراغًا فيزهد ويستشعر أن الحيـاة بلا فائدة وهنا يقول:

الحـــب داء مـــا بُـــلى بمثـــل حرقتـــه القلـــوب

والحـــب لـــيس لـــه ســـوى مـــن قـــد كلفـــت بـــه طبيـــب

حيث إن تأرجحه ما بين المنح والمنع ؛إنما يُشكل حالة نفسية ترددية ، جعلتـه أكثر حيرة في هذه التضادية غير المتكافئة..،

موت الأحبة شكل موت ألأحبة مؤثرًا قويًا ومحولاً هامًا في حيـاة أبي نـواس إذ فجعته الحياة بالفقد تلك الحقيقة التى اضطر أن يعبر عن إيلامها لنفسه حينما رثى والبة بن الحُباب[2] ساكبًا نفسًا ملتاعة لفقده:

1- الديوان صـ580.

2-الديوان 59.

فاضـــت دموعـــك ســـاكبة　　　جزعـــاً لمصـــرع والبـــه

لا تبعـــدن أبـــا أُســـا　　　مـــة ، فالمنيـــة واجبـــه

كـــل امـــريءٍ تغتالـــهُ　　　منهـــا ســـهامُ صـــائبه

كتـــب الفنـــاء عـــلى العبـــا　　　د فكـــل نفـــس ذاهبـــه

الأبيات مزج من شجو النفس وحزنها على صديقه، وحزنه على نفسه وذلك لتفهمه أن هذا مآل كل العباد ، فكل حيّ سيغتاله سهم صائب، وتجدر الإشارة إلى القول: إن ثقافته الإسلامية كانت حاضرة في البيت الأخير وبخاصة اقتباسه الرائع من قوله تعالى: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ [سورة الرحمن: الآية 26] .

الثاني: ظهور الشيب.. وفيه جزع الشاعر وقد ارتاع لظهور الشيب، إذ إنه علامة وداع الشباب، ورسول الموت الذى جاء ينذره بقرب دنو الأجل، فاعتذر لما بدر منه، إذ كان تحت صبوة الشباب فُغر به حتى داهمته كبوة المشيب فهجره الغواني من جملة مشاهد تغير الحياة من حوله ..، ننظر إليه وهو يقول:

لم يَثنني اللهـو عـن غشيان مَوردهـا　　　ولم أكـــن عـــن دواعيهـــا بصـــميت

حتـى إذا الشـيب فاجـأنى بطلعتـه　　　أقـبح بطلعـة شـيبٍ غَـير مَبخـوت

عنـد الغـوانى إذا أبصـرن طلعتـه　　　آذَنَ بالصـــرَّم مـــن ود وتشـــتيت

فقد ندمت عـلى مـا كـان مـن خَطـل　　　ومـــن إضـــاعة مكتـــوب المواقيـــت

أدعوك سـبحانك اللهـم فـاعفُ كـما　　　عفوت يا ذا العُلى عن صاحب الحوت[1]

يخبر أن الشباب ذاك الباب الواسع الذي دخل منه أى عـالم اللهـو والمجـون، وكان العجب العجاب الذى ساوره أن فاجـأه الشـيب دفعـة واحـدة، دون لـين أو

1- الديوان ص40.

هوادة، وككان الحصاد المر أن قطع كل علائق الود مع الغواني ..، لكن المحقـق هـو إقراره بالندم على ما فات ،والرغبةالصادقة في التوبة والعودة إلى الله .

ويستمر تيار العجب العجاب فيرى أن المشيب الذى لحقه ليس أمراً طبعيـاً و قاسمًا مشتركًا بين الناس وإنما هو الهوى وما قاساه منه و مما شيبه يقول:

نـال منـى الهـوى منـالاً عجيبًـا　　　وتشـكيت عـاذلى والرقيبـا

شبت طفلاً ولم يحـن لى مشـيب　　　غير أن الهـوى رأى أن أشـيبا[1]

والواضح أن الشاعر في تناوله لظاهرة الشيب التي داهمته يقر أمـرين: الأول مداهمته له منذ الطفولة ليعكس عاطفته السلبية تجاهه ..، الآخر: مناهضة الهوى له، حيث إنه بعوالمه المتشابكة كان ضده.

ثانياً: مظاهر التوبة:-

ولعل ممعن النظر في التوبة النواسـية -كـما وردت في شـعره – يلمـس أن لهـا مظهرين:

الأول: الدعوة إلى تلجيم اللسان، وكبح جماح النطق بالغـث مـن الكـلام..، يقول:

مـــت بـــداء الصـــمت خـــير　　　لـــــك مـــــن داء الـــــكلام

إنـــــما الســـــالم مـــــن ألـــــ　　　جـــــم فـــــاهُ بلجـــــام[2]

حيث يقدم حكمتين في البيتين السابقين وقد استخلصهما من تجاربه الحياتية.

الثانى: الإقرار بالتوبة والإخلاص فيها بالاستغفار ..،

يارب إن عظمـت ذنـوبي كثـرةً　　　فلقد علمـت بـأن عفـوك أعظـمُ

1- الديوان 275.
2- المرجع السابق 620.

إن كـان لا يرجـوك إلا محسـنٌ فـبمن يَلـوذ ويسـتجير المجـرم

أدعوك رَبِّ كما أمرت تضـرعاً فإذا رددتَ يـدي فمـن ذا يـرحم

مـالى إليـك وسيلة إلا الرجـا وجميـل عفوك ثُم إنـي مسلـم[1]

فقد ظهر من خلال جملة أساليب إنشائية – التوسلات إلى الله بالإخلاص والصدق في التوبة؛ لأنه المجير سبحانه وتعالى ومجيب الدعاء ومحقق الرجاء.

وهكذا تحول أبو نواس الداعي للخلاعة والمجون، والنهل من ملذات الدنيا ؛ إلى داعية للتوبة والاستغفارمن الذنوب، حيث يظهر الخلوص في النية، والصدق في التوبة بجلاء من خلال تحذيره نفسه قبل الأخرين من حساب الله وعقابه، منجيًا إياه، ومتوسلاً بالاستغفار والرجاء. هذا ويبدو التنويع ما بين الأساليب الإنشائية بدافع الترفق والترحم والتشفق والتوسل ..، والخبرية من خلال تصدير قاطرة حكمية – أمر حاصلاً هنا ، كان من شأنه أن قدم فائض دلالة بحق يقول:

سـبحان عـلام الغيـوب عجبـاً لتصـريف الخطـوب

حتـى متـى، يـا نفـس، تغـ تـرين بالأمـل الكـذوب

يـا نفـسُ تـوبى قبـل أن لا تسـتطيعي أن تـتوبي

واسـتغفري لـذنوبك الـ رحمـن غفـار الذنـوب

إن الحـوادث كالريـا ح عليـك دائمـة الهُـبوب

والمـوت شرع واحـد والخلـق مختلفـو الضـروب

والسـعي في طلـب التقـى مـن خـير مكسبة الكسـوب

ولقلـما ينجـو الفتـى بتقـاه مـن لُطـخ العيـوب[2]

1- الديوان صـ 618- زهديات أبى نواس أحمد الزبيدى صـ 69- 70.

2-ديوان أبى نواس صـ616.

هذا ولم يتوقف تيار التوبة المتدفق فنراه هذه المرة مناجياً ربه في ضراعة مبـدياً الانكسار والندم ، أملاً في غفران الله سبحانه وتعالى:

أيـا مـــن لـــيس لي منـــه مجـــير … بعفـوك مـن عـذابك اسـتجير

أنــا العبــد المقــر لكــل ذنــب … وأنــت الســيد المــولى الغفــور

فــإن عــذبتنى فبســوء فعــلى … وإن تغفــر فأنــت بــه جــدير

أفــر إليــك منــك وأيــن إلا … إليـك يفـر منـك المسـتجير[1]

لكن شيئًا لافتًا يجدر بنا ذكـره هنـا، وهـو سـلامة عقيـدة أبي نـواس متمثلـة في (حسن الظن بالله) جعلته يشيع الأمل بأن للعاصين متسعًا في عفـو الله وغفرانـه، فعفو الله عز وجل أكبر من أى ذنب:

يـــا كبـــير الـــذنب عفـــو … لله مـــــن ذنبـــــك أكـــــبر

أكـــبر الأشـــياء عـــن أصـــ … غـــر عفـــو الله أصـــغر

لـــــيس للإنســـــان إلا … مـــا قضـــى الله وقـــدر

لـــيس للمخلـــوق تدبيـــ … ر بـــــل الله المـدبــــر

ويستدعي تجربته المجونية مسائلاً بعد أن ربح مما فيـه خسرـان، فنـراه يعنـف نفسه على نقضه التوبة بعد إعلانها ثم معاودتـه اقـتراف الـذنوب فيلـوم نفسـه لأن الذنوب مكتوبة عليه وحسابها شديد يوم القيامة:

أفنيت عمرك ، والذنوب تزيـد … والكاتب المحصي عليك شـهيد

كم قلت لست بعائدٍ في سوءة … ونذرت فيهـا ثـم صرت تعـود

حتى متى لا ترعوى عـن لـذةٍ … وحسابُها يوم الحسـاب شـديد

1-المرجع السابق215.

وكـأنَّني بـك قـد أتتـك منيَّـة   لا شـك أن سـبيلها مـورود[1]

وهو يحس بدبيب الموت وإفنائه لإعضائه، إذ يـرى ببصـيرته موتـه، وتكفينـه فيرثى لحاله في أبيات تعكس حزن نفسه ولوعة حيرته.

فكـأن أهلـك قـد دعـوك فلـم   تسـمع وأنـت محشرـج الصـدر

وكـأنهم قـد عطـروك بـما   يتـزود الهلكـى مـن العـطر

ياليت شعري كيف أنت عـلى   ظهـر السرـير، وأنـت لا تـدرى؟

أوليت شـعرى كيـف أنـت إذا   غسـلت بالكـافور والسـدر؟[2]

ويقول: حينما وجد دبيب الموت ينساب في أعضائه عضواً فعضواً:

دب في الفنـاء سـفلا وعلـوا   وأرانـى أمـوت عضـوا فعضـوا

ذهبـت جـدتي بطاعـة نفسـى   وتـذكرت طاعـة الله نـضواً

لهـف نفسـي عـلى ليـال وأيـا   م تمليتـهن لـعباً ولهـواً

قد أسأنا كـل الإسـاءة فـاللهم   صـفحاً عنـا وغفـراناً وعفـوا[3]

فها هو ذا ينطق لسانه بم امـتلأ بـه قلبـه في مناجـاة صـادقة، وكـأن المنـاجي لم يك بالأمس القريب من الدعاة للمعاصي المجـاهرين بهـا، المفـاخرين باقترافهـا، فالنفس الإنسانية لا بد لها من إياب مدركًا لحقيقتها، وضعفها، وعاصيها، ولبارئها، وقوته، وعفوه.

1-ديوان أبى نواس 619.
2- ديوان أبى نواس 609-610.
3- ديوان أبى نواس 580.

الصورة الشعرية في إبداع الثنائية

الصورة الشعرية: هى الشكل اللغوى المنظوم الذى صبت فيه التجربة الشعورية في بنيتها النهائية ، وهذا الحد يتناسب مع المعنى المراد منها الأن .

أو هى كمايقول الجاحظ ت 255 بقوله: جنس من التصوير وضرب من النسج، وقد جعلها العسكرى ت395 من أقسام التشبيه "وتشبيهه به لوناً وصورة."[1]

وقد أعطاها الجرجانى – ت 471 – مدلولاً أدبياً مستمدًا من المرائى؛ فالخاتم يشارك أحاد جنسه فى خصال ويباينه فى خصال أخرى " عبرنا عن ذلك الفرق وتلك البينونة بأن قلنا : للمعنى فى هذا صورة غير صورته فى ذلك[2] وقد شكلت الصورة عند أبى نواس تميزاً فريداً، إذ قد يطلب الصورة ولا تمده اللغة العربية، فيلجأ للفظة غير عربية تعطى له ما أراد، فالصورة في نصه الشعري اتسمت: بالحداثة المسندة إلى جذور تليدة ترجع إلى ثقافته المستمدة من علماء عصره .. أبو زيد النحوى، سيبويه، على يعقوب، الحضرمى وغيرهم من علماء اللغة والبيان. إضافة لما شاع في زمانه من أسلوب أدائي، ونهج تعبيري، ولا شك أن الصبغة الذاتية لديه بدت خصالها في فكاهته، وظرفه؛ الدالة على بديهة مقتدرة فقال فيه الحضرى (كان أظرف الناس منطقاً، وأغزرهم أدباً، وأقدرهم على الكلام، وأسرعهم جوابًا).[3]

وحياة أبى نواس الخاصة هى مختصر حياته العامة، وصورة عاكسة للمجتمع واتجاهه في عصره "فقد تحللت الصورة فيه من عقدة الصراع هذا لتغدو الصورة أكثر ملاءمة لظروف الحياة التى يحياها الشاعر العباسي"- على حد قول

1- الصناعتين صـ254 ط عيسى الباب الحلبى 1952.
2- دلائل الإعجاز 365 مطبعة مجلة المنار 1331.
3- ثورة الخمريات صـ 31.

د. العربي درويش –[1] فأبو نواس منح نفسه الحرية في التفلت من القيود والضوابط القديمة، وعبر عن أحواله الجديدة في أطر جديدة غاضاً بصره عن التعابير والأطر القديمة..

يقول :

غدوت على اللذات منتهك الستر	**وأفضت بنات السر منى إلى الهجر**
وهان على الناس فيما أريده	**بما جئت ، فاستغنيت عن طلب العذر**
رأيت الليالي ، مرصدات لمدُتي	**فبادرت لذاتي مبادرة الدهر**
رضيت من الدنيا بكأسٍ وشادنٍ	**تحيَّر في تفضيله فطن الفكر**[2]

فالصورة..... هنا لم تهتم بعقد روابط بين المشبه والمشبه به ، بل تلم شعث أجزاء متباعدة وتحاول إيجاد علاقة بينهما ، فالصورة عنده امتازت بالجدة والاختلاف ذلك" أن لأبى نواس نظراً آخر يحيل الظواهر إلى صور، ورموز، ويرى عبرها ملامح وانعكاسات عالم آخر فيما وراء الحس"[3]

عاقر أبو نواس الخمر، ولازمها عشقًا ربما لينسى همومه ، أولما تبثه فيه من احساس، وقد كان ينفق عليها كل ما يجنيه من أموال، حتى حينما وهبه الخصيب ثمانين دينار، أنفقها كلها على الخمر بلا تريث، وكأنما ألف الفقر والحاجة ، لذا تسربت الملالة إلى نفسه، وأصابه الملل من كل المتاحات حلال أو حرام ، فانغمس في الإدمان المغيب إلى حين، والعرض الذى أولع به أوصله إلى شكل من أشكال التمثيل – على حد قول العقاد[4]وقد أبدع النواسي؛ في وصف كل ما يتعلق بالخمر ،

1- أبو نواس وقضية الحداثة في الشعر ، صـ224، الهيئة العامة للكتاب ، 1987
2- ديوان أبو نواس 139
3- ديوان الشعر العربى صـ 18 ، منشورات المكتبة العصرية ، بيروت ، على احمد سعيد أدونيس
4- الحسن بن هانيء صـ 118

ولم يك هذا بشكل تقليدى، بل التمس صورًا جديدة لها، ووصفها بصفات متعددة، فمنها:

صفة القدم فقدم الخمر ومر الليالي والأيام عليها يكثف تأثيرها ويُعلى قيمتها يقول:

أقامـــت حقبـــة في قعـــر دن تفـور ومـا يحـس لهـا لهيـب [1]

- وفى أبـيـات أخرى

مــــازال يجلوهــــا تقادمهــــا حتى اغتدت روحـاً بـلا جسـم

فكــــأنما أجفــــان شــــاربها مطروفــة بتلألــؤ الــنجم(2)

وهذه صورة شعرية تجسيمية دقيقـة.وكأن قـدمها حولهـا مـن مـادة إلى روح تتلألأ على أجفان شاربها الرقة واللطافة : الخمـر عنـده لا كيـان لهـا فهـى متناهيـة اللطافة موجودة في النفوس كالضمير والدين :

فهـــــــى روح مخلــــــــص فــــارق اللحــــم والــــدما [3]

تحديد الـلون : إذا كان الشعراء قد وصفوا لون الخمر بدقة كبـيرة ، وأشـاروا إلي ألوانها الأربعة : أسود، أحمر، أصفر ، أبيض ، فإن أبا نواس يراها متلألئة دائما مشعة تغنى عن الصبح وضيائه يقول:

قـال ابغنـى المصباح قلـت اتئـد حسبى وحسبك ضوؤها مصـباحاً

فسكبت منها في الزجاجـة شربـة كانت لـه حتـى الصـباح صـباحاً [4]

1-الدن إناء لا يقعد إلا بحفر له الديوان 244– فهو غير مستوى القاعدة
2-الديوان صـ 178
3-المرجع السابق 327
4-الديوان صـ 256

فهذه الصورة الطريفة متعددة الأطراف ، فها هو ذا صاحبه يطالبه بالمصباح ليرى ، فإذا بأبى نواس ينبهه لتخاذ ضوؤها مصباحًا ، فإن ذلـك سـيكفياهما إلي الصـباح، ويستدل على وضائتها ونورها بأنها حين تصب في الكاس تنير كالصباح .

ويتفوق حين يقول:

والشـمس تطلـع مـن جـدار زجاجهـا وتغيب حين تغيب في الأبدان (1)

وصف الطـعم : اتفق الشعراء على أن مذاق الخمر لاذعٌ . مز الطعم ، أما أبـو نواس ، فقد شبه طعمها بالفلفل:

فــالريح عنــبرة، والطعــم فلفلــة والكأس من ذهب ،واللون من نـور[2]

فأربع صور شعرية تتآزر في تكوين موحد يجسد قيمة الخمر : رائحة ،وطعماً، وهيكلاً ، ولوناً.

وصف الرائـحة: أجمع الشعراء على طيب رائحة الخمر ، وشبهها أبـو نـواس بالمسك حين قال:

معتقـــة حمـــراء وقـــدتها جمـــر ونكهتها مسك، وطلعتهـا تـبر (3)

هذه صورة متعددة في القالب التشبيهى أجاد أبو نواس في توظيفه وعرضه.

وصف الصـوت: كان ابو نواس لحبه للخمر مهتمًا بتشخيصها ، يرى أن لهـا صـوتاً فيقول كأن قرقرة الأبريق بينهم رجع المزامير، أو ترجيع فأفاء (4)

فقد سمع صوت الإبريق كترجيع الفأفأء مما يـدل عـلى شـدة طربـه، وشـغفه بسماع صوت الإبريق وهو يسكب الخمر في الكؤوس.

1-الديوان صـ 344.
2-الديوان 294.
3-الديوان 280.
4-الديوان صـ236.

أهتم أبو نواس بتوضيح أثر الخمر الروحى والحسى، ودبيبها في الأعضاء حتى إنها تترك شاربها السكران كالميتة.

حتى غدا السكران من سكره   كالميت في بعض أحايينه (1)

فهذا التقسيم الجيد: هو زمام أمر الأشياء، فلكل شيء رائحة ،وطعم، ومكان، ولون ،وقد حدد أبو نواس ذلك بتصنيف مبدع . إذ حدد لكل جزئية خاصية رأها غلبت على الخمر وطمست خصالها الأخرى ،ومن سمات الصورة عنده- على سبيل العرض والتنويه لا الحصر والشرح-:-

ا – التشخيص: وهو سمة أساسية من سمات الصورة عند أبى نواس، وأجاد التشخيص بإتقان إذ مزج بها نفسه، وهو مثلاً يصور الخمر كعروس يخطبها(2):

يا خاطب القهوة الصهباء، يمهرها   بالرطل يأخذ منها مِلأه ذهبا

قصَّرت بالراح ؛ فاحذر أن تُسَمعها   فيحلف الكرم أن لا يحمل العنبا

إنى بذلت لها لما بصرت بها   صاعاً من الدِّر والياقوتِ ما ثقبا

فاستوحشت ، وبكت في الدن قائلة   يا أم ويحك ، أخشى النار واللهبا

فقلت: "لا تحذريه عندنا أبداً" قالت: "ولا الشمس؟" قلت:"الحر قد ذهباً"

قالت: فمن خاطبى هذا ؟ " فقلت أنا   "قالت فبعلى؟ "قلت : الماء إن عذبا

وهذا شكل حوارى مميز، فإن كان عمر بن أبى ربيعة قد سبقه في الحوار الشعرى الواقعي والمتخيل ، فإن أبا نواس قد فاق وأبدع في التشخيص إذ أوجد الفكرة في ذهنه وشخص الطرف الأخر " الخمر " وأقام الحوار ملتمساً له كل وسائل النجح والإيضاح .

1-الديوان الديوان 347
2- الديوان ص29

وعلى الرغم من أن عصر أبى نواس هو عصر البديع والتعقيد ، إلا أن صورته الشعرية برأت من ذلك" بينما لبث التشخيص في شعر أصحاب البديع صنعة خارجية ، افتقدت فيها جذوة الإحساس "(1) وفى صورة جديدة أصبغ على الخمر خصلة مادية فها هى ذى تختار صاحبها وتحدده وتنتقيه من بين المعروضين عليها .

لا تمكننى من العربيد ، يشربنى	**ولا اللئيم الذى إن شمنى قطبا**
ولا المجوس ، فإن النار ربهم	**ولا اليهود ،ولا من يعبد الصلبا**
ولا السفال الذى لا يستفيق ، ولا	**غر الشباب ولا من يجهل الأدبا**
ولا الأراذل ، إلا من يوقرنى	**من السقاة .. ولكن اسقنى العربا**
يا قهوة حُرمت إلا على رجل	**أثرى، فأتلف فيها المال والنشبا(2)**

والأبيات توحى بعقلية تصنيفية مرتبة لأنواع الشاربين عربيد – لئيم- مجوس – يهود – سفال – غر الشباب – يجهل الأدب – الأراذل – السقاة الموقرون

وهنا ملمح متوهج إذ ان تلك الأبيات تنفى ولاءه لغير العرب ، بل أقر بكرم العربى، وشرف محتده إذ جعل محبوبته – الخمر – تطلب أن تكون له ويتجرعها عربي، وقد يهدف الشاعر إلى ما بعد التجديد، ويرنو إلى تجسيد الحلول والمزج بينه وبين الخمر، يقول إيليا الحاوى: "ومن مميزات أسلوب أبى نواس الصور الكاريكاتورية ؛ وهى في الفن تختلف عن الصورة العادية في الاختلال بين أطرافها والتناقض فى معانيها. والنشوة التى تعترينا بها يغلب عليها الزهو والاستخفاف"(3).

1-فن الشعرى الخمرى وتطوره عند العرب إيليا الحاوى صـ 280 دار الثقافة بيروت ب .ت

2-الديوان صـ 91-92

3-فن الشعر الخمرى صـ 284

ومن أطرف أوصاف أبى نواس قوله :

فكــأنها أجفــان شــاربها مطروفــة بتلألــؤ الــنجم (1)

فهو يطبق أجفانه ويفتحها كأنها مطروفة وهو منظر مثير للضحك عند تخيله، وهو طريف في تصويره ،ويستمر أبو نواس في الإبداع، والتجديـد، صـابغًا غريـب الصفات ، وجليلها عـلى محبوبتـه – الخمـر –، فتمتـد الطرافـة والصـور الجديـدة، فالخمر تهتك الأسرار وتفشيها، وتذهب بالهموم وتفنيها.

فتهتــك أسرار الضــمير مــن الحشــا وتبدى من الأسرار كل حبيس(2)

ويقول أيضًا:

إذا مــا أتــت دون اللهــاة مــن الفتــى دعا همـه مـن صـدره برحيـل (3)

وهناك خاصية لوصف أبي نواس ففي وصفه يأتى بصـور بالغـة الجـدة، قـد تكون حسية، وقد تكون معنوية ، مثل : صورته حول تأثير الخمر على شاربيها فهـى تكسب وجوههم حمرة ، وقد تدفعهم للعبوس والحزن:

كـأس إذا انحـدرت في حلـق شـاربها أجدته حمرتها في العـين والخـد(4)

ويقول:

مزاجهــا دمــع حاســيها فــأى فتــى لم يبك إذ ذاقها من حرقة الكـأس(5)

ومن المطالع النواسية المميزة:-

لمــن دمــن تــزداد حُســن رُســوم على طول ما أقـوت وطيـب نسـيم

تَجَــافى الــبلى عــنهن حتــى كــأنما لَبِسن على الإقـواء ثـوب نعـيم(6)

1-الديوان صـ327
2-المرجع السابق 296
3-المرجع السابق 310
4-الديوان 63
5-المرجع السابق صـ 297
6-العمدة ج 1 صـ 219

ومن مطالعه الشهيرة الاستحسان:

دع عنـك لـومى فـإن اللـوم إغـراء وداونى بالتى كانت هى الداء (1)

ونلاحظ أنه لا يرتكن في صوره إلى المـوروث الثقـافي، أو إلى مـا تولـد في ذهنه المستمد من قدرته الذاتية وموهبته الفردية فقط ، بل إزينـت صـوره الشـعرية بصور مستمدة من القرآن:

إن للمــــــــوتِ أخــــــــذة تسبق اللمـحَ بالبصــر(2)

وفيهـــا التـــأثر الواضـــح بقولـــه تعـــالى:- ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ ٥٠﴾(3) **كذلك قوله :**

والمـرء مـا عـاش عامـلٌ نَصِـب تسبق اللمـحَ بالبصــر(4)

فقد تأثر بقوله تعـالى مـع اخـتلاف المعنـى:- ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ٢ عَامِلَةٞ نَّاصِبَةٞ ٣﴾ وقوله:

إذا ما خلوت الدهر يومًا ، فلا تقـل خلوت ، ولكن قل علَّى رقيب

ولا تحســبن الله يغفـــل ســـاعةً، ولا أنَّ ما يخفى عليـك يغيـب

لهونـا بعمٍـر طـال حتـى ترادفـت ذنوب على آثارهن ذُنـوب(5)

ذُنــــــــــــــــوب(5)

ولم يقتصر تأثره على التصوير القرآنى البـديع بـل تـأثر بشـكل بـيِّن بالبلاغـة النبوية فقال مستوحياً الحديث الشريف.

إن القلـــوب لأجنـــادٌ مجنـــدةٌ لله ، في الأرض بـالأهواء تختلـف

1-المرجع نفسه
2- الديوان612
3- سورة القمر أية 50
4- الديوان612
5-الديوان صـ 63

فـما تعــارف منهــا فهــو مؤتلــفٌ وما تَنَاكَرَ منهـا فهـو مختلـفٌ(1)

ولا يخفـى أن أصـل المعنـى ورد في الحـديث الشـريف أخرجـه مسـلم في صحيحه، بسنده عن ابى هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قـال: "الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف."(2)

قرن أبو نواس حالته حين يشـرب الخمـر بـالمجتمع الخـارجي ، واحساسـه بشكل تجريدي ، واحساسه النفسي وذلك على عكس غيره مـن الشـعراء فالأعشـى والأخطل يتجولان في عالم ذى حدود مادية .. صورهما منتمية للواقع أما أبو نواس فإنه يتجول في عالم المعانى والتجريد ، بالإضافة إلى العالم الواقعي ، فهو إذ ما اعترته حالة تحت تأثير الخمرة ، يشبهها بحالة أخرى شعر بها في نفسه ، فالمشبه والمشـبه بـه من المجردات ، لكن إجادة النظم تُحِلَها في الأذهان . ولا شك أن التطـور العقـلى في العصر العباسى هو الدافع للشعراء ليتجهوا إلى الحديث عن المجـردات، فتحـدثوا عنها وكأنها مجسدات، وانساب ذلك **وتبدى في شعر أبى نواس كقوله :**

اســـقنا ، إنَّ يومنـــا يـــومُ رام ولـــرامٍ فضـــل عـــلى الأيـــام

مــن شراب ألــذ مــن نَظَـر المعــ شـوقِ في وجـه عاشـق بابتـــسام

لا غلــيظ ، تنبــو الطبيعــة عنــه نـبوة السمع عن شـنيع الكـلام(3)

فتراسل الحواس هنا إذ جعل للعين إدراك اللسان ، فأسند لها التـذوق وهـى خاصية إدراك وتمييز اللسان إضافة إلى خاصية تمييزها آلا وهـى الرؤيـة ، وتـداخل الحواس ومحو الفوارق بينهما دليل على الرقى العقلى والإبداع النظمي ، ولقد وضع

1-الديوان 277

2-(كتاب : البر ، والصلة ، والاداب ، باب الارواح جنود مجندة ، 4\20312638): الكتاب : المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم مسلم بن الحجاج ابو الحسن القشيرى النيسابورى (المتوفى : 261 هـ ، المحقق محمد فؤاد عبد الباقى الناشر دار إحياء التراث العربى – بيروت ، عدد الأجزاء 5).

3-الديوان 342.

بذلك بذور الشعر الرمزي الـذى يخلـط بـين الغيـوم والصـفاء، والمرئـي والعقـلي، ويمنح أحيانًا خواص حاسة لأخرى بشكل مبدع.

إلا أن أبا نواس لم يكن يصطحب هذا الأسـلوب بسـتدامة، بـل يخطـر بـه في فلتات نـادرة، ولقـد عُنـي بشـكل زائـد بالصـناعة اللفظيـة، ويبـدو أنـه أسرف في استخدامها مما جعل العتابي يتبعه قائلاً: "والله إنه لشـاعر ، ولكنـه تمـادى بـه حـب البديع حتى أغرق فيه " (1)

ب – **ظاهرة المزاوجة** : في الصورة الشعرية ، زاوجـت الصـورة لديـه بـين القـديم والحديث، فقد تخطى بصورته الشعرية المستحدثة وأسلوبه الحوارى نهج عمـر ابـن أبى ربيعة، حيث امتزجت الحضارة الأنيـة بالثقافـة الموروثـة في ذهنـه ، فالحضـارة والترف ورغد العيش جعله ، يبدع حواراً في أبيات متواليـة ملئـت أناقـة تعبيريـة ، ليس في اللفظ فقط بل امتدت إلى الصورة ، ثم تشعبت حتى سيطرت على الشـكل الفني ، فهو يُلبس الصور التليدة ثياباً قشيبة ، تشهد بقوة تأثره بالحضـارة الطريفـة، وسيطرتها على فنه، يقول :

سقى الله ظبياً مُبدىَ الغُنج في الخطر — يميس كغصن البان من رقة الخصر

بعينيــه ســحر ظــاهر في جفونــه — وفى نشره طيــب كرائحـة العــطر

هــو البــدر إلا ان فيــه ملاحـــةً — بتفتير لحظ . ليس للشمس والبـدر

ويضــحك عــن ثغــر ملــيح كأنــه — حُباب عُقار أو نقيص مـن الــدر(2)

فقد جمعت الأبيات بين القديم والحديث في الصورة : فهى " ظبى وثغرها كا لدر" من الصور المألوفة القديمة، لكنه لم يجعل ريقها خمـراً كالقـدامى، وإنـما جعـل الفقاقيع التي تعتلى كأس الخمر "الحُباب" هو أسنانها رقةٍ، ولمعاناً، ودقـةً، حتـى إذا

1ثورة الخمريات ثورة الزهديات صـ65

2 الديوان 167

ما وصفها بالبدر- على تقليدها -يضيف لها ملاحة اللحظ وفتوره، وهو جمال ليس للبدر، فالشطر الأول يحكى الأحداث وتطورها فيما بينهما ، والشطر طريف بلغ فيه حد الإعجاب والتيه ، ولم نر أحداً بعده يسلكه أو يطوره .

وانتقل أبو نواس بالخيال الخصب إلي الفضاء إذ حلق بعيداً عن المرئيات والموروثات، فأوجد حلقة جديدة انتقل الشعر بها من الإتباع إلى الإبداع ، فصح عليها مسمى " توقيعة " بما تشير له من لقطة حيوية مؤثرة في الشعر لا تقبل الاختصار ، والتوقيعة لابد لتؤدى دورها أن تكن خصبة مؤثرة ، ولها امتداد مؤثر أو مسيطر على البيان ـ للقصيدة ، فتكن متنامية لا " عقيمة محددة الدلالة ، فقد تكن هناك صورة جميلة لكنها عقيمة خواء لا أصداء لها ، ولا مردود على السياق العام للقصيدة "(1) وإذا كان الأمر كذلك فإن الصورة عند أبى نواس ، مظلة واضحة المعالم منكفئة على رؤياه، موضحة لوجهة نظره، متسقة مع حسه وشعوره، فإذا أتت في أبيات تكون إما مستمدة من إرثه الثقافي، أو مستحدثة من تصوره وخياله، ويتداخل الواقع بأحداثه ، ومرائيه في ذلك .

ج- **الطابع الحضارى:-** لا شك أن الصورة الشعرية في عصره تأثرت بالطابع الحضرى ، واستمدت مكوناتها من الحياة الناعمة ، وطوابعها ومكوناتها، فتخلصت من الخشونة والبداوة، كذلك تخلصت من بعض الأساليب مثل المطابقة، والتقيد بالإصابة، ودقة الوصف، فقد انطلق إلى عوالم أرحب وأوسع ، وأقام علاقات بين عالمه المحسوس وعالم التخيل ، فهو يصف المرأة وصفاً جديداً **فيقول:**

وتغمس في العبير قميـ ... ـصها حتى شكا الغرقا

وسالت من عقيصتها ... سلاسل كُسّرتْ حَلَقَا

على بشر كأن الدُّ ... ر يعلُوه إذا عَرِقا(2)

1التفسير النفسي للأدب عز الدين إسماعيل دار العودة ودار الثقافة صـ75-76

2 الديوان 281.

فهو يدعو إلى تحطيم القيود الشكلية في التعبير الفنى، أو في السلوك الاجتماعي، فإذا كانت الطبقة المترفة فرضت التحلل من القيم الأخلاقية، ولا مست الحرية السلوكية، فليتجه هو أيضاً للحرية التعبيرية، وليقصدها صراحة بلا مواربة أو تخفي **يقول:**

ألا فاسقنى خمراً، وقل لى: هى الخمر ولا تسقنى سراً، إذا أمكن الجهر (1)

يقول العقاد: "وإنما كانت مسألة التبذل عنده مسألة ظهور متعمد واستخفافاً برأى الناس، لأنه يريد أن يلقى في روعهم أنهم أهون لديه من أن يتستر لهم، وأن ينزل عن لذة من لذاته لمرضاتهم ، وأنهم أهون عليه فيتحداهم، ويطلب مهاجمتهم ويؤثرها على ثنائهم." (2) فالنزعة الوجدانية جلية في هذا البيت ، وهى منطوية على تحدى المجتمع بضوابطه، فهو لا يستخفى بليل بل مجاهر متحدٍّ .

د – **محدودية ورود أداة التشبيه:** فقد قل استخدامه أداة التشبيه في صوره الشعرية، وذلك حتى ينطلق في رحاب التجريد والتصورات متخلصاً من الحسية. **يقول أبو نواس:**

وكأس كمصباح السماء شربتها على قبلة أو موعد بلقاء

أتت دونها الأيام حتى كأنها تساقط نُور من فتوق سماء (3)

ه- **الإغراب في الخيال،** تشبع أبو نواس بالحضارة الفارسية وهضم ألفاظها **يقول:**

ثم شُجت فاستضحكت عن لآلٍ لو تجمعن في يد لاقْتُنينا

في كؤوس كأنهن نُجُوم جاريات ، بُرُوجُها أيدينا

طالعات مع السقاة علينا فإذا ما غربن يغربن فينا (4)

1-الديوان 148.
2-الحسن بن هانىء أبونواس - العقاد صـ32
3-ديوان أبو نواس شرح إيليا الحاوي 1:46
4- ديوان أبو نواس صـ 30

فصورته مقتطعة من المرائي حوله، إضافة إلى مخزونه الثقافي، **يقول في وصف الأقداح :**

تُـــدار علينـــا الـــراح في عســـجديةٍ	**حبتهـــا بـــألوان التصـــاوير فـــارسُ**
قرراتهـــا كســـرى ، وفى جنباتهـــا	**مهـــا تـــدريها بالقســـيِّ الفـــوارس**
فللخمـــر مـــا زُرت عليـــه جيوبهـــا	**وللماء مـا دارت عليـه القلانـس (1)**

و- **الإفراط فى الاستعارة:** كثر استعمال أبو نواس للاستعارة .. فنجده يختار المعنى الدال على قدم الخمر بأسلوب جديد:

فهـــى ســـن الـــدهر إنْ فُـــرَّت	**نشـــآ وارتضـــعا مـــن لبـــان (2)**

فهي لقدمها لم تنشأ مع الدهر فقط، بل إن الدهر طَعِم منها ما يراه ماثلاً أمامه أما ما كُنَّ وخُفِى فهو المتبقي يقول:

أكـل الـدهر مـا تجسـم منهـا	**وتبقـى لُبابهـا المكنونـا (3)**

ز- **استخدام الألفاظ بإيحاء جديد:** استتبع إيراد أبـو نـواس صـوراً جديـدة أن يستخدم ألفاظاً وصياغة جديدة متخلياً عن الألفاظ القديمة، مثـل تصـويره لقدم الخمر:

كريمــــة أصــــغر آبائهــــا	**إن نسبت كسرى وسابور(4)**

من أقدم الأسماء الشهيرة " كسرى ، سابور " فإن طالبوا الخمر بالانتساب إلى ذويها فها هما ذا ... على قدمهما ، ونظراً لان أبا نواس مرق من كثير مـن الصـور القديمة، فقد أبت الألفاظ القديمة أن تسعفه فيما أتى من صور قشيبة، فقـد لجـأ إلى ألفاظ وصور جديدة، فلم يركن إلى شكل تعبيري واحد من تشبيه أو اسـتعارة بـل

1-ديوان أبو نواس 244
2-الديوان صـ 19
3-المرجع السابق صـ 376
4-الديوان 147.

تبدى إبداعه في توظيفهما بتوازن محمود " فالصورة واللفظ والصيغ والتراكيب جميعها تتعاضد على توضيح الهدف والغاية من هذه الأبيات ،"(1) فمن بنية قصيدته المؤلفة من اللفظ والتركيب، والصورة الشعرية ، تجلت ثقافته وفكرته التى يريد توصيلها ، إذ لديه هدف أكبر من صب الواقع في ألفاظ ، أو رص جمل متناغمة، حتى الاستعارة اتخذت عنده وضعية مختلفة ، لم تعد هى أو التشبيه قائمة فقط على المقاربة بين المتشابهات بلى تخطتها – كما في المثال السابق وغيره- "فالخمرة روح مخلص فارق اللحم والدما ، وأكل الدهر ما تجسم منها ، وتبقى لُبابها المكنونا " فرؤيته العصرية، وحداثته ،وجهتاه إلى الجديد المبتدع ، أو النحو بالقديم منحً جديداً، يتناسب مع الجديد المستحدث في العصر العباسي ، صابغاً ذلك بصبغته الثقافية ، والفكرية، وما تمليه حياته المعاشة " لقد استطاع أبو نواس أن يحتال بطبعه على صنعته، حتى خفيت في تلافيف شعره . ومن هنا كان في تناوله حذراً ، لم يشأ أن يجعل منه غاية ، بل بقى لديه وسيلة للإفصاح عن المعنى لإعطائه أبعاداً أعمق ، أما صوره فعلى الرغم من جدتها وطرافتها، فقد بقيت دائماً قريبة من الطبع تبعدنا على غرابتها عن فكرة كونه صانعاً ".(2) وقد تأثر بالأعشى في صوره وتشبيهه على حد قول د محمد حسين الذى قال في تعقيبه على بيتى أبا نواس:

عُتقت حتى لو اتصلت بلسان ناطق ، وفم

لا حتبت في القوم ماثلةً ثم قصت قِصة الأمم(3)

"إلى جانب هذا التفنن في عرض معانى القدماء، وفى مزج الفلسفة بالأدب، هذا المزج اللطيف الذى لم يقصد به الشاعر إلى أكثر من التظرف ، فلم يحوج السامع إلى جهد التفكير إلى جانب هذا ، نجد أبا نواس قد تخلص من البداوة والجزالة، التي كان الأخطل حريصاً على استبقائهما في شعره، وحتى في البحور الطوال التي أنشأ عليها أبو نواس بعض شعره في الخمر لا يكاد يشعر القارىء بالوقار والجزالة

1-أبو نواس وقضية الحداثة في الشعر د العربى حسن درويش صـ 216
2-التطور الفنى في شكل القصيدة صـ 290، د أحلام الزعيم
3-الديوان صـ 41

التي كان يحسها في خمريات الأخطل ، ذلك لأن أبا نواس قد خلع على شعر الخمر أسلوباً ماجناً عابثاً، بكل معانى المجون والعبث ، ماجناً في بحوره ، وفى ألفاظه السهلة القريبة ، التى حكى بها كلام الشرب والخمَّار والساقى ، وفى معانيه التى تشيع فيها الفكاهة "(1) وإن تبدى تأثر أبو نواس أكثر بالأعشى في استعماله الأوزان القصيرة، في قص حديث الخمر، وشاربيها، ومجلسها . لقد خلع الحياة على الخمر ... ولشدة تعلقه بها حولها من المادية إلى المعنوية فجعلها لدقتها إنها روحًا بلا جوهر.

وهناك صورة شعرية نواسية ....اجتمعت لها البراعة والجدة ، وبدت فيها قدرةأبى نواس على الصوغ المبدع ؛ من دقة في اختيار اللفظ ، إلي اقتدار في صوغ العبارة ، إلى تمحيص المعنى ، والوقوع على أفضل الدلالات، **مثل قوله:**

نغلبها أَولاً، وتغلبنا ... فنحن فرسانها ، وصرعاها

تلتهب الكف من تلهبها ... وتحسر العين أن تقصاها

تجمع عينى وعينها لغة ... مخالف لفظها لمعناها

كان لها الدهر من أب خلفاً ... في حجره صانها ، وربَّاها(2)

فقد اختار ألفاظه بعناية فائقة ، ووظف البديع بأصنافه، فانساب داخل المعانى " نغلبها –تغلبنا " " تلتهب – تلهبنا " وكان له الإبداع كله في عبارته "مخالف لفظها لمعناها " وكأنه قد أدرك بأن اللفظ توأم المعنى، فإذا ما تُلفظ به ورد المعنى إلى الذهن وتجسم ، لذا أراد إحراز هذا السبق وإيضاح المخالفة بين اللفظ والمعنى ، وعلى وضوح دلالة الأبيات إلا أنه لف تلك العبارة بغلالات من الإبهام والغموض المثرى للذهن؛ إذ لم يكشف بالتفصيل عن اللفظ وتداعياته، ثم أوضح المعنى ومقتضياته ، بل ترك ذلك مبهمًا فاتحً المجال لإعمال الذهن .

1أساليب الصناعة في شعر الخمر 25-26
2الديوان 425.

يقول أدونيس: "تتم التجربة النواسية في مناخ من الرمز ، حيث يبدو العالم والطبيعة مجتمعًا آخر، تتحقق فيه بقوة الشعر أحلام الشاعر، ولقاءاته مع نفسه، إن هناك تشابهاً بين الإنسان والطبيعة، ومن هذا التشابه يستمد الشعر مجازاته، واستعاراته، وكناياته وصوره .. فشعره اكتشاف للأشباه والنظائر بين الإنسان وصفاته، والعالم وصفاته"(1).

وهو هنا كان يلامس الرمزية، إذ إنه يستبصر ما يحاكي الإنسان في الطبيعة وما يشابهه باقتدار لم **ينحِ** خاصية تكوينه الإبداعية . وقد تفتق ذهنه عن إبداع صور جديدة للتعبير عن شدة ولعه بالخمر، ولا شك أن تعلق الإنسان بالشيء يجعله – غالبا- مجيداً للتعبير عنه، وهذه الصور الجديدة لفتت النظر إلى إبداعه فكان "أبو نواس للمحدثين مثل امرىء القيس للمتقدمين ، وشعره عشرة أنواع، وهو مجيد في الكل، وما زال العلماء والأشراف يروون شعره ، ويتفكهون به ، ويفضلونه على أشعار القدماء."(2)

رقت عن الماء حتى ما يلائمها لطافةً، وجفا عن شكلها الماء

فلو مزجت بها نوراً لمازجها حتى تولد أنوارٌ وأضواء (3)

فهو هنا يتمادى في وصف رقة الخمر ، ووصف الخمر في تلك الصورة مشكلة بتصوره (وما دامت الصورة كشفًا نفسيًا ، فإن دورها لا يقتصر على النقل الحرفى أو استحضار صورة المحسوسات)(4) بل هى كاشف لما في نفس الشاعر من رغبة ملحة للإغراق في الملذات الحسية علها تنسيه مآله ، لذا استعان بألفاظ مبهرة متلألئة ، بشكل يوحى بدوامها يعكس الرغبة في ذلك نور- أنوار – أضواء...

1- مقدمة ديوان الشعر العربى 18 ' ط1 ، اختيار وتقديم على أحمد سعيد (أدونيس) ، منشورات المكتبة العصرية ببيروت ، 1964

2- خزانة الأدب للبغدادى جـ 1 ، 168ط بولاق

3- الديوان صـ6

4-علم نفس الأدب د محمد طه عصر ص95 شركة ناس للطباعة 2000

وهذا التنوع والتميز التصويرى عند أبى نواس تبدى بشكل جلي لـيس في الموضوعات المطروحة فقط ، بل أيضاً في آلاته وأدواته.... فها هى ذى الأبيات التى تخلد الخمر، وتصبغ عليها من الخصال والصفات ما لم يصـفه بهـا مـن قبلـه – عـلى إبداعهم في وصف الخمر كالأعشى والأخطل – فقد ارتفعـت عـن قـانون المـادة ، وانفجرت بمتوالية حركيـة تمـزج التفاعـل وتنميـه " حتـى تولـد " تعبـيراً يـوحى بالديمومة والاستمرارية " ثم حشد مجموعة مترادفات متلألئة " الأضواء – الأنوار - الذي فضلاً عن إيحائه بالتألق ، والوهج ، شكَّل رمـزاً لتغـير الألـوان وتـداخل الاشعة .... وما كان لخياله أن يحده حدود وهو يتحدث عن إمكانيـات معشـوقه – الخمر – فهي ياقوتة مستقلة ، حتى إنها تسـتطيع أن تحتـل مكانـاً بـذاتها فقـط دون حصرها بإناء:-

قامـت بإِبريقِهـا، والليـلُ معتكـرُ	**فلاح من وجههـا في البيـت لأ لاءُ**
فأرسلت من فـم الإبريـق صـافيةً	**كأنـما أخذُهـا بالعيـن إِغفـاءُ(1)**
رقت عن المـاء حتـى مـا يلائمهـا	**لطافة ، وجفا عـن شكــلها المــاء**
فلـو مزجـت بهـا نـوراً لمازجهـا	**حتــى تولــد أنــوارٌ وأضـــواء**
دارت عـلى فتيـةٍ دار الزمـان بهـم	**فما يصـيبهم إلا بمــا شــاءوا(2)**

هذا التراسل للحواس أكسب كل حاسة خواص أختها فـيرى بأذنـه ، وهـو يعمد إلى الصفات الذهنية ، ويبدع في إطارها ، متجـاوزاً باقتـدار إبـداع سـابقيه في الحقل الفنى نفسه، كالأعشى والأخطل .

فالصورة الشعرية تضخ في نصه الحياة وتتتابع دقات نظمه في متوالية دالة على شدة تأثره بموضوعه، وتناثره في ذاته المشبعة بثقافة العصر، فـإذا مـا أراد التعبـير عنـه؛ تسربت معارفه وثقافاته القديمة إلى لفظه، فعبر عن حسه بصور أَلَّفـت بـين الثقافـة

1شعر اللهو والخمر ، جورج غريب صـ154
2الديوان صـ 7.

القديمة والحياة الحديثة؛ في مزج يعتليه بصمته التي أنذرت ومهـدت للرمزيـة، مـن خلال تراسل الحواس وغيرها من أدوات الرمزية .

ح- **تنامى الصورة وكثافتها:** والصورة عند أبى نواس متنامية ، متنـاثرة ، في أبياتـه، فهو لا يطلعنا على ما انطوت عليه ذاته في مرة واحدة، ويصبه في تشبيه ، أو استعارة، أو كناية، أو غيرهما من وسائل التبيين أو التحسين ، بل كانت تنساب في أبياته أجزاء تجرى نحو الكل حتى إذا ما انتهى من نظـم فكرتـه انجلـت الصـورة ووضـحت، فكثيراً ما رنا بنظم أبياته إلى الاستحواذ على إعجاب المتلقين ومشاركتهم له في تبتله في محراب خمرته **يقول:-**

فتمشـــــــت في مفاصــــــــلهم كتمشـــى الـــبُرء في الســـقم(1)

البرء والسقم ... مجردان ومشى أحدهما في الأخـر بانسـيابية وتسـرـب ، تعـد صورة تجسد الثقافة العباسية الصائغة للمجردات كصياغة الماديات ، بثقافة واقتدار ومن يستمع للبيت قد تداخله الرغبة في التجريب، ومعايشـة اللحظـة، نظـراً لقـوة الصورة وجمالها ؛ إذ تعتمد عـلى الأحاسـيس النفسـية غـير مرتكـزة عـلى الحـواس الظاهرية، وقد أدعى كلثوم العتابى أن أبا نواس سرقـه " مـن شوسـة الفقعســي " حين قال :

إذا مـا سـقيم حـل عنهـا وكاءهـا تصـعد فيـه برؤهـا وتصـوبا (2)

غير أن المعنى وإن كـان متقاربـاً إلا أن ذلـك قـد يرجـع إلى تـوارد الخـواطر والأفكار بين من يشرب الخمر ، ويمارس ويعـايش تسرـب أثرهـا في جسـده حـدةٍ مخفِفَة ، وإلا فأبو نواس عبر بالمشى وهو شيء ملموس ثقيل ، ونص على تأثيرها في المفاصل ، وهى وإن كانت من الأعضاء القويـة المنـوء بهـا تحمـل المشـاق وممارسـة الأعمال ؛ إلا أنها شديدة التأثر بالدبيب عليها وهذا التأثر يسرى في الجسم كله ، أمـا

1الوصف في الشعر العباسي صـ 243.
2المرجع السابق صـ 243

"شوسة " فرؤيته أن السقيم يقصدها استشفاءً وبمجرد حل الوكاء يحصل المراد وانتخابه لفظة " تصعد" على دلالته المعنوية المتجاوزة –المشى- دال على قوة أثرها وعنف تأثيرها فهى تعتليه تصوب وتبرىء سقمه ، فهو ينتخب الكلمات بعناية لتمثل الحالة "الحلَّة " في ذهنه ويريد إحلالها في أذهان الآخرين (إن الكلمات بخاصة في الاستعمال الشعري ليست إلا مجرد أدوات تمثل الأشياء . وليست الصورة التى تتكون من هذه الكلمات إلا صورة تعبيرية)(1)فقد أراد التعبير عما تمثله الخمر في نفسه .فقد بلغ من هيامه بها أن جعلها كريمة لا يتناولها إلا الكريم " فهو يتلاعب باللفظ أو توليده ، فحين يريد أن يقول إن الخمر لا يشربها إلا الكريم ، يشتق من الكرم الكرم ويقول منسباً بين اللفظ ومولداً "(2) – على حد قول د زغلول سلام – يقول أبو نواس: (3)

وخذها إن شربت وميض برق ... بماء المزن من نطف الغيوم

لتجعل هذه عُرساً لهذا ... فإن القَطرَ بعلٌ للكروم

ولا تسقى المدام فتىً لئيماً ... فلست أَحلَّ هذى للئيم

لأن الكَرْمَ من كرمٍ وجود ... وماء الكرم للرجل الكريم

ومن صوره المتنامية في شعر التوبة:

سهوت وغرنى أملى ... وقد قصرت في عملى

ومنزلةٍ خلقت لها ... جعلت لغيرها شغلى

يظل الدهر يطلبنى ... وينحونى على عجل

فأيامى تقربنى ... وتدنينى إلى أجلى (4)

1-التفسير النفسى للأدب د عز الدين إسماعيل صـ69 دار العودة ودار الفكر
2-دراسات في الأدب العربي 111
3-الديوان صـ 144
4-الديوان صـ 336

ففى لقطة ارتفع فيها حسه الإيمانى ، وانخفضت رغباته الجامحة إلى اقتناص اللذات، أدرك أن الدافع إلى سهوه القديم عن عمل الطاعات ، هو الاغترار بالأمل في طول الحياة ، وسبب حزنه أنه أدرك – متأخراً– أنه ترك عمله ، "شغلى بغيره " ، ليس هذا فحسب ؛ بل إنه مطلوب ..وطالبه الدهر فأنى له المهرب ، وقد تكاتفت معه الأيام التي تقربه إلى أجله ، فحزنه على سهوه مُصَعَدْ متنامي، رابطًا للأسباب والعلل.

وقد تعلق بأهداب الأمل ، فها هو ذا يبشر سائل الله أنه قد سلك سبيل الظفر والفوز لأنه رغب إلى الله الباقي الذى لا يلحقه بلى، ولا يتغير ويتعجب من الراغبين في المتغير من الصبا إلى الكبر ، المشتغلون باللواهي وكأنهم في مأمن من سقر يقول:(1)

يا سائل الله فزت بالظفر	**والنوال الهنى لا الكدر**
فارغب إليه ، لا إلى بشرٍ	**منتقل في البلى ، وفي الغِيَر**
وارغب إلى الله ، لا إلى بشرٍ	**منتقل من صبا إلى كبر**
إن الذى لا يخيب سائله	**جوهره غير جوهر البشر**
مالك بالترهات مشتغلاً	**أ في يديك الأمان من سقر**

فهو يستنكر انصراف الناس عن الدايم – الله سبحانه وتعالى – الباقى الدائم، وانصرافهم إلى الفانين المتغييرين، ويدعوهم للإياب لمن لا يخيب سائله والتبرء من الترهات وكأنهم آمنون من العذاب .

1-المرجع السابق صـ 216

التجديد ومظاهره في ثنائية أبى نواس

ارتبط التجديد عند أبي نواس بمواكبة العصر المنطلق من القيود والضوابط، وقد منحه ذلك مقدرة على سرد التفاصيل ممتزجاً ذلك كله بنفسيته ومحيطه، وقد عمد إلى التجديد واتخذ كل الوسائل التى تمكنه من ذلك ، ومنها :

المبالغة: وهى تجاوز الحد المعتاد، وتظهر أكثر ما تظهر في المدح أو الهجاء إذ يغلب حدة العاطفة والانفعال، فيخرج بالمتحَدَث عنه من المعتاد والمتقبل إلى اللا معتاد وغير المتقبل ، والصورة لديه تشكل وحدة منكفئة على أجزاء متنوعة، يربطها كيان عضوي موحد ، فإذا ما تحدث عن الغزال أو الخمر أو التهتك أعطى صورة مرغبة ملىء بالإثارة والتشويق والجذب ، وهذا تبدى في حديثه عن الخمر، إذ اضفى عليها شيات حيوية : ففضلاً عن التلألؤ والضوء، فهي تملك الفعل ورد الفعل وكأن شاربيها يتعاملون مع كائن حى **يقول:**

نأخذها تارةً ، وتأخذنا موتورةً نقتضى ، ونبدَاها

كأن ناراً بها مُحَرشةٌ نهابها تارةٌ ، ونغشاها (1)

هو لا يرى الأشياء على حقيقتها بل يراها بعين الراصد المتخيل ، فالحُباب الذى يعتلى الخمر قد يكون كاللؤلؤ ، ولو جمع من فوقها لصار وشاحاً:-

من قهوة جاءتك قبل مزاجها عطلاً فألبسها المزاج وشاحاً(2)

والوشاح أديم يرصع بالجواهر . والشاعر هنا يشبه الحبب ككل فيجعله وشاحاً تلبسه الخمرة بعد مزجها بالماء . وفى موضع ثالث يشبهها بالبرد ويحترس بأن البرد منضد في غير سلك ولم يثبت بمسمار . فهذه الصور تثبت علقه بها، وخياله الخصب. وقد تمتلىء الصورة بالحركة والألوان .

1ديوان أبو نواس صـ 8
2المرجع السابق صـ256

م شـــــــجت فـــــــأدارت فوقهـــــا طوقـــــاً فـــــدارا

كـــــاقتران الـــــدر بالـــــدر كـــــــباراً وصـــــــغارا

فـــــإذا مـــــا اعترضـــــته العـــين مـــن حيـــث اســـتدارا

خلتـــــه في جنبـــــات الكـــــأ س واوات صـــــــــــغارا (1)

أبيات تزخر بالصور، والمناظر، والحركة ،المتغيرة .. فالحباب بعد شج الخمر سيطر عليها مثل الطوق المرصع بالدر الكبير والصغير ، أو مثل الـواوات الصـغيرة .. ولا شك في أنها صورة مستحدثة جديدة، كذلك أيضًا امتـد بخيالـه الخصـب إلى تصوير الكأس فهو تارة لؤلؤة وأخرى عروس :

فالخمر ياقوتـة والكـأس لؤلـؤة من كف لؤلؤة ممشوقة القـد(2)

كأن الزجاج البيض منها عرائس عليهن بين الشرب أردية حُمـر(3)

وهناك ميل للطبيعة إذ يستحضرها في صوره مثل قوله:

في كئـوس كـأنهن نجـوم جاريات بروجها أيـدينا (4)

وقد سبق الأعشى أبا نواس ثم أقتفى أبو نواس خطوات الأعشـى مـع مهـر خطواته بمبسمه بشكل دال على الإبداع من قوة المغايرة والتجديد قال الأعشى :

وســـبيئةٍ ممـــا تعتّـــق بابـــلٌ كدم الذبيح سلبتُها جريًـا لهـا

فقال أبو نواس:

أعطتـــك ريحانهـــا العقـــارُ وحان مـن ليلـك انسِـفار(1)

1-الديوان 274

2-المرجع السابق صـ 265

3-المرجع السابق صـ280

4-الديوان ص، 339

فقد أجاد أبو نواس في بيته هذا إجادة فاقت الأعشى. فعندما سُئل الأعشى عن معنى قوله " سلبتها جريا لها " فقال : شربتُها حمراء، وبلتُها صفراء ، فبقى حُسن لونها في بدنى ... أما معنى " أعطتك ريحانها العقار " أى شربتها فانتقل طيبها إليك، فمعنى بيت الأعشى ينحصر في وصف تحول لون الخمر بعد احتسائها ، على حين تركز معنى بيت أبى نواس في وصف أثر الخمر ؛ إذ انتقل طيبها إليه بعد عكوفه على شربها حتى الصباح ، فبهذا الوصف حول المعنى المسلوك تحويلاً استحق به امتلاكه(2) وقد أجاد وجدد أبو نواس في وصفه مستقصيًا المعنى الذى هو بصدد الحديث عنه، فإذا كان الوصف " ذكر الشىء كما فيه من الأحوال والهيئات، ولما كان أكثر وصف الشعراء إنما يقع على الأشياء المركبة من ضروب المعاني التي الموصوف مركب منها ثم بأظهرها فيه وأولاها حتى يحكيه بشعره ويمثله للحسن بنعته " على حد قول قدامة بن جعفر(3) - فإن هذا ما كان يسيطر على وصف مجالس الخمر عند أبى نواس ، إذ سيطر الاستقصاء على صوره الشعرية وقد يرسم بالكلمات صورة طبيعية ويضيف إليها ما حوته ذاكرته من حدث تاريخي، كتصويره منظر البقر الوحشي يحتال بعض جنود كسرى لقنصه واصطياده، فكأسه مزدانة بصور كسرى ملك الفرس . وإلى جانب ذلك منظر طبيعي يقول :

تدار علينا الراح في عسجدية حبتها بألوان التصاوير فارس

قرارتها كسرى وفى جنباتها مها تدريها بالقسي الفوارس (4)

1- الديوان 150.

2-اتجاهات النقد العربى القديم للشعر، حسن احمد البندارى، رسالة دكتوراة 93، دار العلوم ، ا. د محمود الربيعى 1985-بتصرف-

3-المرجع السابق صـ 166

4 -ديوان أبى نواس صـ 243

وقد أبدع وأجاد في وصف مجالس الغناء، وهذا يدل على تغلغـل السـمت الفـارسي في الحياة العباسية بشكل عام، وفى حيـاة الطبقـة المترفـة بشـكل خـاص؛ إذ تتضـح وسائل الترف وتنوعها في المجلس العربي كالمجلس الفارسي وقد صـورها في صـور يغلب عليها المبالغة مدحًا أو قدحًا توافقًا مع طبيعته الماجنة، وسلوكياته العابثة.

سمات القصيدة النواسية

أبو نواس من أبرز الشعراء الذين أبدعوا القصيدة في القرن الثانى الهجرى؛ وإذا كان لكل عصر ظروفه المعيشية ... التى يضع عليها بصماته فإن أبا نواس كان أشد الشعراء احساساً بهذه الظروف المتغيرة ،فثلة من الأخرين أقحموا على المجتمع المسلم خصال متفلتة ليَسْهُل استرجاع مجدهم التليد، بعد هزهم قيم المجتمع وثوابته، وتغير نمط الحياة نفسه عن ذي قبل؛ فالحياة الجاهلية كانت منطلقة رحبة يعيش الشاعر كيفما اتفق مع قبيلته سلمًا وحربًا ، إقامَة وظعنًا وقديما تغنى دريد بذلك:

وهل أنا إلا من غزَّية إن غوت غويت وإن ترشد غزيَّة أرشد[1]

واتسم الإبداع بهذا الانطلاق –التفكك أو الاستقلال - إذ يعبر الشاعر عما يريد بشكل أَنيِ محملاً بحسه وشعوره – سرعان ما يتغير الحس والشعور - ثم سرعان ما ينتقل إلى التعبير عن شيء أخر مما أضفى على الإبداع استقلالية وتميزًا، عُدّ أحيانًا تفككًا وانفصالاً، حتى وصف البعض القصيدة الجاهلية بالتفكك ، وعدد مظاهر هذا التفكك بنحو .الوحدة اللفظية والمعنوية للأبيات الشعرية إذ تواضع المبدعون على الفصل ..حتى إنهم درجوا في نقدهم على ما يرسخ هذه المواضعة وذلك الفهم فيقال: أغزل بيت، أهجى بيت، أفخر بيت، مما رسخ البتر والانتقاء للمتلقي، ودعم الاستطراد والانتكاس والتقلب- للمبدع - بين الأغراض، كذلك وحدة الشكل المشروطة، فقد درج الشعراء على التزام الوزن والقافية، إذ يحدثان تناغمًا بإيقاعهما، فاستعاض الشاعر الجاهلي بهذا التناغم والتكامل الشكلى الخارجى عن إحداثه تناغمًا عضويًا يتنامى فى القصيدة، ويتكشف بالتصعيد المتوالي في الأبيات، الحاوية لأقسام مطورة تشكل البناء العضوي الموحد

1- ديوان دريد بن الصِّمة صـ116.

للقصيدة ، نتيجة وحدة الباعث العاطفى ، ووحدة الهدف الفنى، فالجاهلى استغنى بالشكل وترابطه ، عن المضمون وتفككه " صارفاً النظر عما تخفيه من تفكك داخلي وتشتت مضموني "[1]

لكن ذلك لا ينفى كلية وجود وحدة شعرية – بشكل أو بأخر تربط أبيات القصيدة، وتقيم سندها. ووحدة الشعر هذه (كانت نتيجة لوحدة الفكر والصراع) [2] وهناك فارق دق ولطف بين وحدة الفكر ووحدة القصيدة التى تنبعث من حياة ذات أبعاد خاصة ؛ وبين وحدة القصيدة التى هى تجسيد للحظة شعورية، وموقف نفسى موحد) [3]

وفى عصر صدر الإسلام والعصر الأموي حضرت الوحدة نتيجة أحادية الشعور في الأغراض، فهي مقطوعات شعرية قلما تطول وتنظم فى غرض واحد، فإذا ما بدء العصر العباسي بدء معه التغيير الملموس، حيث تجلت الوحدة في بعض الأغراض بشكل بيِّن ..إذ تفلتت القصيدة من المنهج الشعري الجاهلي، ونحَّت المواضعات الفنية المألوفة جانبًا، وبدأوا القصائد وأنهوها كيفما اتفق ، ومنحوا أنفسهم الحرية في ارتياد المواضيع المختلفة ، وتناولها إما بالشكل الجديد أو في إطار المنهج المتوارث، إضافة إلى أن الشعراء توجهوا للتعبير عن ذواتهم، بشكل فردى عميق متخلين عن المنهاج الجمعي السطحي ، لذا تغلب على الشكل الشعرى المقطوعات لا القصائد الطويلة .

وقد صبغت القصائد بصبغة العصر، إذ اتسم الإبداع بالتسلسل والتركيز، وتقصى الفكرة بأجزائها المختلفة، إذ يجند الشاعر كل مؤهلاته لصياغة الفكرة وإبرازها متكاملة. فظهر التعاضد بين الأبيات واستكمال بعضها ببعض، فغابت

1- الشعر الجاهلى .محمد النويهى الدار القومية للطباعة والنشر د.ت.
2- قضايا النقد والبلاغة، د محمد زكى العشماوى ، صـ 145 ، دار الكتاب العربى للطباعة والنشر القاهرة 1967.
3-المرجع السابق صـ147.

مواضعة البيت المكتمل المعنى المستكفي بذاته ، لتحل محله الوحدة العضوية لوحدة الغرض، فالوحدة تحققت نتيجة للتنظيم العقلي، والصوغ الفني، والاقتدار اللغـوي الذى يمده بزاد من المعارف والأفكار المنظومة التي تصاغ بشكل متنامي ، حيث أنه وظف الصورة لاستكمال الغـرض الأسـاسي للقصـيدة، فعـدت الصـورة لبنـة في سرحه؛ توصله لا تفصله، وتسهم إسهامًا مبـاشراً في إعطائـه الأبعـاد التـي يعجـز التعبير المباشر أن يصل إليها، وتتجلى الصورة الشعرية في هذه القصيدة إذ سـاهمت أجزاؤها فى ايضاح ما يريد الشاعر.

وها هو ذا أبو نواس يعبر عن المرائي وهو يرتكز عـلى ثقافتـه ، ومـا شـاع فى عصره إذ يقول[1]:

يا طيبنـا بقصـور القفـص مشـــرفة ** **فيهـــا الدســـاكِرُ والأنهـــار تطـــرد

لمـا أخـدنا مــن الصــهباء، صــافيةَ **كأنهـا النـار وسـط الكـأس تتقـد**

جاءتـك مــن بيــت خمَّــار بطينتهــا **صفراءَ مِثل شعاع الشـمس ترتعـد**

فقام كالغصــن قـد شُـدت مناطقــه **ظبْـيٌ يكـــاد مــن التهييـف ينـــعقد**

فاستلها مـن فـم الإبريـق فانبعثـتْ **مثل اللسان جرى واستمسك الجسد**

ويستمر هكذا موضحاً أن هذا الإمتاع استغرق الاسبوع كله من السـبت إلى الجمعة ، ثم بعد عدة أبيات ينساب إلى مدح الأمير أبو عيسى:

عند الأمير أبى عيسى الذى كملت **أخلاقه فهي كـالأوراق تُنتقـد**[2]

1- الديوان صـ 113.
2- الديوان 79، 80.

فكل جزئية منوطة بفائدة تخدم الصورة الكلية للقصيدة وصارت الصورة "هى الوسيط الأساسي الذي يستكشف به الشاعر تجربته ، ويتفهمها كى يمنحها المعنى والنظام ، وليس ثمة ثنائية بين المعنى والصورة أو المجاز والحقيقة ، أو رغبة فى إقناع منطقي أو إمتاع شكلي ، فالشاعر الأصيل يتوسل بالصورة ليعبر عن حالات لا يمكن أن يتفهمها أو يجسدها بدون الصورة[1] .

فالصورة صارت وسيلة حتمية أو عنصراً فعَّالًا تفصح عن جزء من التجربة الإنسانية للشاعر، وتضيف خبرة للمتلقي، فالصورة في القصيدة النواسية تجسد النقلة الحضارية، والثقافية، والفكرية التي حدثت في الإبداع فى العصر العباسي.

أبو نواس والوحدة العضوية:

وهى استكمال أجزاء الفكرة واستيفائها بحيث لا يكون هناك استدراك عليها .. بمعنى متى تكلم الشاعر عن فكرة ما استقصى أجزاءها، واستوفى أركانها، فلا يتفلت منه شيء، وضم الجزئيات بعضها إلي بعض يشكل الوحدة العضوية." ومن الطبيعي أن تلعب صور جزئية عدة أدوار تبادلية وتكاملية معًا سبيلًا لإنتاج فائض دلالة، يتناسب مع جملة التفاعلات الإيجابية بينها"[2] فنجد اللفظ، والعبارة، والقافية؛ يتعاضدون في لحمة الوحدة العضوية وسُداها، وقد لفتت انتباه القدامى والمحدثين، إذ أشاروا إلى حتمية وجودها يقول ابن رشيق" من حكم النسيب الذى يفتتح به الشاعر كلامه أن يكون ممزوجاً بما بعده من مدح أو ذم، متصلاً به غير منفصل عنه، فإن القصيدة مثلها مثل خلق الإنسان في اتصال بعض أعضائه ببعض، فمتى انفصل واحد عن الآخر وباينه في صحة التركيب غادر بالجسم عاهة تتخون محاسنه وتعفى معالم جماله[3]

1- الصورة الفنية د جابر عصفور 464.
2- دراسات في النثر الحديث، دحسام محمد علم، صـ53، مطبعة بلال ، ط1 ،201.
3- العمدة ج2 ص 94

والوحدة العضوية "تقضي استيفاء كل فكرة في النظم في موضعها المحدد لها من القصيدة قبل الانتقال إلى الفكرة التالية"[1] وقد تحققت الوحدة العضوية في قصائد أبى نواس الخمرية والقصصية ومنها قصيدته:-

وخمارة للهو فيها بقية إليها ثلاثاً نحو حانتها سرنا[2]

لا يصرفنك عن قصف وإمضاء مجموع رأي ولا تشتيت أهواء[3]

الثنائية و بنية القصيدة

اختلفت بنية القصيدة عن ذى قبل ، فأبو نواس شأنه شأن الشعراء يلقى أصحابه بوجه ويتعامل بوجه أخر، أما الوجه الأول فهو ملتزم حريص على التراث متبع أثر القدامى، بينما الوجه الثاني متحرر ينزع للتجديد يبتدر طريقاً ويعبده ، وكأنه تمثل قول العقاد " إن الإنسان كل إنسان بلا استثناء إنما هو ثلاثة أشخاص في صورة واحدة ؛ الإنسان كما خلقه الله ، والإنسان كما يراه الناس ، والإنسان كما يرى هو نفسه"[4] فقد التزم أبو نواس شيات من النهج التليد لكن بأسلوب طريف، ونجد ذكاء الأداء التعبيري تابعًا للذكاء الإجتماعي – أحيانًا[5] فتراوح أسلوبه بين القدم والحداثة بما يتفق مع الأجواء المحيطة المواكبة لظروف نظم النص.

فبينما شخصية أبى نواس مع أصحابه منطلقة لا تخضع لضابط، نجد أن شخصيته في حضرة الحاكم منضبطة لا تشذ عن الضوابط يقول د يوسف خليف: "وكان هذا الازدواج في الشخصية الفنية ظاهرة مشتركة بين الشعراء المجددين في هذه الفترة، حتى أصبحت هذه الظاهرة سمة يحرص شاعر هذه الفترة

1-النقد الأدبى د محمد غنيمى هلال صـ 403

2-الديوان 340

3-الديوان 233

4- أنا عباس محمود العقاد صـ 15-16.

5- قلت أحيانًا لإنه قد يضطر أن يضرب بعرض الحائط كل الضوابط الاجتماعية ، والمحاذير الدينية، ويعبر عما يبتغيه ، ويشتهيه معلنًا إعلانًا صريحًا.

على التمسك بها؛ حتى يظهر في المجتمع الفنى المدرك للبروتوكول الفنى الذى يلبس لكل حالة لبوسها."[1]

وقد هاجم أبو نواس القصائد ذات المطالع الطللية، باعتبار أن ذلك زيف فنى وشعورى، فالشعراء القدامى كانوا يفعلون ذلك، وكانوا يمارسون حياتهم في ظل تلك العادات، فانسابت من ثم في أشعارهم، وتسربت إليها، لشعورهم واحساسهم بها، فعبروا عنها بانسيابية، أما هو و الشعراء المعاصرين له، فلم يمارسوها أو يتأثروا شعورياً بها ، لذا استنكر أن يفرض على الخلف الحس أو الأداء بما أحس وأدى به السلف. فكانت بداية بعض قصائده دخولاً في الموضوع – الخمر-:

أعرض عن الربع إن مررت به   واشرب من الخمر ات أصفاها[2]

وقوله:

أيا باكى الأطلال غيرها البلى   بكيت بعين لا يجف لها غرب[3]

فالقصيدة النواسية تكشف نهج أبى نواس ومهاجمته للمطالع الطللية ودوافعه وقد أفاض فيه النقاد "ثم انظر إليه، وكيف يحقر القديم، ويرفع من شأن الجديد، ويأخذ الناس بأن ينظروا إلى ما حولهم من جمال الطبيعة فيألفوه، ولا يشغلوا عن رياض العراق وجنانه بطول الجزيرة العربية وصحاريها"[4] – على حد قول د طه حسين – في تفاصيل يعرفها المتخصصون، وكيف أن قصيدته ومنها:[5]

عاج الشقى على دار يُسائِلُها   وعجت أسأل عن خمارة البلد

1- حياة الشعر في الكوفة إلى نهاية القرن الثاني الهجري ، صـ692 ، دار الكاتب العربي ، 1968.
2- الديوان 428.
3- الديوان 24.
4- حديث الأربعاء ج2 : 96- 97 .
5- الديوان 110.

لا يرْقىء اللهُ عيْنىْ من بكى حجراً ولا شفى وَجْدَ من يصبو إلى وتـد

قالوا ذكرت ديار الحـى مـن أسـدٍ لا دَرُّ دَرك قـل لى مـن بنـو أسـد

ومن تميم ، ومـن قـيس وإخـوتهم ليس الأعاريب عند الله من أحـد

دع ذا عــدمْتُك واشربهــا مُعتَّقــةٌ صـفراء تُعْنِـق بـين المـاء والزَّبَـدُ

من كف مُختصـرِ الزُنّـار، معتـدل كغصـن بـانٍ تثَّنـى، غـير ذى أود

ويعد هذا ثورة على القديم، ودعـوة للتجديـد، وقيـل إن " الأمـين" خشـى سخط الناس وهم يرون شاعره المفضل بين الزق والعود، فدعاه إلى الإحجـام عـن الإقدام والرتع فيما يغرق فيه نظائره من المجان مما دفع أبا نـواس للأوبـة إلى الـنهج القديم، ثم بعد حين ثقلت عليه الشقة ، ورأى أنه يسير في طريق غير الطريق المتوقع منه مما جعله يسوق مبرراته عن هذه الانتكاسة بأنه مأمور من الخليفة يقول:

دعانى إلى نعت الطلـول مُسَـلَطٌ تضـيق ذراعـى أن أجـوز لـه أمـراً

فسـمعًا أمـير المـؤمنين وطاعـة وإن كنت قد جشمتنى مركباً وعْرا[1]

وقد بدأ بعض قصائده بمطلع خمرى تارة، كالنموذج السابق ومعظـم شـعره كذلك، كما في قوله:

غــرَّد الــديك الصـــدوح فاسـقنى .... طـاب الصـبوح

واســقنى حتـــى ترانـــى حســـنا عنـــدى القبـــيح

قهـــوة تــــذكر نوحًـــا حـين شـــاد الفُلـــك نـــوح

أنــا في دنيـــا مـــن العبــــ ــــــا س أغـــــدو وأروح[2]

1-الديوان صـ 21
2-الديوان صـ 434

أو وصف رحلة صيد مثل:

خلـق الشـباب وشِرتـى لم تخلـق ورميـت في غـرض الزمـان بـأفوقى

ولقـد غـدوت بـد سـتبان مُعلـمٍ صَخِبِ الجلاجل في الوظيف مسبَّقِ[1]

وأرى أن هجومه على القديم أو تفلته من المطلع الطللى كان حسبـما اتفـق إذا واتاه الشعر بشية قشيبة واشها وبهاها، وإن امتنع فله في مـذخوره التراثـى مندوحـة خصبة، لكنه كثيراً ما كان يؤوب إلي القديم ويحتطب في حطبه يقول:

هـل عرفـت الربـع أجـلى أهلـــه عنـــه فـــزالا[2]

فهـذه قصـيدة مـدح لكنهـا اشـتملت عـلى كـل خـلال القصـائد القديمـة: من الوقوف على الأطلال – ذكر الربع .. وأهله ، لقد كان الشاعر يهـوى قاطنيـه – حدد مكانه منطقة "شرورى " الجبلية ..ثم تحدث عن استحالة المكان أثراً بعد عـين .. بفعل الرياح، وأفاض في وصف رحلته ثم انتقل إلى مدح الممـدوح، وإبداعـه في إطار تليد ليس بغريب (ولم يكن ذلك غريباً على شاعر وصف بأنه كان عالماً فقيهـاً، وكان أحفظ لأشعار القدماء والمخضرمين وأوائل الإسلاميين المحدثين)[3].

لكنه كان يميل للتجديد، فنفسه كانت تستطيبه، ويلازم التجويد والتحسـين وقد يلجأ إلى تبرير ذلك ومن هذه التبريرات:

أحســن مــن منـزلٍ بـذى قـار منـــزِل خمَّـــارة بالأنبـــارِ

وشــم ريـــــحانةٍ، ونرجســة أحســن مــن أيْنُــقٍ بــأكوارِ[4]

1- الديوان صـ398.
2- الديوان 330.
3- الشعر العباسى الرؤية والفن، عز الدين إسماعيل، صـ 349 ، دار المعارف مصر،1980.
4- الديوان 162.

اللغة عند أبى نواس:

اتسمت اللغة عند أبى نواس بسمات متعددة منها:

1- التنوع : تنوعت اللغة النواسية تنوعاً ملحوظًا ، وهذا راجع لتنوع مصادره، واختلاف منابعه، إذ فضلاً عن مكثه عند بنى أسد ناهلاً من فصاحتهم غارفاً من سلامة لغتهم ؛ شغف بالعلوم الإسلامية واللغوية وطلبها من مظانها على اختلاف التخصصات(فتتلمذ على يد أبى عبيدة بن المثنى، عبد الواحد بن زياد، أزهر السمان، ويحى الظعان ، وخلف الأحمر) (1) ولغته تفيض بمعجم لغوى مستمد من عدة علوم ، وهو في هذا مسايرًا لثقافة العصر الذى يمور بتيارات مختلطة ؛ إما طريفة، وإما تليدة بشكل جذري أو بين ذلك سبيلاً، وهو ما يفسر نهج الشاعر في نظمه إذ استخدام التليد والطريف ، ومزج بينهما ملامساً لغة الحياة اليومية؛ وما يدور فيها من ألفاظ . وربما كان ذلك سببًا من أسباب شيوع إبداعه والتمثل به.

يقول د شوقي ضيف عن شخصية أبى نواس الذى تبدى إبداعه: " في اتجاهين: اتجاه يحافظ فيه على التقاليد الموضوعة دون أن يشتط في التجديد ، واتجاه يجدد فيه تجديداً واسعاً ، يجدد في معانيه وألفاظه ، ويمكن أن نسلك في الاتجاه الأول مدائحه وأراجيزه ، ومراثيه ، بينما نسلك في الاتجاه الثاني أهاجيه وغزلياته وخمرياته وكل ما يتصل بعبثه ولهوه (2).

كانت الفاظه دولة ..عصرية حالية حيناً ، وقديمة منتمية إلى إرثه الثقافي اللغوي حيناً أخر(3).

1أمراء الشعر العربى في العصر العباسى ، أنيس المقديسي ، ص 8 ، المطبعة الأمريكانية، ط2 1936
2العصر العباسى الأول صـ 227
3وسأكتفى بذكر مثال لهذا وأخر لذاك لكى لا يكون هناك تكرار فمن الجديد
فخذها إن أردتَ لذيذ عيشٍ ولا تعذل خليلي في الحرام
فإن قالوا : حرام . قل حرامٌ ولكن اللذاذة في الحرام =

2- التأثر بألفاظ المتكلمين : فقد تأثر بألفاظ المتكلمين وسيطر عليه حتى في غزله فقد اعتنق" فكرة التولد "وهى " الفعل الذى ينشأ عن فعل آخر دون قصد ".

وذات خَدّ مورد — فتانةِ المتجرد

تأمل الناس فيها — محاسناً ليس تنفد

الحسن في كل جزء — منها معاد مردد

فبعضه في انتهاء — وبعضه يتولد(1)

وقد ارتبطت الفحولة في هذا " بمدى حصيلة الشاعر من هذه العناصر ومدى قدرته على استخدامها وتحريكها في شعره (2)

وقد أخذ على أبى نواس تساهل لغوي قارب اللحن ، إذ أجاز لنفسه ما أجازه سابقوه لأنفسهم من الضرورات كالشواذ ، فهو متبع لا مبتدع ، وقد حرص على التوفيق بين البناء الصرفي، والعمودي، والإطار الشكلي ،والمضمون والتجربة

3- التوازن بين الجديد والقديم : وازن أبو نواس في استخدامه اللغوي بين الجديد والقديم ، فإذا ما طرق الأغراض القديمة، استخدم اللغة التليدة ، بتعبيراتها ، وطرائقها في الأداء، فهو يختار اللفظ الجزل ، والعبارة القاطعة الدلالة ، وحين يعبر عن الجديد وما يحيط به من مظاهر مستحدثه ، يتخلص من ربقة القديم، ويتطلع إلى الحديث عن المحاط به - كما في حديثه عن الخمر والنساء . " مسخراً كل طاقته في سبيل تصوير الواقع

= ومن أشعاره التى يحتذى فيها حذو القدامى- الديوان صـ 1:

ذكر الصبوح بسُحرة فارتاحا — وأملّه ديك الصباح صياحاً -

1الديوان 232

2الوصف في الشعر العباسى ، صـ 432

مستوحياً من أجوائه صوراً، ومعانى ، وأوزانًا، تعبر عن النقلـة الحضـارية والفكرية التي عاشها القرن الثانى الهجرى " (1)

فلغة أبي نواس لا تعكس ثقافته المنوعة المائلة لإلباس كل معنى ثوبه التعبيري المناسب فقط ، بل كثيراً ما تصبح قطعته الشعرية لقطة تصويرية تسجيلية إبداعيـة لأحوال يحياها ، وينغمس فيها مترفوا المجتمع العباسي، وتسيطر عليه اللغة السهلة البسيطة ،يقول في وصف مغنية واصفاً جمالها (2).

طـــــفلة خـــــود رداح   هـــــام قلبـــي بـــهواها

قَـــــدَّها أحســـــن قـــدّ   فاســألوا مــن قــد رآهــا

مـــــا براهـــــا الله إلا   فتنـــــة حـــــين براهـــا

تنشـــر الـــدُرَّ إذا غنـــــ   ـتْ علينـــــا شــــفتاها

وأرى للعـــــود زهـــــواً   حـــين تحويـــه يـــداها

ربـــما أغضـــيت عنـــــها   بصرى خـوف ســـــناها

هـــى همـــى ومنـــائي   ليتنـــي كنـــت مناهـــا

فكلمات الأبيات على بساطتها وملامستها للغة الحياة اليوميـة، متناسـبة مـع جوه النفسي الذى يعكس الانشراح والبهجة ، ويناسب المتلقين المدركين في الجلسة؛ فقد يكونوا في حالة ذهنية غير واعية، فتحول دون تفهم العبارات المركبـة الدلالـة. بينما يستوعبون المنظوم البسيط.

حامـــل الهـــوى تعـــب   يســــــتخفه الطــــــرب

1التطور الفنى في شكل القصيدة وموضوعاتها في القرن الثانى الهجرى ، أحلام الزعيم 233، رسالة ماجستير ج عين شمس، 1977

2الديوان صـ 429

إن بكـــــى يحـــــق لـــــه	**لـــيس مـــا بـــه لعـــب**
تضــــــحكين لاهيـــــة	**والمحـــــب ينتحـــــب**
تعجبـــين مـــن ســـقمى	**صـــحتي هـــى العجـــب**
كلــما انقضـــى ســبب	**منك عَادَ لي سبب (1)**

وبينما نرى في تلك القطعة السهولة واليسر: نرى قطعة غزليـة أخـرى تتسـم بجزيل اللفظ ، وفخيم العبارة ، وإشراق الصورة الشعرية كقوله:-

أنْزفَ دمعى طُولُ تَسكابِهِ	**واختصـني الحـبُّ بأتعابـه**
وأغرقت قلبى بحـار الهـوى	**مما بـه مـن طـول أوصـابه**
واختصني الحبُّ حليفـاً لـه	**بُـورك في الحـبِّ وأسـبابه**
أقبل يسعى في الدُجَى مقبـلاً	**كالبدر يمشِـى بـين أترابـه**
فبات يسْـقيني جنـى ريـقهِ	**يمـزجه لـي بـرد أنيابـه (2)**

1الديوان صـ 227
2الديوان صـ99

الموسيقى

هنـاك علاقـة بـين الغنـاء وأوزان الشـعر، إذ هـدف العباسـيون إلى الأوزان القصيرة وعندما استخدموا الأوزان الطويلة ادخلوا فيها زحافات وعلـلًا ؛ ملأتهـا بالنغم والإيقاع المتناسب مع الغناء فلكـل معنـى وزن أكثـر ملاءمـة لـه مـن غـيره متناسب مع إيحاءاته وما كمن فيه مـن معنـى — " ... فالطويـل يتسـع لكثـير مـن المعاني وإكمالها فلذلك يكثر في الفخر، والحماسة، والوصف ، والتاريخ .... والبسيط يقرب من الطويـل وإن كـان لا يتسـع مثلـه لاسـتيعاب المعـانى ، ولا يلـين لينـه ، للتصرف بالتركيب مع تساوى أجزاء البحرين ، ولكنه يفوقه رقـة، وجزالـة، ولهـذا قل في الجاهلية وكثر في شعر المولدين ، والكامل أم الأبحر السباعية : يصلح لأكثـر الموضوعات، وهو أقـرب إلى الرقـة، وإذا دخلـه الحـذذ وجـاد نظمـه بـات مطربـاً مرقصاً، وكانت به نبرة تهييج العاطفة ، وهو كذلك إذا اجتمع فيه الحذذ والإضمار ، والوافر ألين البحور؛ يشتد إذا شددته ويرق إذا رققته ، وأكثر ما يجـود بـه الـنظم في الفخر، وفيه تجود المراثي ، والخفيف أخف البحور عـلى الطبـع ، وأطلاهـا للسـمع يشبه الوافر ليناً ولكنه أكثر سهولة وأقرب انسجاماً ، وإذا جـاد نظمـه رأيتـه سـهلاً ممتعاً لقرب الكلام المنظوم فيه من القول المنثور ، وليس في جميع بحور الشعر نظيره يصح للتصرف بجميع المعـاني، والرمـل بحـر الرقـة ، فيجـود نظمـه في الأحـزان والأفراح والزهريات ،

ولهذا لعب به الأندلسيون كل ملعـب وأخرجـوا منـه ضروب الموشـحات ، والسريع بحـر يتـدفق سلاسـة وعذوبـة ، يحسـن فيـه الوصـف وتمثيـل العواطـف الفياضة، والمتقارب بحر فيه رنة ونغمة مطربـة عـلى شـدة مأنوسـة ، وهـو أصـلح للعنف والسير السريع ، والمتدارك بحر يصلح لحركة، أو نغمـة، أو زحـف جـيش،

أو وقع مطر، أو سلاح ، والرجز ويسمونه حمار الشعر صالح لنظم العلوم ، فهو أسهل البحور نظماً وأقلها ملاءمة لتصوير الانفعالات، وسائر البحور القصيرة ، تصلح للأناشيد والتوشيحات الخفيفة.[1]

فهذه البحور بما لحقها من زحاف وعلل ورد بكثرة في شعر أبي نواس سواء أكان ذلك البحر في تكوينه الطبعي ؛ أو بعد ما لحقه من زحافات وعلل

الإيقاع السريع : من لمحات أبى نواس الجديدة خضوعه التام لمقتضيات عصره في نظمه . إذ أن العصر عصر غناء وطرب؛ فلا بد أن يتوافق النظم الشعرى مع هذه المتطلبات الحديثة ، ذلك " أن وجود قافية مصرعة في داخل البيت والقافية متحدة في جميع الأبيات في القصيدة يعد تجديداً في النظام الموسيقى للقصيدة العربية في القرن الثانى." [2]

كما تجلى تجديده في إيجاده لقواف داخلية متحدة إضافة إلى القافية الخارجية "الموحدة الموجودة في أواخر الأبيات " [3] – على حد قول د مصطفى هدارة – ومن أبياته في الخمر:

سُلاف دَنٍّ كشمس دَجنِ ... كدمع جفن كَخمر عَدن

طبيخ شمس كلون وَرْسٍ ... رَبيب فُرس حليفُ سجنٍ

رأيت علجاً بباطر نْجا ... لها تَوَجَّى ولم يُثَنِّ

حتى تبدت وقد تصدَّت ... لنا وملَّت حُلول دنَّ

فاحت بريح كريح شيحٍ ... يومْ صبوحِ وغَيْم دجْن

يَسقِيك ساقِ على اشتياقِ ... إلى تلاقِ بماء مُزن

1- أصول النقد الأدبي ، أحمد الشايب ، 323 - 324 - ط8 ، مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة 1973 . والحذذ : تحويل متفاعلن إلى فعْلن بتسكين العين ، والإضمار تحويلها إلى فعِلن .

2- أبو نواس وقضية الحداثة في الشعر صـ184.

3- الشعر العربى في القرن الثانى الهجرى ، د محمد مصطفى هدارة 360 .

يُـــديرُ طرفـــاً يُعـــيرُ حتفـــاً   إذا تكفـــىَّ مـــن التَّثَنـــىّ[1]

فقد لزم الشاعر ما لم يلزم من تقطيعات موحدة القوافى ، ونلحظ الوحـدة في التقطيعات الثلاثة الأولى، إذ التقسيم يستند لوحدة الإيقـاع ويـدعمها دعـمًا، فقـد ساوى بين العبارات مما وفر موسيقى داخلية للنص.

"وإذا صحت نسبة هذه الأبيات لكان معنـى ذلـك أن شـعراء القـرن الثـاني كانوا يستحدثون أنواعاً جديدة مـن الموسـيقى الشـعرية في إطـار الأوزان القديمـة خضوعاً لمقتضيات الغناء في ذلك العصر وتأثيره العميق في الأوزان والقـوافي عـلى السواء"[2] **ومن ذلك:**

ذكر الصبوح بسُـحرة فارتاحـا   وأملَّـه ديـك الصـباح صِـياحًا

أوفى على شعف الجدار بسُـدفة   غرداً يُصفق بالجنـاح جناحًـا[3]

فهذه الحاءات تتقارب على قياس ، والراءات تتراءى فى نسـجه ، والتـاء بعـد الـراء فى " ارتاحـاً "وقبلهـا في "سـحرة" ، وكلتـا اللفظتـين تتاليـان ، وتتعاقـدان بالخناصر، ووسوسة السين بين صلصة الصادات تتجاوب فى جنبات البيت يخفـف من حدتها لين الحاءات ، وهذه كلهـا تتـألف وتكـون في مجموعهـا مـا يشـبه الـنغم العذب الهادىء يطلع عليك مع الصباح، وترافقه تلك الصورة الرائعة لـديك وقـد أوفى في ظلام السحر على شرف من جدار ، طرباً يصـيح مصـفقاً بجناحيـه فرحـاً غرداً يستقبل الصباح وما أجمـل تكريـره هنـا فى قولـه : يصـفق بالجنـاح جناحـاً[4] فإيقاعه الموسيقى منظم وطريف ودائمًا، و هنـاك تناسـب بـين المعـاني والموسـيقى، والأوزان والشكل.

1- ديوان أبو نواس 333.
2- الشعر العربى في القرن الثانى الهجرى 361.
3- ديوان أبى نواس صـ1.
4- تاريخ الشعر العربى حتى آخر القرن الثالث الهجرى، صـ 436، نجيب محمد البهبيتـى ط 3 مكتبـة الخانجى بالقاهرة 1967

" وإذا أردنا تتبع الصنيع الفني عند أبى نواس، مـن حيـث رشـاقة الأوزان، ولباقة التعابير، واهتزاز التقطيعات والتقسيمات، لوجدنا الأدلة على ذلك كثيرة لهذا نكتفى بالإشارة، فى هذا المجال، إلى مقطعات ثلاث نراها خير مثـال لجـمال الواقـع عند الشاعر " :[1] وفى تصويره الحبب وطلاء منظره .

اســـــقنيها بســـــواد قبـــل تغريـــد المنـــادى

مــن كميــت بلغــتْ فى الــد ن أقصـــــى مُســـــتزاد

رضـــعتْ والـــدهر ثـــدياً وتلتـــــه فى الـــــولاد

فهـــي فيهـــا كـــلٌّ مـــا يبـــْ لـــغ مقـــروح الفـــؤادِ

سُـــمْتُها عنـــد يهـــوديٍّ خصـــــيب المســـــتراد[2]

ويستمر في وصف الخمر حتى يقول ..

ثـــم لمـــا مزجوهـــا وثَبَـــتْ وثـــب الجـــراد

ثـــم لمـــا شربوهـــا أخــذت أخــذ الرقــاد[3]

وفى قطعته الثانية نجد اختلافًا بينًا في الصياغة والألفاظ يقول :

اســـــقني والليـــــل داجِ قبـــل أصـــوات الـــدجاج

اســـقني صـــهباء صِرفًـــا لـــــم تدنـــس بِمـــزَاج

نحلـــب الـــراح صُراحًـــا في أبـــاريق الزجـــاج

وغـــزال مـــن بنـــي الأصـــ فـــر معصـــوب بتـــاج

شخصُـــهُ منـــي بعـــيدٌ وهـــــواه كالمُنَـــــاجى

1- شعر اللهو والخمر جورج غريب صـ 188.
2- الديوان 111 ، 112.
3- الديوان 112.

يـــا أبـــا القاســـم صـــبراً   كـــــل هـــــم لا نفــــراج [1]

وفى المقطوعة الثالثة:

بــــاكر اليـــوم الصَّـــبوحا   واعــص في الخمــر النَّصــوحا

واســـقنيها مــــن عُقـــار   عهــدتْ في الفــــلك نوحـــاً

قهـــوة تُقْـــرِن في جسمـــــ   ك مـــع رُوحــــك روحــــاً

فـــإذا صــــادفت منهــــا   نفحــــةً خلـــت نضـــوحًا

ثــــم لا يركـــــبُ منهــــا   مـــــركبا إلا جمـــــوحاً [2]

والقطعة من بحر الرمل، وضربه ما بين مجزوء وصحيح، وروى مميز وجمعت القطعة الشعرية، لفظاً منغماً ومعنى طَرِبًا. إضافة لطرافة الموضوع وخفته، مما يؤكد حرص أبى نواس على مراعاة التناسب بين الموضوع؛ ولفظه؛ وايحاءاته. فهذه المنتخبات دالة .. على أن الموسيقى تنساب من فيه الممتلىء باللذة الحسية، والإمتاع الفنى عاكسةً اقتداراً وتمكنًا ، فقد كان ضارب عود مجيد أو يستنطق العود في مجونه.

وحينما تزهد؛ نجد أن حسه الشعوري المتدفق؛ الجأه إلى بحر البسيط الذى سُمي بهذا الاسم لانبساط الأسباب في أول أجزائه السباعية.[3]

وهو بحر يتسم بـ" اتساع أُفقه وامتداد رقعته وجمال إيقاعه "[4] ونغم البحر وإيقاعه لافت للأذن حتى قيل عنه إن " للبسيط سباطة وطلاوة " –[5] فانسيابية تفاعيل البسيط ، وتواليها المنغم ، يتوافق مع البوح الإنسانى تدفقاً وتواليا، وعندما تزهد أبو نواس قال حامدًا :

1-المرجع السابق 58

2-السابق ص684

3-في علمي العروض والقافية أمين على السيد، ط. .دار المعارف 3ط

4-العروض . تهذيبه وإعادة تدوينه ، الشيخ جلال الحنفي ص164 مطبعة المعاني الجمهورية

5-منهاج البلغاء ، وسراج الأدباء حازم القرطجانى صـ 269، ت، محمد الحبيب بن الخوجة

الحمـــــــد لله ! ألم ينهنـــــــى تجربــة النــاس عــن النــاس

فــأمنع الــنفس هواهــا، فقــد أذلنــــى للنـــاس إفــلاسي

ســـكت للـــدهر وأحداثـــه حتى خـرا الـدهر عـلى راسي[1]

لذا نجد أن القصائد في العصــر العباسـيتطورت تطـورًا ملحوظًـا ؛ وذلـك لارتباط الإبداع بالواقع المعيش ومستجداته ومسايرة الشعر للواقع ، ونمو النزعـة الذاتية عند الشعراء ، إزاء الشعوبية، وخفوت الأسواق الأدبية وجمهورها المنتصرـ لانتهاج نهج القدامى، وتوهج المبدعون الجدد محاولين اسـترداد المجـد البائـد؛ مـن خلال ترسيخ تغيير المجتمع وإضعاف القيم ليسهل السيطرة عليه وقيادته. وقد بـدأ بشار ذلك ، ثم أنضوى تحت رايته معمقًا ذلك الاتجاه شاعر متمكن – أبو نـواس – الذى امتلك القدرة على التعبير فى النهج القديم، والإبداع الجديد، مما أضـفى عـلى نتاجه ثقلاً فنياً ،وموضوعياً، وأدبياً ملفتاً.

إذ امتلك الشاعر نفساً ثورية قلقة ، يتضخم عندها الإحساس الذاتي، ولجأت إلى نزع إعجاب الآخرين؛ فعمد إلى طريق حَزَنْ وملأه إبداعاً، لم تغـب عنـه أصـالة الطبع، فقد حفظ وقرأ ثم أبدع، مسـتخدماً أحسـن التعـابير " هـذا الـذى جمـع لـه الكلام فاختار أحسنه"[2]، وقد اتسمت ثنائيته بالصدق الواقعي، فقـد كانتـا قطعـة من مجتمعه، أثبت فيهما ما يمور فيه من أفكار، واتجاهـات متداولـة بـين المنتـديات، وقيل إن كثير من شعره فى الخمر منحول عليه. رغب الشعراء في معايشة الواقع ثـم التعبير عنه؛ ورغبوا عن الهروب للماضى والحديث عن ملامحه المعروفة، واستقبحوا الحديث عن الأثر الذاهب ، والعين ماثلة يضج بعبق أريجها المكان، والصفة المميزة في ثنائية المجون والتوبة عنـد أبي نـواس الطـرب النظمـى.... فقـد أبـدع في زهـده كإبداعه في مجونه، وإن كان ذلك أوضح في مجونه، نظرًا لغـزارة انتاجـه في المجـون ،

1- الديوان صـ 244.

2- أخبار أبى نواس ، ابن منظور، ط الإعتماد، مصر 1924.

وسلوكه مسالك متعددة لتحقيق هدفه من التفلت من ضـوابط وقـوانين المجتمـع، وزواجر ونواهي الدين، أما التوبة فتتكأ على الندم، والاستغفار، والأمل فى العفـو، وقد امتازت صناعته البيانية بالميزة الطبعية فيخرج النظم منـه متوافقًـا مـع الطبـع ، فينساب في أذن المتلقي بأريحية بعيدة عن الجفوة والتصنع، ومما يميز شعر أبى نواس صفة في الأسلوب ناشئة من طرب الفنان بفنـه، فهـى صـفة تنتقـل مـن الـنفس إلى اللفظ وإلى أية أداة أخرى، إذا كان الفن غير فن الشعر وهى صـفة تـدرك أكثـر ممـا توصف، وتراها فى كل باب من أبواب الشعر، حتى باب الزهـد فـإن للفنـان أيضًـا طرًبا بالزهد كطربه باللهو.[1]

ونلاحظ أن تجديده كان ملتزما لحد كبير، فهو لم يتفلـت كليـةً مـن الضـوابط والمعايير التليدة، بـل أبـدع الجديـد مسـتظلاً بظلالهـا .. لفظـاً وصـورةً وتراكيـب. وتصرف في إطارها، بإضافات لم تخرج إبداعه من التزام معظم ضوابطها.

وقصـائد أبـى نـواس الماجنـة – فى الخمـر– اتسـمت بالوحـدة الموضـوعية المستوفية الأجزاء، فوصـف الخمـرة والكـؤوس، ووصـف النـدامى والخماريـن ، والسقاة والمجلس بما حوى، كل ذلك يعتبر في عرف الأدب غرضاً واحداً ، ومنهجه المحتذى إذ خالف المواضعات الأدبية والنقدية من وحـدة البيـت ، والهـروب مـن التكامل أو الارتباط بين البيتين فربط القصـيدة كلهـا، وصـارت الأبيـات تشـكل جزئيات تساهم فى تكوين الشكل الكلى حيث تتشـظى فيهـا الفكـرة ، ولم يسـكب الفكرة بكثافة فى بيت واحد ويكتفى بذلك كإرثه الثقافي. قصائد أبى نواس قصـيرة وقلما تطل له قصيدة طويلة كقصيدته ....

مـــــــالي وللـــــــــعاذلات   زوقـــــــن لى ترهـــــات (2)

1- دراسات في الشعر العربي ، عبد الرحمن شكرى ، – الدار المصرية اللبنانية- صـ 35
2- الديوان 367

وثنائية الإبداع لديه زهدًا وتوبة ؛ تغاير سمتها تبعًا لتغير الموضـوعات المُعَـبر عنها ، ولم تختلف سمات شعره في الزهد عن سماتها في المجون من ناحية البناء الفنـى إلا يسير، هذا وقد تفاوتت العاطفة في شعره بـين الحـدة والرقـة ، العنـف واللـين، والتوهج والبهتان ، في نظم ثنائيتيه ، لكن صحبهما في كلٍ الانفعال العاطفي، وحدة الشعور، فشعوره جارفٌ ماجنًا أو تائبًا، وهذا يعد صدى للصدق الفني لديـه . إذ يلتحم الشعور الفني مع النمط التعبيري، لذا تنـوع انتـاج أبـى نـواس، فى ثنائيتيـه يستخدم صوراً قديمة لكنها تعكس مكنون ذاته، **وما انطوت عليه حناياه يقول:**

لو ترى الشرب حولها من بعيد قلت قوم من قـرة يصـطلونها[1]

فالصورة قديمة بدوية، لكن الاستدفاء والاصـطلاء لا يـرتبط بعصـــر قـدر ارتباطه بحس، وهو ما شعر به أبو نواس فأجاد التعبير عنه.

وقد سجل أبو نواس مراحل حياته التي انعكست عـلى حسـه وشـعوره **ثـم تبدت في إبداعه فهو القائل:**

قــولا لإبــراهيم قــولاً هِــترا غلبتنـــي زندقـــة وكفـــراً[2]

وهو القائل أيضاً:

لا تحســـبن الله يغفـــل ســـاعة ولا أنَّ ما يخفى عليك يغيـب[3]

وشعر أبي نواس مرآة صافية لما اعتمل في ذاته ، مجونًا ،أو توبـة ، ، بـل إنـه في إبداعه أطاع هواه ومسـلكه ولازمـه ..اسـتواءً وانحرافًـا .. فـإذا توجهـت حالتـه النفسية المتوهجة نحو أنثى .. أبدع، وإذا ما كانت رغبته مالـت إلى ذكـر.. أجـاد فى التعبير، وإذ تطلع إلى كاس رَغَّبَ المتلقين في اقتناصـه، والعاطفـة في شـعره المـاجن

1-المرجع السابق 339.
2-الديوان صـ530 والهتر-بالكسر – السقط من الكلام والخطأ فيه . اللسان مادة (هتر).
3-الديوان 63.

متذبذبة، مرتبطة بحدة أو لين ، يمثل الموقف لذاتـه فشـعوره – كعاريـة مسـتردة – أو مشخصة معروضة على الأخر ، وبقدر تجسيد هذا الأخـر لـذلك الموقـف عنـده يكون الإبداع ... بريقًـا أو إنطفـاءً ، وهـذا الازدواج العـاطفى ، يرجـع لترسـبات قديمة فرضت عليه خلقيًا وبيئيًا، وسياسيًا، وصادفت هوى نفسه، و ما أشـيع عـن فسق أبي نواس ومجونه – الذي ساهم في إشاعة تلك الفكرة بأفعاله المعلنة – ما هـو إلا استجابة لنازع ذاتي لديه من حب الشهرة ، ومخالفـة الأعـراف السـائدة ، سـواء أكان ذلك في اللفظ المؤدِى أو المعنى المؤَدى .

أهم المصادر والمراجع

1 . العصر العباسي:د شوقي ضيف

2 . أدب الزهد في العصر العباسي: د السيد عبد الستار

3 . البيان والتبين: للجاحظ.

4 . الشعر والشعراء: ابن قتيبة.

5 . طبقات الشعراء: ابن المعتز.

6 . في الشعر العباسي الرؤيةوالفن: عز الدين إسماعيل.

7 . مروان بن أبي حفصة (دراسة تحليلية ناقدة) د. السيد إبراهيم محمد. الرد ط 1 مطبعة الحسين الإسلامية 1993

8 . مقدمة ابن خلدون.

9 . الأغانى لأبي الفرج الأصبهاني.

10 . أبونواس الحسن بن هانىء – عباس محمود العقاد – دار نهضة مصر ب-ت

11 . أبو نواس وقضية الحداثة في الشعر د .العربي حسن درويش الهيئة المصرية العامة للكتاب 1987

12 . اتجاهات الشعر فى القرن الثاني الهجرى د مصطفى هدارة دار المعارف – 1963

13 . اتجاهات النقد العربي القديم للشعر حسن أحمد البنداري – رسالة دكتوراه 1985 ا –إشراف د محمود الربيعي دار العلوم

14 . أصول النقد الأدبي احمد الشايب نهضة مصر -1973

15. أمراء الشعر العربي في العصر العباسي – أنيس المقديسي المطبعة1936
16. تاريخ الشعر العربي حتى أخر القرن الثالث الهجرى طـ 3 مكتبة الخانجى 1967
17. التطور الفنى في شكل القصيدة وموضوعاتها فى القرن الثانى الهجري – أحلام الزعيم – رسالة ما جستير عين شمس 1977
18. ثورة الخمريات ثورة الزهديات محمد الصادق عفيفى دار الفكر ط1 1971
19. حديث الأربعاء د طه حسين ط دار المعارف 1958
20. حياة الشعر في الكوفة حتى نهاية القرن الثانى الهجري د يوسف خليف –دار الكتاب العربي
21. دراسات في النثر الحديث، د حسام محمد علم ، دار بلال طـ 1 – 2017
22. ديوان أبى نواس – دار صادر بيروت ، ط2009
23. ديوان الشعر العربي على أحمد سعيد "أدونيس " منشورات المكتبة العصرية ط1 1964
24. الشعر الجاهلي د محمد النويهي الدار القومية للطباعة والنشر د. ت
25. شعر اللهو والخمر ، جورج غريب، الدراسات الأدبية المقارنة 1
26. الشعر العربي الرؤية والفن، عز الدين إسماعيل، دار المعارف ب–ت
27. ضحى الإسلام أحمد أمين الهيئة العامة للكتاب 1977

28. العروض . تهذيبه وإعادة تدوينه ، الشيخ جلال الحنفي مطبعة المعـاني الجمهورية ، وزارة المعارف 1988

29. فن الشعر الخمرى وتطوره عند العرب، إيليا الحاوى بيروت 1960

30. في الشعر العباسي، عز الدين إسماعيل ، دار المعارف ، ب- ت

31. في علمي العـروض والقافيـة ، أمـين عـلى السـيد، ط 3دار المعـارف، قضايا النقد والبلاغة ، د محمد زكـي العشـماوى، دار الكتـاب العـربي للطباعة والنشر .1967

32. مناهج البلغاء وسراج الأدباءحازم القرطجاني ت محمـد الحبيـب بـن الخوجة

33. الوصف في الشعر العباسى إلى دخـول السـلاجقة بغـداد احمـد أمـين مصطفى ، رسالة ماجستير، إشراف د أحمد الحوفى 1968 دار العلوم.

34. النقد النفسي د محمد طه عصر دار ناس للطباعة والنشر.

الفهرس

م	موضوع	رقم الصفحة
1.	المقدمة	3
2.	الدولة العباسية	4
3.	العصر العباسي الأول	5
4.	الخلافة العباسية	7
5.	الحياة السياسية	17
6.	الحياة الإجتماعية	21
7.	الحياة العقلية	30
8.	دور الخلفاء في النهوض بالشعر	105
9.	آثر الثقافات المختلفة على الأدب	112
10.	التجديد في الألفاظ والأساليب الشعرية	131

.11	النثر الفني	140
.12	الكتابة الفنية في العصر العباسي	152
.13	خصائص الكتابة في العصر العباسي	154
.14	ظاهرة الزهد	173
.15	ظاهرة الأرقاء	178
.16	الحياة الفكرية	180
.17	العصر العباسي الثاني	216
.18	أولاً : الحياة السياسية	216
.19	الحمدانيون والإزدهار الأدبي	231
.20	ثنائية المجون والتوبة	235
.21	الموسيقى	308
.22	أهم المصادر والمراجع	317